FOR USE IN
LIBRARY ONLY

PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

SEEN BY R.T.
PRESERVATION
SERVICES
DATE AUG 1, 85

رواية

فتاة مصر

فكاهية تهذيبية اجتماعية عمرانية

وفيها بحث ضافٍ عن اسباب الحرب

بين الروس واليابان

تأليف

الدكتور يعقوب صروف

صاحب المقطم والمقتطف

﴿ حقوق الطبع محفوظة لمعيد طبعها ﴾

اسحق صروف

احد محرري المقطم

مطبعة المعارف باول شارع الفجالة بمصر

كلمة

في فتاة مصر

طارت شهرة هذه الرواية وهي لا تزال في المهد من اقصاء هذا القطر الى اقصائِهِ واخترقت البحار الى سائِر البلدان حيث خفق للغة العربية علمٌ . وما كادت تتمُّ الحول الاول في الوجود حتى نفد كل ما طبع منها ووردت الرسائل على حضرة شقيقي الدكتور يعقوب صرُّوف من رجال العلم والفضل الراغبين في تنشئة الطلاب على تحدي الانشاء الفصيح الخالي من كل تعقيد طالبين اعادة طبعها . ولما كانت اعمالهُ الكثيرة تحول دون اجابة الطلب استأذنتهُ في اعادة طبعها فأذن لي في ذلك

ومن حسن الاتفاق ان حضرة استاذي العالم الفاضل جبر افندي ضومط أستاذ اللغة العربية في المدرسة الكلية السورية في بيروت بعث بمقالة الى مجلة المقتطف الغراء وصف فيها هذه الرواية ابلغ وصف فلم اجد بدًّا من نقل بعض ما جاء فيها . وليس نقلي لهُ تقريظًا للرواية وانما لكي يلمَّ من يريد قراءتها والانتفاع بفوائدها ببعض موضوعاتها

SEP 25 1934

قال الاستاذ :

« قبل ان أبدأ بانتقاد هذه الرواية البديعة في بابها اقول اني كنت أقرأ فتاة مصر كما كنت أقرأ بقية مقالات المقتطف النفيسة وأعيد النظر فيها كما أعيد النظر في تلك فتأخذني نشوة من حسن اسلوبها وما اودعهُ الكاتب

في مطاويها من افكارهِ العمرانية وانتقاداتهِ البديعة الفلسفية إنْ في ما يتعلّقُ بأسباب الحرب الروسية العمرانيـة او في ما يتعلَّقُ بأحوال مصر الاجتماعية والزراعية او في ما يتعلق بالماليين وتأثيرهم في هيئة المدنية الحاضرة

والحق يقال اني كثيراً ما كنت أقدّم قراءتها على قراءة بقية مقالات المقتطف لا لمجرّد الفكاهة واللذة المرادة من كتابة اغلب الروايات بل لما كنت ارى فيها من الحقائق العمرانية والسياسية وما ترمي اليهِ من اصلاح الاخلاق والعادات والتعريض ببعض ما اضرّ بنا من الإقبال على ما كاد يشرفُ بنا على شفا جرفٍ من الافلاس والخراب واشتدَّت غوايتنا بهِ حتى عمَّ اوكاد يعمُّ غنيَّنا وفقيرنا عالمنا وجاهلنا تاجرنا وصانعنا وأعني بذلك مضاربات البورصة والتقحمُ فيها على الخراب ونحن لا نشعر

واقول ايضاً اني بعد ان قرأتها اجزاءً وقت صدورها عدت فقرأتها مجلدةً مرتين فما زادتني قراءتها الاَّ إعجاباً بها ويقيني انها من خير ما أُلف لتهذيب شبابنا وانها اجدرُ كتابٍ لحدّ الآن يحسُن بنا ان نضعهُ بين ايدي شبابنا وطلبة مدارسنا يقرأُونهُ أوّلاً لما فيها من حسن الاسلوب ودقة التعبير مضافاً الى ذلك فصاحة الالفاظ وبلاغة التركيب وسلامة الذوق . وثانياً لما فيها من المرامي والمقاصد الحكميَّة والفلسفة العمرانية ولا سيما ما ينبغي تنبيه اذهان الشبان اليهِ من قوّة المال والماليين وانهُ لا تقوى أمة او تصير شيئاً مذكوراً ما لم يجتمع عندها بكدّ افرادها واقتصادهم رأسُ مال يعدُّونهُ لطوارق الحدثان يغالبون بهِ بقية الامم ويزاحمونهم على موارد التجارة والانتفاع وينازعونهم بكثرتهِ السطوةَ والوجاهة

فلا مجدَ في الدنيا لمن قلَّ مالهُ   ولا مالَ في الدنيا لمن قلَّ مجدهُ

وهنا اشكر لاستاذي الدكتور صروف واضع هذه الرواية لانهُ اجاب ملتمسي في طبعها على حدة لينتفع بها التلامذة خصوصاً وانها وفت بالغاية التي من اجلها التمست منهُ طبعها على حدة وهي الآن كتاب مطالعة لاكثر من ستين بل سبعين طالباً يتمرنون بمطالعتها على تطبيق قواعد النحو على ما يقرأونهُ ويتحدَّون اساليبها في الكتابة والانشاء وقد وفّتْ بهذين الغرضين فضلاً عما يجدهُ فيها الطلبة من الفوائد العمرانية والاخلاقية المقصودة رأساً من تأليفها

موضوع فتاة مصر وأبحاثها

موضوعها او الغاية منها فكاهيٌ تهذيبيٌّ وابحاثها اجتماعية عمرانية . اما الفكاهة فيها فاحكم ان الكاتب وفَّاها حقها من تشوُّق القراء الى الرواية وحديثهم فيها والذي اعرفهُ في هذا الصدد انما اعرفهُ من نفسي واهل بيتي و بعض اصدقائي الذين يقرأون المقتطف وهؤلاء كلهم كانوا اذا تأخَّرَ عنهم المقتطف يوماً خالوهُ اسبوعاً ومعظمهم على ما اعلم كانوا يبادرون حين وصولهِ اليهم الى فتاة مصر . وقد لحظتُ ممن أشرتُ اليهم جميعهم ان غضبهم على عزرا كان شديداً و بلغ استياؤُهم مبلغهُ عند ما قرأُوا الفصل الثامن والعشرين والثلاثين الاوّل في التهييج والثاني في المرافعة واشتمُّوا منهما نجاة عزرا من الحكم عليهِ . فلما ظهرت الحقيقة سُرِّي عنهم و بدت عليهم امارات الرضى والابتهاج

واما الغاية التهذيبية ففي وصف امرأة الخواجه لاڤي وامرأة واصف

بك وابنتيها وحليمة ودورا ما يفي بها . فان كل ما وصف بهِ هؤلاء السيدات او أُسند اليهنَّ من الاقوال والافعال كان غاية في بابهِ في انهُ يرفع النفس في النساء الفتيات وربَّات البيوت ويحبّبُ اليهنَّ الفضيلة والتعقّلَ والطهارة وسلامة النيَّةِ المقرونة بالفهم وصحة النظر ويرغبهنَّ في كل ذلك . وكل ما قيل عن امين بك وما اصابهُ واصاب اهلهُ واصحابهم من الغمّ والحزن هو مما يكرّهُ بالبورصة وامثالها من المضاربات التي استغوت كهولنا وشباننا . وهنا اذكر اني بعثت بهذه الرواية الى ابني في مدرسة الشوير فقرأها ولما رأيتهُ في مسامحة عيد الفصح رأيت انهُ أثَّرَ فيهِ جدًّا ما قيل عن امين بما كرَّهَ اليهِ البورصة وبدا لي منهُ ما يشفُّ عن شدة احتقارهِ لها ولمن يتطوَّح جهلاً في اشغالها مع انهُ لا يتمُّ الثانية عشرة من عمرهِ قبل يونيو القادم . ولا اقول انهُ فهم كل ما فيها من المطاوي الفلسفية ولكني اقول انهُ قرأها فتفكَّهَ بقراءتها واستفاد منها وأقلُّ ما استفادهُ (وهو من اعظم الفائدة) انهُ تولَّدَ فيهِ مقتٌ ونفورٌ شديدٌ من هذه المغواة الجهنمية التي ذهبت بأموال الكثير من تجارنا وابناء الاغنياء والكبراء منا

وكلُّ ما قيل عن هنري برون هو في بابهِ خيرٌ للشبان والطلبة من عشرين خطاباً موضوعها الترغيب في الجدِ وعلوّ الهمة والتجافي عن البذخ والاسراف وانصراف النفس الى المعالي وبذلها في الواجب وخدمة البلاد والأُمة والحكومة

واما بقية الاغراض العمرانية من قوة المال والماليين واسباب الثورة الروسية فيكفي الفهيم اللبيب ما اودعهُ الكاتب فيها من الحقائق والمباحث

الدقيقة مما هو غاية في بابه . وليس لي شيءٌ اقولهُ في انتقاد هذا الموضوع الآ تحفظ الكاتب وهو ما يتطلبهُ العلم وحنكة السنّ وخيرٌ للكاتب ان يعرف القارىء ما يريد ان يقولهُ من غير ان يقولهُ

والخلاصة ان هذه الرواية بديعة في بابها واسلوبها البلاغي وابحاثها . والذي اعتقدهُ انهُ لم يُنسج بعدُ احسنُ منها ولا مثلها وقد خلت من كل تضليل تاريخي يمكن ان يقع في الروايات التاريخية ووقع شيءٌ منهُ في رواية قلب الاسد وما هو على شاكلتها من الروايات كما انها خلت ايضاً مما قد لا تخلو منهُ رواية فكاهية مما يحرّك النفس الشهوانية او عاطفة الحب الطبيعي بما يضرُّ الشبّان والشابّات ويدفعهم الى ما وراءَ الحدّ الذي لا يُحمدُ اندفاعهم اليهِ . وغاية ما اقولهُ في هذا الصدد اني لا اخشى مغبة من قراءتها على تلميذي او على ابني او ابنتي او . او . جزى الله مؤلفها خيراً ولا اقول ما اقول تقرُّباً من كاتبها فانهُ أستاذي بكل ما تحتملهُ هذه اللفظة من المعنى الحقيقي للاستاذ وأنا تلميذهُ بكل ما يجب ان تتضمّنهُ لفظة تلميذٍ من المحبة والاعتبار وليس بين الاستاذ والتلميذ اذا كان على هذه الصورة ما يسوّغ ان يتوهم فيهِ انهُ من قبيل التقرُّب ومجرّد حب الزلفى بوجهٍ من الوجوه والسلام »

هذا ما قالهُ حضرة استاذي الفاضل وهو مطابق لما قالهُ كلٌّ من طالع هذه الرواية من العلماءِ والادباءِ حتى ومن عامة القراءِ فعسى ان تكون اعادة نشري لها خدمة لجمهورهم اسحق صروف

تنبيه : كل نسخة من هذه الرواية لا تكون مختومة بختم معيد طبعها تعدّ مزورة وحقوق الطبع محفوظة لهُ

فتاة مصر

الفصل الاول

السفر الى المشرق

في حيٍّ من احياءِ لندن الجديدة حيث يقلُّ الازدحام وتتسع الرحاب المتروكة من غير بناء بمساعي ارل ميث لتجديد الهواء وتطهير الدماء وانعاش الابدان بيت كبير بل قصر فخيم مبنيٌّ على نسق القلاع القديمة تحيط به حديقة غناء واسعة الارجاء ملتفة الاشجار هبت رياح الخريف على اشجارها ورياحينها فتوردت واغنتها عن الازهار حتى خُدع النحل بها وصار يقع عليها ليتعلَّل بشيء من الاري يجدهُ فيها

في غرفة كبيرة من غرف هذا البيت شاب طويل القامة نحيف الجسم اقنى الانف اسيل الخد اسود الشعر والعينين واختهُ وهي اصغر منهُ سناً واشدُّ بياضاً شقراء معتدلة القوام تخالف اخاها خَلقاً وخُلقاً آخذة عن ابيها وهو اسكتلندي كما ان اخاها آخذ عن امهِ وهي فرنسوية الاصل وهذا هو الغالب في وراثة الاخلاق العقلية والاوصاف البدنية

كانت الغرفة مدفأة بالبخار الجاري في انابيب متصلة باسفل البيت حيث يولَّد ويُدفع الى غرف البيت كلها ومنارة بالكهربائية وفيها كلُّ اسباب الراحة والرفاهة فوق ما فيها من فاخر الاثاث والرياش مما يدل على بسطة عيش ونعمة وافرة . ولا غرابة في ذلك فان رب البيت السر ادورد برَوْن ابا الفتى والفتاة صاحب جريدة لندن نيوز اثرى من جريدتهِ ثروة وافرة اذ بلغ ما يطبع منها في اليوم الواحد ايام حرب البوير مليوناً وثلثمئة الف نسخة فحوَّلها الى شركة مساهمة رأس مالها ثماني مئة الف جنيه وانشأ جرائد أخرى مختلفة الاشكال كثيرة الرواج ولم يكن لهُ غير هذين الولدين واسم الفتى هنري واسم الفتاة دورا . وكان الوقت صباحاً وقد جلس هنري في كرسي كبير مفكراً وجلست دُورا تقرأ جرائد الصباح . وكان ابوها قد قام عن المائدة وذهب الى مكتبتهِ

ودخلت زوجتهُ غرفتها . ومرَّ نحو ساعة وهنري ودورا لا يفوهان بكلمة الاَّ ان هنري لم يكن يقرأ بل كان شاخصاً الى صورة خيالية معلقة امامهُ واخيراً قال لاختهِ أتعلمين يا دورا اني حلمت في الليلة الفائتة حلماً لا يزال شاغلاً بالي . حلمتُ ان فتاة تشبه هذه الصورة في قوامها وملامحها ايقظتني من نومي وقالت لي هلمَّ ورائي اني قرينتك المخلوقة لك هلمَّ فتش عني في ديار المشرق . والحال استيقظت والتفتُّ الى ما حولي حاسباً ان ما رأيتهُ حقيقة لا حلم فلم ارَ احداً . ثم نمت فتكرَّر الحلم ثانية ورأيت تلك الفتاة عينها وقالت لي ما قالتهُ اولاً هلمَّ ورائي الى ديار المشرق هلمَّ فتش عني فيها . فاستيقظت مضطرب البال وكان الوقت صباحاً. ولا شبهة عندي في صحة ما يقال عن الالفة والقرينة فان لكل انسان إلفاً او قريناً يؤالفهُ ويوافقهُ ولا يهنأ لهما عيش ما لم يجتمعا و يقترنا وهذا سر ما نراهُ من الالفة والوئام بين بعض الازواج والنفور والنشوز بين غيرهم

فتبسمت دورا وقالت يظهر لي ان طيف هذه الغانية فتنك ولا اكره لك السياحة في بلاد المشرق اذا اخذتني معك ولكن التفتيش عن الزوجة فيها ضرب من المحال الا ان تكون فتاة من بنات جلدتنا القاطنات هنالك

فقال ولكن الفتاة التي رأيت طيفها سمراء الوجه سوداء الشعر كهذه الصورة ليس فيها شيء من ملامح الانكليزيات فلا يُعقل ان ادعى للاقتران بفتاة شرقية ثم اقترن بفتاة غربية

فقالت اليك عن هذا الخيال الآن فاننا اهل جدٍ لا اهل هزل وقد كدنا نرتاب في الحقائق فهل نصدّق الاحلام

فقال لست من اهل الخيال كما تزعمين ولكن ما تعليل ما نراهُ من الوفا مرةً والخلاف اخرى ولماذا لا يكون بين الناس الفة مختلفة الدرجات كما بين العناصر الكيماوية ولماذا لا نقول ان الحبَّ والالفة الكيماوية من قبيل واحد

فقالت ان اختلفنا في هذا الموضوع فنحن متفقان في فائدة السفر وفي اني اسير معك الى بلاد المشرق فهلمَّ نستأذن والدينا فقد وعدانا بسياحة مثل هذه منذ ثلاث سنوات

وقام الاثنان وذهبا الى غرفة امهما وعرضا عليها الامر فقالت اذا أذن ابوكما لكما في ذلك فلا مانع عندي ولو عزَّ عليَّ فراقكما وكنت اودُّ ان نذهب كلنا معاً ولكنني عالمة ان اباكما لا يذهب هذه السنة لانهُ ينتظر امراً جللاً من وراء تحالفنا مع اليابان ولقد سمعتهُ بالامس يكلم احد الوزراء في ذلك . فلا بد لهُ من البقاء ههنا حيث دفَّة السياسة . ولا ادري اي متى يمكنني ان اخلصهُ من هذا الشغل المنهك القوى وقد كنت اظن ان تحويل الجريدة الى شركة مساهمة يخلصنا من متاعبها فزدنا تعباً ولا سيما بعد ان انتهت حرب البوير وعُقد الصلح فقد انحطَّ المبيع من الجريدة من مليون وثلث الى نصف مليون وابوكما لا يسكن لهُ روع ولا يهدأ لهُ بال لانهُ يخشى ان يعود المساهمون عليهِ باللائمة ولو كانت تسعة اعشار الاسهم في يدهِ وقد نشأ جرائد اخرى فزادت اشغالهُ ومتاعبهُ فاذهبا اليهِ وانا اساعدكما وعسى ان لا يكون نصيبكما مثل نصيبهِ الكد والتعب لغيركما

فقام الاثنان وانطلقا الى مكتب ابيهما وطلبا منهُ ان يأذن لهما في السياحة سنة كاملة فقال لهما وما هي خطة سياحتكما فقال هنري نذهب من هنا الى مصر ونقيم فيها شهراً من الزمان ثم نمضي الى الهند فالصين فاليابان ونعود بطريق امريكا ونشاهد معرض سنت لويس

فاطرق هنيهة يفكّر في الامر ثم رفع رأسهُ والتفت اليهما وقال أهذه السياحة للنزهة فقط ام ممزوجة بعمل مفيد تخدمان بهِ اباكما وبلادكما . فقالا مُرْ بما تريد . قال اذاً لا مانع من سفركما . اما العمل فهامٌّ جداً ولا ابالغ اذا قلت لكما ان حياة الامبراطورية البريطانية بنوع عام وحياة بيت ابيكما بنوع خاص متوقفة عليهِ فهل انتما مستعدان لمساعدتي فيهِ

فقال هنري نعم يا ابي اما دورا فوقفت صامتةً . فقال لها ابوها وانتِ ماذا تقولين . فقالت ربما لا استطيع ان افعل شيئاً مما تطلبهُ منا فكيف أعد قبلما اعرف المطلوب . فقال اصبت من وجه واخطأت من آخر اصبت لانهُ لا يحسن باحد ان يعد بشيء الاَّ وهو قادر على الوفاء بهِ واخطأتِ لانهُ كان يجب عليكِ ان تثقي بابيكِ وتعلمي

اني لا اطلب منكما الا ما تستطيعانهِ

فاحمرَّ وجهها خجلاً وقالت اصبت يا ابي ولكنني شاعرة بما يتردَّد في صدرك ويقيني ان ايدينا ملأى والزيادة على ما عندنا تزيدنا هماً وتعباً

فقال ولكن نحن الآن في معرض البقاءِ او الفناءِ ومناظرونا يتهددون ممالكنا ومتاجرنا والدم السكسوني لا يرضى بالذل . ولما قال ذلك احمرّ وجه هنري ولحظ ابوهُ ذلك فقال ولا يرضى بهِ دم حرّ ايًّا كان فاجلسا الآن فابسط لكما ما اريدهُ منكما

فجلسا وكلمهما كلاماً طويلاً عن زراعة القطن في اميركا واستبداد الاميركيين بالاسعار حتى كادت معامل لنكشير تخرب من جرَّاءِ ذلك واهلها يموتون جوعاً وعن رفع العلَم الروسي على منشوريا كلها وتحصين مرافئها وتهديد التجارة البريطانية فيها وفي الصين وكوريا واطال الحديث الى الظهر . ثم وضعوا خطة السفر وقام وسار الى نادي الصحافة واجتمع بكثيرين من ارباب الصحف اليومية وذاكرهم نحو ساعة من الزمان

الفصل الثاني

نادي الصحافة

الرئيس — رشَّح السر ادورد برَوْن صاحب لندن نيوز ابنهُ وابنتهُ للدخول في نادي الصحافة وعرض اسميهما علينا وقد زكّى طلبهُ السر هنري غراي صاحب لندن بوست والسر كبل كار صاحب مجلة المشرق . والفتى والفتاة عازمان على السياحة في مصر والهند والصين واليابان ويقال في الشهادات الواردة عنهما انهما عالمان حرَج الحالة الحاضرة ويُنتظر منهما نفع كبير

نائب الرئيس — عرفت هنري برَوْن في المدرسة وهو شاب حسن الاطوار كريم الاخلاق يحب وطنهُ وامتهُ لكنهُ شديد التأثر فقد يُحمَل على المجاهرة بما لا نودُّ المجاهرة بهِ

احد الاعضاءِ — هل بقي شيءٌ لا نودُّ المجاهرة بهِ وكل ما نسرُّ وكل ما نعلن معروف عند الجميع بل صرنا نتَّهم باكثر مما نقصد او نضمر

نائب الرئيس — اصبت في ان مقاصدنا كلها معروفة ولو لم نجاهر بها في جرائدنا

ولكن البون شاسع بين ما نقولهُ نحن ونعترف بهِ وما يُنسَب الينا فلا يحسن ان نسير الآ على تمام الحذر

الرئيس — اخبرني السر ادورد انهُ واثق بتعقل ابنهِ وحسن نظرهِ في العواقب

نائب الرئيس — هذا من جهة الشاب اما اختهُ فهل تعلم عنها شيئاً

الرئيس — هي سرُّ ابيها ومثالهُ كانها نسخة ثانية منهُ في الاخلاق والاطوار مع زيادة في الحذر والتوقي ولين في العواطف كما تقتضيهِ حال المرأة

احد الاعضاءِ — اذاً لا نرى مانعاً من الاقتراح عليهما

وجرى الاقتراح السري فنالا من الاصوات ما يجيز لهما الانتظام في نادي الصحافة والاطّلاع على اغراض اصحابهِ وعُين للاحتفال بدخولهما اليوم السابع من الشهر

وفي اليوم المعين اجتمع اعضاء النادي من اصحاب الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية والشهرية ورؤساء محرريها رجالاً ونساء وهم نخبة قليلة لا يزيد عددهم على مئة وستين نفساً . والنادي وراء شارع اكسفرد الجديد مما يلي المتحف البريطاني وهو مبني بالمرمر السماقي وقد أُنفق على بنائهِ وفرشهِ نحو مئة الف جنيه . وفي الساعة المعينة أُتي بهنري واختهِ وأُدخلا غرفة كبيرة لم يريا فيها غير ابيهما والضامنين اللذين ضمناهما ورُبطت عصابة على عيني كل منهما وأُدخل الى مجلس كبير فيهِ اعضاء النادي وطُرحت عليهِ مسائل شتى سياسية واقتصادية وكان الكاتب يكتب ما يجيب بهِ ارتجالاً وتناولت المسائل حقوق الدول وحاصلات البلدان ومتاجرها ومشاكل العمّال واصحاب الاموال وتاريخ البلاد الانكليزية بنوع خاص وتاريخ البلدان التي استولت عليها . ولما تبين الحضور ان الطالبين يصلحان لان يكاتبا جريدة من جرائد انكلترا المشهورة وينفعا بلادهما وامتهما قبلوهما بينهم وكلفوا الضامنين ان يشرحا لهما اغراض النادي بالتفصيل ثم خرجوا بهما الى غرفة المائدة وكانوا قد اولموا لهما وليمة فاخرة فاكلوا وشربوا وخطبوا الخطب الحسان ترحيباً بهما واطناباً في العمل العظيم الذي قام بهِ ابوهما

الفصل الثالث

البالو الخديوي

القمر بدر والسماء صحو وجو القاهرة خالٍ من الرطوبة فتبين الكواكب فيهِ ولا يحجب القمر منها الاّ ما قرب منهُ . والشوارع مزدحمةً بالمركبات تسير فيهـا الهوينا وتلتقي صفوفها في ساحة عابدين ورجال المشاعل وقوف حول الساحة في صفين مستديرين متوازيين فيدفئ حرُّ مشاعلهم الهواء ويظهر لهبها احمر ضئيلاً امام انوار الكهرباءِ وفرسان الشرطة على صهوات خيولهم يأذنون للمركبات في المسير من هذا الصف ومن ذلك دواليك • والسير بطيء حسب نزول الركاب من المركبات امام باب السراي فملّ بعضهم الانتظار ونزلوا من مركباتهم وساروا على الاقدام حتى لا يتأخروا عن الاستقبال حين يقدّم الحضور الى سمو الخديوي

قالت بهيَّة على مَ لا ننزل نحن ايضاً ونمشي مثل هؤلاءِ فقد عيل صبري ومللت الانتظار فقال اخوها انزلي فانزل معكِ وقالت امها انزلا اما انا وابوكما فنبقى في المركبة• ثم تذكروا ان ورقة الدعوة واحدة باسماءِ الاربعة وقد تُطلَب منهم عند الدخول فلا يحسن ان يفترقوا فظلُّوا في المركبة الى ان وصلت بهم الى باب السراي وبادر الغلمان وهم بالثياب الحمراءِ المقصبة وفتحوا بابها واقبل رجال التشريفات فتأبط اثنان منهم ذراعي بهيَّة وامها وسارا بهما الى حيث وضعا ردائيهما وسار ابوها واخوها وراءهما ثم صعدوا سلماً كبيراً من الرخام الناصع البياض مُدّ عليهِ بساط احمر مخملي وقام على طرفيهِ درابزون من النحاس الاصفر كأنهُ الذهب الابريز الى ان بلغوا دار السراي العليا واختلطوا بالجمع . وكانت الساعة الحادية عشرة وقد وصل اكثر المدعوين فغصّت بهم دور السراي وغرفها على رحبها وهم من طوائف شتّى واجناس مختلفة فيهم امراء العائلة الخديوية ونظار الحكومة المصرية وكبار الموظفين والمتقاعدين واعيان الوطنيين والنزلاءِ ووكلاء الدول وضباط جيش الاحتلال وجمهور من السيّاح من انكليز وفرنسويين وروسيين والمان واسبانيول وطليان واميركيين وفُرْس وهنود ومغاربة بازياءِ مختلفة

بعضهم بالحلل المقصَّبة تتألق النياشين على صدورهم واكثرهم بالثياب السوداءِ التركية او الاوربية على نسق واحد او بالعمائم والجبب . هذا من قبيل الرجال . اما النساء فلا تسأل عن ازيائهنَّ وحلاهنَّ وحليهنَّ ولا تكاد اثنتان تتماثلان في شيءٍ وهنَّ في ذلك على درجات متفاوتة فمن سيدة في حلَّة من الحباك الارلندي لا يقلُّ ثمنها عن مئات الجنيهات وتاج من الماس البرَّاق وعقد من الدر النضيد ومشابك واساور يتألق ماسها وياقوتها وزمردها كالدراري ويقدَّر ثمنها بالوف الجنيهات - الى سيدة غنيت بجمالها عن مظاهر الغنى فلم تلبس الاَّ ثوباً من الشاش الرقيق ولم تتحلَّ الا بزهرة وضعتها في صدرها واخرى شكلتها في شعرها . والناس يعجبون بجمال هذه وبساطة لبسها وسلامة ذوقها كما يعجبون بابَّهة تلك وما عليها من دلائل الغنى والجد

بعد هنيهة من الزمن التفتت بهية الى اخيها وقالت لهُ انظر يا امين جارتنا استير وما اجمل هذا العقد في عنقها فهو لؤلوءٌ حرٌّ على غلاءِ اللؤلؤ في هذا الوقت

فقال نعم وماذا يهمها فقد ربح ابوها بصعود القطن لا اقل من مئة الف جنيه ويقال انهُ ساعٍ في مشترى مئة الف فدان من الحكومة لشركة انكليزية وسيكون ربحهُ منها مئة الف جنيه اخرى . مئتا الف جنيه في سنة واحدة عدا ربحهِ العادي من السمسرة

ففتحت بهية عينيها ورفعت حاجبيها وقالت مئتا الف جنيه في سنة واحدة هذه ثروة طائلة

فقال ألا تتذكرين ما قرأناهُ في التوراة من ان اليهود سيعودون الى بلادهم بثروة الامم وهم الآن من اغنى الناس في كل بلاد استتبَّ فيها الامن وروعيت الحقوق

فتبسمت وقالت لهُ هذه فرصة لا تفوَّت فليس لاستير الاَّ اخ واحد والخواجه لاڤي يحبها ويقال انهُ يستشيرها في كل اموره على حداثة سنها ولا بد من ان يورثها نصف امواله

فقال ولكن ابناء اعمامها كثيرون فلا يدعونها تذهب الى اجنبي ثم اني لا اكرم هذه الفتاة واسرُّ بحديثها لغناها وغنى ابيها بل لجمالها وذكائها ودعتها وعندي انها مثال

من هذا القبيل

فضحكت وقالت أهذا اعتقادك فيَّ ما اقل الاخوة الذين يعتقدون الكمال في اخواتهم الى هذا الحد

فقال وانتِ تعلمين انني شديد الانتقاد فلا اتكلم عن الهوى . ولكن ما لنا ولهذا الحديث الآن تعالي ارقصي معي لئلا يأتي آخر ويدعوكِ الى الرقص معهُ وابي لا يريد ذلك

وقبل ان يتم كلامهُ دنا منهما شاب طويل القامة كبير العينين اسود الحاجبين عالي الجبين يجري في عروقهِ الدم العربي والدم التركي فسلم عليهما مصافحة ثم سأل بهية عما اذا كانت تتنازل الى الرقص معهُ فنظرت اليهِ وقالت لقد وعدت غيرك قبلك فقال الرقصة التالية فقالت ان لم اتعب كثيراً . فادرك انها تفضل ان لا ترقص معهُ لكنهُ شكرها وبقي واقفاً يرى جمالها الفتّان ويعجب باعتدال قوامها ودعج عينيها وعذوبة منطقها ويقول في نفسهِ ما ضرَّ حليمة لو اتت الى هذا المكان وشاهدت اخوتها واخواتها ابناء آدم وبناتهِ . وكيف يحجب النظر عن رؤية اجمل مخلوقات الله وافضلها . يقولون ان القلب يَغْوَى . وهذا صواب ولكن الالفة تزيل الغواية ففي اول نوبة دخلت مرقصاً وشاهدت النساء مكشوفات السواعد والصدور دُهشت واشمأززت واستغربت وصرت احجب طرفي لئلا أُغوى ثم قلَّ هذا الاستغراب في المرة الثانية والثالثة الى ان زال وانا ارى الآن المرأة العارية النحر والصدر كما ارى الزهرة والحلية فاستحسنها اذا كانت حسناء واستقبحها اذا كانت شنيعة وقد لا التفت الى كونها جميلة او شنيعة بل الى انها فلانة او فلانة وسواء عندي لبست ثياب البالو او ثياب الحداد وسواء رأيت وجهها فعرفتها منهُ او رأيت حبرتها فعرفتها منها

هذه الخواطر جالت في بال حليم وهو واقف ينظر الى امين وبهية يرقصان مع عشرات غيرهما وكأنهُ لا يشعر بما امامهُ ثم تنبَّه لهما ولغيرهما من الراقصين والراقصات فلم يفقه الاَّ الى حركات الرقص ومن يحسنها ومن يسيئها شأن غيره من الذين الفوا هذه المشاهد

انتهى دور الرقص وسار امين واخته الى غرفة الاشربة فشربا كأسين من القهوة المثلوجة والتقيا باستير واخيها هناك فسلم بعضهم على بعض ومشى يوسف اخو استير مع بهية ومشى امين مع استير وساروا الى دار الرياحين وجلسوا يتسامرون

ومرَّ الخواجه لاقي بجماعة من العلماء اصحاب العمائم و بينهم الامام احمد وهو استاذ مشهور بالعلم والفضل وكان الخواجه لاقي يتودَّد الى الوطنيين ويقول ان معرفة لغتهم العربية لازمة كمعرفة العبرانية والزم من معرفة الفرنسوية والانكليزية والايطالية .

وكان الامام احمد منذ ست سنوات رقيق الحاشية على اشتهاره بالعلم والفضل فستخدمهُ الخواجه لاقي لتعليم ابنهِ وابنتهِ فدرَّسهما العربية قراءة وكتابة وصرفاً ونحواً واعطاهُ الخواجه لاقي فوق اجرتهِ العادية عشرين سهماً من اسهم الدائرة السنية التي اخذها المؤسسون كان السهم منها يساوي جنيهاً فصار يساوي مئة جنيه فاقبلت الدنيا عليهِ وصلح حالهُ ودعي الى منصب علمي رفيع ويقال ان الخواجه لاقي لم يعطهِ تلك الاسهم جزاء تعليمهِ لولديهِ بل لكي يساعدهُ في انشاء شركة ضمان الحياة واقناع العلماء اللافتاء بجوازها. ومهما يكن من الامر فقد صار الامام احمد بعد ان صلحت حالهُ قطب دائرة لجماعة كبيرة من العلماء والمريدين فلا يجلس في مجلس الاَّ تألبوا حولهُ يسمعون اقوالهُ

لما اقبل الخواجه لاقي نهض الإمام احمد اجلالاً له فنهض الذين حولهُ ايضاً ثم جلسوا معاً وقال الامام موجهاً الخطاب الى الخواجه لاقي كنا نتكلم الآن عن الرقص وغيره من العادات الاوربية فقلت لاخواننا ان الرقص لا يختص بالاوربيين بل هو شائع في كل البلدان وبين كل الامم وقد كان شائعاً من قديم الزمان • ويقال ان بعض العجماوات تظهر سرورها بالرقص لكن عاداتنا القومية تستهجنهُ اذا كان على هذه الصورة • وقد بلغني ان كثيرين من الاوربيين والاميركيين يستهجنونهُ ايضاً ومهما يكن من امرهِ فنحن في غنى عنهُ ولو كنا اقتبسنا كل اللباب من حضارة الاوربيين وبقي علينا القشر لنظرنا في تحليل اقتباسهِ ومع ذلك لا انكر على ابناء وطننا من اسرائيليين ومسيحيين الاقتداء باخوانهم الاوربيين . فقال الخواجه لاقي الحق معك

يا استاذ وانا ايضاً اكره هذا الرقص ولكن المثل يقول مع السوق سوق . فقال واحد من الحضور وما قول الامام في شرب الخمر

فتبسم الامام وامرَّ يدهُ على لحيتهِ وقال « ان الحسين بن موسى استحضر ابن عيَّاش وابن ادريس فسألهما عن النبيذ فقال ابن عيَّاش حلال وقال ابن ادريس حرام فقال ابن عيَّاش ادركنا ابناء الصحابة والتابعين بهذه المدة يشربونها في الولائم حلالاً او حراماً وبكاؤنا على اصل الدين اشد من بكائنا على النبيذ » وانا اقول قولهُ فاننا اضعنا اصول الدين فعلينا البكاء لا على شرب الخمرة وقد شربها اكثر خلفائنا من بني اميَّة وبني العباس . ولا شبهة عندي في انها ضارَّة وقد نهى الشرع عنها لضررها شأنهُ في كل المناهي فان كل احد لا يأنف من ان يشرب سمًّا يسمُّ بدنهُ فهو وشأنهُ ولكن اذا كان السمُّ قليلاً لا يضرُّ لقلتهِ فقد امتنع ما يوجب المنع . واذا كان نافعاً في بعض الاحوال واشار بهِ الطبيب فلا بدَّ من الاخذ بقولهِ . والمسألة مسألة نفع وضرّ اذ لا يُعقَل ان تكون الخمر محرَّمة لذاتها سواء نفعت او ضرَّت ومع ذلك فمذهبي الامتناع عن المسكرات كلها الاَّ اذا امرَ بها الطبيب دواء وحينئذٍ يكون فيها منافع للناس . والا فالكحول الصرف اكبر فائدةً واسلم عاقبةً بالمقادير التي يشير بها الطبيب

ثم مرَّ الجناب الخديوي من تلك الجهة فنهض لهُ الجلوس وقوفاً على الاقدام فحيَّا بعضهم مصافحة ولا سيما الامام احمد فانهُ خصَّهُ بالتفاتهِ وتكلم معهُ هنيهة

وسار بعض الحضور الى غرفة الاستقبال الكبرى فرأوا فيها وزيراً من وزراء المغرب الاقصى مرَّ بالقطر المصري في رجوعهِ من الحج فجلسوا اليهِ وكان بينهم رجال عرفهم من قبلُ فعرَّف بهِ رفقتهُ وجلسوا يتحدثون في احوال الدول الاسلامية بنوع عام والبلاد العربية بنوع خاص وتوسعوا في الحديث الى المغرب الاقصى واحوالهِ الحاضرة وما ينتظر لهُ في المستقبل القريب . وكان الوزير شديد الحذر لكنهُ لم يخفِ اعجابهُ بما رأى من التقدم الباهر في القطر المصري وودَّ ان ينتفع ابناؤهُ كلهم من الفرص المباحة لهم فيأخذوا إخذ الاوربيين ويتعلموا تعلمهم ويزاولوا الاعمال

مثلهم وقال انهُ يرجي لبلاده خيراً كبيراً . واراد بعض الحضور ان يستطلعوا طالعهُ فسألوهُ من اين يأتي هذا الخير وعلى يد من فقال الله كريم ولم يزد

وفتحت غرفة المائدة حينئذٍ وهرع اليها الناس افواجاً حتى امتلأت بهم على رحبها ودخل امين واختهُ اليها ووقفا مبهوتين مما رأياهُ فيها من النقش البديع . وكان امين مغرماً بكل ما هو شرقي فقال لاختهِ انظري ما ابهى النقش الشرقي وتناسق الالوان فيهِ . فشغلا عن الاكل برؤية نقوش الجدران والسقف وحاول قراءة الاشعار المكتوبة تحت السقف فقرأ بعضها ولم يستطع قراءة البعض الآخر لانها مكتوبة بحروف معلقة متداخلة فتتعذر قراءتها على مَن لم يمارس قراءة الخط المعلق

ورأى في غرفة المائدة اميراً هندياً لابساً حلة عسكرية بديعة الزركشة وحولهُ جماعة من الوطنيين وهو يخاطبهم بقولهِ « لا اله الا الله » ويقف عند هذا الحد لانهُ لا يعرف من العربية غير كلمة الشهادة وهم مسرورون بهِ مدهشون من منظرهِ يودون ان يسألوهُ عن بلادهِ وقومهِ ولكنهم يجهلون لغتهُ فخاطبهُ بالانكليزية فابرقت اسرة الامير وهش اليهِ وجعل يكالمهُ ويكلم الجمع بواسطتهِ وهو يترجم لهم ولهُ وبقوا على هذه الصورة نحو نصف ساعة فسألوهُ عن امور كثيرة تتعلق ببلادهِ وقومهِ وتطرقوا الى بعض المسائل السياسية فقال الى هنا فانهُ يباح لي ان اتكلم في كل موضوع الا هذه المواضيع . ورأت بهية اخاها يكلم الامير الهندي فوقفت الى جانبه تسمع ما يقولهُ والعيون شاخصة الى محياها الجميل

وكان في الجمع شاب انكليزي من كبار السياح الذين يُدعون عادة الى البالو الخديوي فرأى جمعاً محتشداً حول كولونل هندي فدنا منهُ ولما وقعت عينهُ على بهية وقف جامداً كالصنم ثم هرول يفتش عن اختهِ واخذها من كهلٍ كانت تمشي معهُ بعد ان اعتذر اليه وقال لها بصوت خافت وقلب خافق وجدتُها وجدتُها . فقالت مَن هي فقال الفتاة التي زارتني في الحلم وانا سائح للتفتيش عنها تعالي انظريها . قال ذلك واتى مع اختهِ الى حيث الجمع المحتشد حول الامير الهندي فنظرت الى بهية ورأت انها تشبه الصورة التي في يدهم فتبسمت وقالت لاخيها اصبت فانها تشبهها تمام المشابهة

كأن المصور اراد ان يصور الشكل المصري وهو في اجمل حالاتهِ وابدع معانيهِ فجاءت صورتهُ المجردة من صور الخيال مشابهة لصورة هذه الفتاة . انها جميلة جداً لا اخالفك في ذلك ولكنني على رأيي الاول وهو ان رسم الصورة التي عندنا ارتسم في مخيلتك فرأيتهُ في نومك وهذه الفتاة بريئة مما تراءى لك لا يدَ لها فيهِ

فقال دعيني من التعليلات العلمية . هذه الفتاة تستحق ان تُعبَد ولا سيما اذا كانت اخلاقها مماثلة لخلقها فما السبيل الى التعرُّف بها

فقالت ما دمنا في القاهرة فلا نعدم سبيلاً الى ذلك فقد رأيتها منذ ساعة تتكلم مع ابنة المستر لافي الذي اتيناهُ بمكاتيب التوصية من لورد بنشيلد فسأسألها عنها

فقال احسنتِ نعم لقد رأيت مس لافي هنا وكلمتها وهي جميلة ايضاً ولكنَّ جمالها اوربي لا شرقي

فقالت كيف ذلك واليهود من اصح امم المشرق نسباً

فقال نعم ولكن بعضهم اقام في اوربا مئات من السنين ففعل بهم الاقليم فعلهُ بالاوربيين كما ان يهود بلاد الحبش صاروا سوداً مثل الاحباش

فقالت ولكن جمهور العلماء على ان هيئة اليهود لم تزل واحدةً في كل البلدان التي تفرقوا فيها ولو تغيَّر لون بشرتهم

فقال اتركي لي التعليلات العلمية كما اترك لك التعليلات الفلسفية . مَن قال ان جمهور العلماءِ قالوا ذلك ومن اثبت ان الحق في جانبهم ولكن ما لنا ولهذه المباحث الآن هلمي نفتش عن مس لافي ونسألها عن هذه السيدة

وسارا في غرف السراي من غرفة الى اخرى الى ان التقيا باستير ابنة الخواجه لافي فسلما عليها وعلى امها ووقفا معهما هنيهة يتكلمان عن الرقص وملابس النساءِ وحلاهنَّ . ثم قالت دورا لاستير من هذه الفتاة الطويلة القامة السوداء الشعر التي كنتِ تتكلمين معها منذ نصف ساعة . ثم وصفت لها ثيابها وحلاها . فقالت استير نعم نعم هذه بهية بنت واصف بك رجل قبطي من اغنى اهالي هذا القطر عند ابيها خمسة آلاف فدان من اخصب الاراضي وقد اشترى خمسة آلاف اخرى من الدائرة السنية و يقول ابي انهُ

يقبل امضاءه على مئة الف جنيه وهي واخوها يعرفان الانكليزية ويتكلمانها مثل الانكليز فقد كان عندهم مربية انكليزية واخوها درس في انكلترا

فقال هنري نعم سمعتهُ يكلم اميراً هندياً بالانكليزية

فقالت استير نعم وهم جيراننا هلمَّ معي فأعرفكما بهما

وسارت استير وهنري ودورا الى ان التقوا ببهية واخيها وهنري لا يصدق عينيه فنظرت استير الى هنري وبهية وقالت الشريف المستر هنري بَرَون بن السر ادورد برَون صاحب جريدة لندن نيوز المداموازيل بهية واصف . ثم التفتت الى امين ودورا وقالت امين بك واصف مس برَون . فتصافح الاربعة وشعر هنري كأنهُ عاد الى الحلم الذي حلم بهِ منذ شهر من الزمان فامتقع وجههُ اولاً ثم احمر وخفق فؤادهُ وارتجفت مفاصلهُ واراد ان يتكلم فأرتج عليهِ وغضَّت بهية طرفها واطرقت لا تتكلم وكأنها خجلت مما بدا منها فتوردَّت وجنتاها حياء ولم يخفَ ذلك على دورا واستير اما دورا فكانت تعلم سببهُ واما استير فظنتهُ من قبيل الحياء العادي المتغلب على الفتيات الشرقيات

ودار الحديث على محاسن البالو وكثرة السيَّاح في مصر واشتداد البرد في اوربا وتغالي السيدات باللؤلؤ والزمرد وشيوع الزبرجد حديثاً بعد ما وُجد منهُ الشيء الكثير في جزائر البحر الاحمر ولم تكن دورا قد رأتهُ فارتها بهية اياهُ معلقاً بقلادة في عنقها فابدت استحسانها لهُ . وكان بين الحضور بعض النساء الانكليزيات الشريفات فاشارت دورا اليهنَّ وذكرت اسماءهنَّ والقابهنَّ وما يقال عن وفرة حلاهنَّ . ثم مرَّ واصف بك وزوجتهُ فاستوقفهما امين وقدمهما الى هنري واختهِ وكانا يتكلمان الفرنسوية فدعت مدام واصف بك دورا واخاها واستير واخاها لتناول الشاي عندها عصر اليوم التالي

واتى الخواجه لافي حينئذٍ فسلم على واصف بك واعاد تعريف هنري بهِ وجعل الثلاثة يتكلمون بالفرنسوية ومشوا معاً وجلسوا على مقعد في احدى غرف السراي وجرى بينهم الحديث التالي

قال الخواجه لافي لهنري ان واصف بك من اقدر الناس على ارشادك الى ما تريد الاستعلام عنهُ . ثم قال لواصف بك ان المستر برَون بن السر ادورد برون

صاحب جريدة لندن نيوز المشهورة اتى للسياحة ولغرضٍ هامٍّ جدًّا وهو البحث عن الوسائل التي يمكن العمل بها لتكثير زراعة القطن في القطر المصري فهل ترى يا واصف بك انهُ يمكن ان يتّسع زمام زراعتهِ في الوجه البحري وهل في الامكان زرعهُ في كل جهات الوجه القبلي ايضاً

واصف بك — ان توسيع نطاق الزراعة الصيفية يتوقف على وجود المياه الكافية صيفاً وعلى عمل الاعمال الهندسية اللازمة لذلك اما الآن فماء النيل الذي يرد مدة الصيف والذي يخزن في الخزان لا يكفي لاكثر مما يزرع في القطر المصري من القطن ولكن اذا أُعلِّي الخزان حتى يتضاعف ما يخزن فيهِ من الماءِ وعملت اعمال هندسية في اعالي النيل حتى لا يضيع كثير من مائهِ زاد الماء الوارد والمخزون وامكننا ان نزرع من القطن مضاعف ما نزرعهُ الآن اي امكننا ان نزرع ثلاثة ملايين فدان بدل مليون ونصف فيصير حاصل القطر المصري نحو اثني عشر او ثلاثة عشر مليون قنطار وهي تقوم مقام خمسة ملايين بالة من القطن الاميركي فتغني انكلترا عن اكثر ما تأخذهُ من القطن الاميركي هذا اذا لم يخطر لكم ان تنشئوا معامل الغزل والنسيج في القطر المصري نفسهِ . واذا ظهر بالامتحان انهُ يمكن زرع القطن الجيد في بلاد السودان فلا شبهة في انهُ يصير عندكم ما تستغنون بهِ عن القطن الاميركي كله

وكان هنري قد تذاكر طويلاً مع الخواجه لافي في هذا الموضوع وود ان يقف على شيءٍ من الحقائق والتفاصيل التي كان واصف بك يذكرها لهُ الآن ولكنهُ لم ينتبه اليها الانتباه الواجب وظهر عليه الملل بل كان يسمع ولا يفهم خلافاً لما عهد فيهِ الخواجه لافي من التدقيق في السؤال والاستيعاب في البحث فقال لهُ اظنك نعست الآن وربما انك سهرت البارحة . فادرك هنري حرج موقفهِ واعتذر عمَّا بدا منهُ من قلَّة الانتباه وقال لواصف بك لا بدَّ لي من ان اقابل حضرتك مرةً اخرى واكتب كل هذه الامور التي قلتها لي الآن . ولي مسائل اخرى ارجو ان لا تبخل عليَّ بالاجابة عنها حينئذٍ اما الآن فاظن انهُ حان لنا ان ننصرف ولا اعلم الى اي ساعة يبقى باب الفندق مفتوحاً

فقال له الخواجه لاڤي كن مطمئن البال فاني ارى هنا كثيرين من نزلكم ولم يعد منهم احد حتى الآن ومع ذلك فالنوم الباكر اصلح للصحة — هلمَّ نرى اين السيدات . وسار الثلاثة معاً الى ان التقوا بهن فقالت دورا لاخيها قد حان وقت النوم يا هنري ولا تنسَ انك سهرت البارحة الى ما بعد نصف الليل وربما تضطر ان تسهر غداً هلمَّ نذهب ثم التفتت الى الذين حولها وودعتهم وودعهم هنري ايضاً وسار وراءها وهو كاسف البال مبلبل الافكار فنزلا الى غرفة الاردية والتفا بردائيهما ونديا المركبة التي احضرتهما فركباها وعادا من حيث اتيا

الفصل الرابع

بداءة البلبال

عاد هنري ودورا الى فندق سافوى حيث اقاما منذ حضرا الى مصر ولم يتكلما في اثناء الطريق على غير عادتهما . اما هنري فكان يفكر في الفتاة التي رآها في سراي عابدين ويقول في نفسه هي عين الفتاة التي رأيتها في حلمي مهما تقوَّلت دورا في تعليل ذلك الحلم . وعندي الآن شاهد آخر على صحة قولي وهو ما شعرتُ به حين رؤيتها ويظهر لي انها شعرت كما شعرت لانها اطرقت حياء وصبغ الدم وجنتيها وقلت بعد ذلك اراها تنظر اليَّ كلما استرقت اللحظ ونظرت اليها فتغضي خجلاً

ولما وصلا الى غرفتيهما اعتنقا وافترقا ودخل كلٌّ غرفته ورأى هنري ان النوم طار من عينيه فجلس امام مكتبه واخذ قلماً وقرطاساً وجمع افكاره وكتب لابيه كتاباً طويلاً عن وصف البالو ومن اتى فيه وما يظهر على الذين رآهم من دلائل الغنى الوافر والنعمة السابغة . وخطر على باله حينئذٍ كل ما قاله له واصف بك عن زراعة القطن والري السيفي فكتبهُ حرفاً حرفاً كأن ذاكرته وعته كله على غير علم منهُ . ولما قرأ ما كتبهُ تذكر انهُ سمعهُ ولام نفسهُ لانهُ ابدى عدم الانتباه والاكتراث وقال في نفسه تُرى ما سبب ذلك واذا لم اعدم عقلي . ثم خطر على باله بهية واعتدال قوامها وحور عينيها ومشابهتها التامة للطيف الذي رآه في منامه فارتجفت مفاصله وبرد الدم في عروقه

فالقى القلم من يدهِ وقام يمشي في غرفتهِ ذهاباً واياباً وافكارهُ تائهة لا تستقرُّ على شيء ثم جعل يراجع الكلام الذي سمعهُ منها وعنها وحانت منهُ التفاتة الى صورة امهِ وكانت موضوعة امامهُ فوق مكتبهِ فتذكر حبها وحنوها ووصاياها فسحَّت الدموع من عينيهِ وخلع ثيابهُ وانطرح في سريرهِ واسلم جفنيهِ للكرى

ولم تكن الاَّ دقائق قليلة حتى تغلَّب تعب الجسم والعقل على تهيُّج الاعصاب فخدر الدماغ وارتخت الاعضاء ونام هنري نوماً عميقاً انقطع فيه شعورهُ الى ان كاد يبزغ الفجر فانتبهت حواسهُ بعض الانتباه والتفتت الى مدركات الليلة الفائتة فمزجتها بمدركات اخرى مما اختبرهُ او قرأهُ او سمع عنهُ والَّفت من ذلك حلماً طويلاً عريضاً رأى فيهِ نفسهُ في قفر بلقع وبهية حاملة على ظهرها حملاً ثقيلاً وقد كاد يقضي عليها وهي تستغيث وتستجير ولا مغيث ولا مجير فهرع اليها عن بُعدٍ وناداها لكي يشدِّد عزائمها فخففَّت خطاها واسرعت اليهِ وهي متوشحة بثياب الحداد ولم يكد يصل اليها حتى استيقظ من نومهِ واذا هو قد تضحَّى

اما دورا فانها دخلت غرفتها مبلبلة الافكار لا تعلم هل ما ابداهُ اخوها ناتج عن تأثر عميق في نفسهِ او هو غمامة صيف عن قريب تقشَّعُ . وهالها مناداتهُ لها وقولهُ وجدتُها وجدتُها كأنهُ ارخميدس حين خرج من الحمام ومشى في الاسواق عارياً . ولكنها قالت نحن بائتون على سفر والبعاد خير مرهم لكلوم النفس ثم استدركت بقولها ان صورتها راسخة في ذهنهِ وهو شديد التأثر فما ادراني انهُ لا يحلم بها الليلة بعد الليلة فتزيد رسوخاً لا سيما بعد ان رآها عياناً . ثم لماذا اعارضهُ في حب هذه الفتاة وقد صنع الله من دم واحد كل امَّة من الناس يسكنون على وجه الارض ولماذا لا تستحق ابنة الفراعنة ان تكون زوجة لاسكوتلندي كان اسلافهُ يقطنون الغابات ويرتدون جلود الحيوانات حينما كان اسلافها يسكنون القصور ويقودون الجحافل . ولماذا هذه النعرة التي اخذتنا نحن الاوربيين بنوع عام والانكليز بنوع خاص أنحن افضل من غيرنا جبلة هوذا النساء والرجال الذين شاهدتهم الليلة في عابدين من كل امة وشعب ولسان قد سمت بهم الحضارة حتى لا تجد بينهم فارقاً الا فارق التربية والذين اشتركوا

فيها لم يبقَ بينهم فارق يُذكر . ولماذا يتزوج اشرافنا ووزراؤنا في بلادنا بالاسرائيليات وهنَّ من اصرح الشرقيات نسباً ولا نرى وجهاً للمعارضة و بنات فرعون كنَّ ملكات لما كانت بنات اسرائيل مستعبدات . ثم تجلَّت لها صورةُ بهية بقامتها الهيفاء وعينيها النجلاوين فقالت انها تشبهُ وما اكثر هذه المشابهة بين الازواج . واستمرَّت هذه الافكار تنتابها الى ان ران الكرى على جفنيها واستولى عليها سلطان الوسن

ونهضت في الصباح حين نهض اخوها فاستحمَّا ولبسا وجلسا يقرآن بريد المساء وكان فيهِ كتاب مختصر من امهما وكتاب مطوَّل من ابيهما وهو يستحثهما فيهِ ليتمما شغلهما في مصر باسرع ما يمكن ويذهبا الى بلاد اليابان رأساً ولا يقيما في الهند ولا في غيرها ومما كتب اليهما بهِ قولهُ

« لا بدَّ من البحث والاستقصاءِ عما يمكن فعلهُ لاحياءِ الارض الموات في الوجه البحري والواحات البحرية فقد بلغنا ان فيهما اكثر من مليون فدان يمكن احياؤها وزرعها قطناً وكذلك اراضي الصعيد يمكن زرع القطن فيها كلها اذا دُبّر ريها حتى تصير تروى صيفاً كما تروى شتاءً وفي السودان اراضٍ واسعة يمكن استخدامها لزرع القطن واذا كانت الحكومة المصرية غير قادرة ان تنفق على الاعمال الهندسية اللازمة لذلك ولا استطعنا ان نخوّلها استعمال الاموال المتراكمة في خزائنها فعندنا شركات مستعدة لدفع النفقات اللازمة ولاصلاح الاطيان ايضاً . فابحثا في هـذا الامر مع العارفين بهِ واجمعا كل المعلومات التي تستطيعان جمعها باسرع ما يمكن وابعثا بها الينا حالاً ثم بادرا الى بلاد اليابان وانزلا في طوكيو في النزل الملكي وسأكتب اليكما الى هناك بما يُطلَب منكما . اعضاءُ النادي ولا سيما السر هنري غراي والسر كمبل كار وزوجتاهما يقرئونكما السلام وقد كتب لورد بنشيلد الى المستر لاثي مع هذا البريد يكرر عليهِ التوصية بكما ويطلب منهُ ان يبذل جهدهُ في ابلاغكما ما تطلبان »

ومضى النهار في مشاهدة الجوامع ونحوها من المباني القديمة الى ان كان العصر فاتت استير وامها واخوها وساروا بهنري ودورا الى بيت واصف بك فالتقتهم بهية وامها ورحَّبتا بهم . وبيت واصف بك في شارع الظاهر من البيوت القديمة تحيط بهِ

حديقة كبيرة ولا يدلُّ ظاهرهُ على ما فيهِ من دلائل الرفاهة والغنى وقد ظنهُ هنري من البيوت الشرقية الساذجة فلما دخل ردهتهُ رأى فيها من الاثاث والرياش ما لا يرى الاَّ في قصور الملوك فان ارض الدار كانت مفروشة ببساط واحد من الغوبلين الغالي الثمن وفوقهُ ثريًّا كبيرة جدًّا يبلغ محيطها ستة امتار او سبعة فيها مصابيح للغاز وللكهربائية وعلى الابواب ستائر من الحرير المعرَّق وكل ذلك بل كل اثاث البيت من سراي الجيزة وسراي الجزيرة وبعضهُ كان لم يزل في صناديقهِ لما أُعرض في المزاد . واستقبلت مدام واصف بك ضيوفها في غرفة جنوبية غربية تدخل شمس الشتاءِ فتغنيها من ايقاد النار وحضر ابنها امين حينئذٍ ومعهُ حليم بك وجلسوا كلهم يتجاذبون اطراف الحديث بالفرنسوية تارةً والانكليزية اخرى واقبل الخدَم بصحاف الكعك والمربيات والمسكَّرات وجعلت مدام واصف بك تصب الشاي في فناجين من الصيني القديم والخدم يقدمونها الى الحضور وتبادل الجميع مجالسهم مراراً الى ان جلس هنري الى جانب بهية في زاوية من زوايا الغرفة وكان النور المستطير واقعاً على وجهها ومنعكساً عن شعرها فبانت كايسس متجلية في مجدها وبهائها حتى كاد يشغلهُ النظر اليها عن الكلام معها . وحاولت هي افتتاح الحديث معهُ لان آداب المعاشرة تقتضي ذلك فقالت لهُ أهذه اول مرت زرت فيها هذه الديار فقال نعم ولكنني لا ارى نفسي غريباً ولا كل ما فيها غير مألوف لديَّ وكأني زرتها من قبل مراراً لكثرة ما قرأتهُ عنها ورأيتهُ من صورها او لسبب آخر تستغربينهُ اذا ذكرتهُ لكِ

فقالت وما هو

فقال ان اناساً من الاوربيين والامركيين اخذوا يشيعون عندنا معتقد القدماءِ بالتقمُّص وهو المعتقد الذي لا يزال شائعاً في الهند والصين ويسلم بهِ نحو ثلث بني البشر . ويقول بعضهم انهم يتذكرون ازمنة غابرة حينما كانوا عائشين في هذا القطر او غيرهِ من الاقطار وقد رأيت سيدة تدَّعي انها كانت في عصر من العصور الغابرة كاهنة من كهنة ايسس في هذا القطر وهي الآن في باريس تلبس لبس الكاهنات المصريات وقد اعدَّت في بيتها غرفاً في شكل الهياكل المصرية ووضعت فيها من

التماثيل والآنية ما كان يوضع في الهيا كل المصرية القديمة ويلبس زوجها لبس كاهن مصري ويجتمع حولهما اناس من المعتقدين اعتقادهما قصد ارجاع عبادة ايسس . وعندهما وعند المعتقدين التقمُّص من اهلي اوربا واميركا ان نفس الميت تحلُّ في جنين آخر حالما يتصوَّر والاَّ فمن اين تأتي النفوس الى الاجنَّة . وفاتهم انهُ لو كان الامر كذلك لوجب ان تكون نفوس البشر الف وخمس مئة مليون نفس من اول عهد الانسان كما هو عدد الناس الآن وان يبقى عددها كذلك ما دام الانسان على هذه البسيطة . ومهما يكن في عقيدة التقمص من الغرابة والسخافة فاني لا انكر عليكِ شعوري باني رأيت قبلاً كثيراً من المناظر التي اراها الآن ولا سيما انتِ فانهُ حالما وقع نظري عليكِ في سراي عابدين شعرت كأني رأيتكِ من قبل وقلبي يدلني على انكِ تشعرين بشيء من ذلك ان لم اكن مخطئاً او مغترًّا بنفسي

فصبغ الحياء جبينها ووجنتيها واطرقت هنيهة كأنها تحارب نفسها وتحاول التغلُّب على حيائها الفطري ثم نظرت اليهِ وتبسمت وقالت ظنُّك في محله . وعادت فاطرقت ثانية كأنها ندمت على ما قالت ولكن العواطف لا تخضع لسلطان الارادة

فقال لها أتسمحين لي ان اسألك سؤَالاً لا نخشى ان نسأَلهُ في بلادنا وكان يمكنني ان اسألهُ لغيركِ واعرف جوابهُ منهُ . ثم صمت منتظراً الجواب . فقالت نعم سل ما بدا لك

فقال أمخطوبة انتِ

فنظرت اليهِ هنيهة وكأنها تقول في نفسها على مَ هذا السؤال ولماذا توقفني في هذا الموقف الحرج . ثم جاوبتهُ جواباً صريحاً بقولها لا والتفتت تريد الافلات منهُ

فقال عفوكِ يا مولاتي ان كان سؤَالي هذا قد غاظكِ فارجو المغفرة

فقالت كلاَّ ولكننا لم نعتَد ان نسأل مثل هذا السؤال ولقد اصبت في قولك انك كنت تستطيع ان تعرف جوابهُ من غيري على اسهل سبيل ولذلك لم ار مانعاً من اجابتك عنهُ . وعاد الحياء الى وجهها فتورَّد

فقال وهنا سؤال آخر اصعب من الاوَّل هل تسمحين لي ان اكاتبكِ في سفري

فقالت «كلاَّ» من غير تردُّد ثم قالت انا اعلم انكم لا تستهجنون هذه العادة ولكننا نحن بنات المشرق نستهجنها جدًّا

فوقف حائراً لا يدري ماذا يقول وادركت هي حيرتهُ وارادت ان تجد لهُ مناصاً منها فقالت لهُ على مَ لا تكاتب ابي او اخي فاعلم اخبارك منهما . ثم انهُ يسرني ان اكاتب السيدة دورا اذا شاءت فامرّن انكليزيتي . قالت ذلك متبسمةً

فامسك بيدها وقال انا ذاهب الآن في شغل شاغل ولكنني لا انسى هذه الساعة وسأبذل جهدي حتى اصير اهلاً لمكاتبتك وستبقى صورتك نصب عينيَّ ما دمتُ في هذا السفر الى ان اعود ثانية في الخريف التالي وعسى ان تنظري اليَّ حينئذٍ كما انظر اليكِ الآن

فلم تجبهُ بل نظرت من الكوة الى الشمس وقد كادت تتوارى في الحجاب ممثلة آمال النفس تختفي في ليل بهيم ثم تشرق بالضياء والبهاءِ فراعتها الظلمة المدلهمَّة بين ذاك البهاءِ وهذا الاختفاءِ

الفصل الخامس

شؤون مختلفة

لما كان هنري و بهية واقفين ينظران الى الشمس وقد آذنت بالمغيب ونفساهما طائرتان على جناح الآمال في فضاءِ هذا الكون وقف امين مع دورا يسألها عما شاهدتهُ هي واخوها في مصر من الآثار و يقابل معها بين صفاءِ مصر وضباب لندن ولا سيما في هذا الفصل وهي ترى من ادبهِ وظرفهِ وواسع اطّلاعهِ فوق ما كانت تنتظرهُ من المشارقة ولا سيما لما سمعتهُ يستشهد لها باقوال كتَّاب الانكليز وشعرائهم . فدُهشت من ذلك وقالت في نفسها ان كانت اختهُ مثلهُ فهي خير قرينة لاخي . وخطر لها حينئذٍ ما قرأتهُ عن الشعوب القديمة وهو ان اصول التهذيب راسخة في نفوسهم تظهر باقل صقال كالجوهر المكنون في النصل لان عمران اربعة آلاف عام لا يزول اثرهُ اذا خبت نارهُ الف سنة . ولقد كان قائماً في ذهنها ان المشارقة كلهم سمر الالوان الى السواد فرأت

اميناً ابيض الوجه اشقر الشعر وكذلك كانت امهُ وهي سورية الاصل وكذلك اختهُ بيضاء الوجه او فيها سمرة قليلة يخفيها تورد وجنتيها . ورأى هو فيها ما عهدهُ في الفتيات الاسكتلنديات من رقة ورشاقة على ادبٍ ورزانة

ووقف حليم مع استير وكان حديثهما عن البالو ايضاً ومن شاهدا فيهِ فسألتهُ هل كانت امهُ واختهُ مع نساء السراي وراء الستار فقال كلاَّ فان حليمة تقول إِما ظهور تامٌ بين الناس واما الاستكنان في عقر البيت وقد طالما حاولت اقناعها لتفعل كما يفعل نساء الاستانة فتخرج في المركبة لابسة يشمكاً فتشاهد جمال الطبيعة ومن فيها وهي لا تزيد الاَّ تمسكاً برأيها لا لانها تكره ان ترى الناس بل لانها تكره ان تحسب معتدية على عادات قومها او على ما يحسبونهُ من السنن . فاما ان يزال الحجاب تماماً بنوع عام صريح تشترك فيهِ الفلاّحة بائعة اللبن والاميرة المتنعمة في قصرها واما ان يبقى مرعياً تمام الارعاء. ولذلك تقضي اكثر وقتها في الحديقة الكبيرة حول دارنا واذا خرجت الى النزهة ففي مركبة مقفلة وخروجها نادر الاَّ في فصل الصيف حين نذهب الى اباعدنا او نسافر الى الاستانة . ولا اخفي عليك ان جمهوراً كبيراً من شباننا المتعلمين المتهذبين يذهبون مذهب شيوخنا ويقولون بوجوب الحجاب وانهم لا يسمحون لنسائهم بازالتهِ مطلقاً ونحن القائلين بازالتهِ عددنا قليل وصوتنا غير مسموع لان ائمة الدين ضدنا ولكن بلغنا الآن ان لنا حزباً كبيراً في الهند فان قوي على مقاومة ائمة الدين هناك تحقق الفوز لنا قريباً والاّ فزمنهُ بعيد

فقالت ولكن الشيخ احمد لا يكره ازالة الحجاب وخروج النساء مكشوفات الوجوه مثلنا ومثل نساء الافرنج فعلى م لا تستعينون بهِ . فقال هو واحد وصوتهُ ضائع بين اصوات المئات والالوف ولذلك ترينهم يكفّرونهُ كلما قال قولاً خالف فيهِ المألوف

فقالت ولكنني رأيتهُ البارحة في البالو والناس ملتفون حولهُ وهم من جلّة القوم . فقال هؤلاء ليسوا من العلماء بل من الناشئة الجديدة واكثرهم متعلّم في اوربا واما العلماء فلا يلبسون الطرابيش ويعدُّون لبس الطربوش بدعة وكان واحد منهم وهو من اعلمهم وافضلهم يقول ان كل لابس طربوش مارق من الدين

فقالت وعلى مَ لا تفعلون مثلنا فان ائمة الدين عندنا على غاية الفقر فهم في حاجة دائمة الى اغنيائنا فيسترضونهم ولا يعارضونهم في شيء ولذلك ترانا بين الشرقيين كالشرقيين وبين الغربيين كالغربيين نلبس لكل حالة لبوسها . وان لم يسر الانسان مثل الممتازين الذين يعاشرهم ويساكنهم بقي منظوراً اليهِ بعين الازدراء

وكان حليم قد حادث استير غير مرة ولكنهُ لم يرَ من ادبها ما رآهُ الآن فجعل يقابلها باختهِ ولا يرى اختهُ تمتاز عليها في شيء . ومما زادهُ اعجاباً بها فصاحة نطقها بالعربية والفرنسوية فقال لها اراكِ تحسنين العربية على غير ما اعهدهُ في المتفرنجين من المصريين عموماً والاسرائيليين بنوع خاص ولا سيما من السيدات . فضحكت وقالت ان الشيخ احمد كان استاذي واستاذ اخي وقد قرأنا عليهِ النحو والبيان ايضاً . فنظر اليها مدهوشاً وقال ان كان الامر كذلك فصار عليَّ ان احاسب كيف اتكلم معكِ . وقدَّم لها كرسياً وجلس اليها يحادثها في شؤون مختلفة وكان يعلم ان اميناً يعجب بها ولكنهُ لم يكن يحسب انها على هذا القدر من الذكاء وسعة الاطلاع فقال في نفسهِ هذه الفتاة خير من كل فتاة رأيتها ولا اظن ان ابي وامي يعارضانني في التزوج بها ولي اسوة بفلان وفلان من امراء بلادنا المتزوجين بيهوديات . والتفت امين فرآهُ جالساً مع استير مصغياً بكليتهِ اليها فود ان يعرف ما هو دائر بينهما من الحديث ولحظت دورا ذلك منهُ فمشت معهُ الى ان وصل الى استير وحليم فنهضت استير اليهما ونهض حليم وبعد حديث قصير افترقوا على غير ما كانوا. مشت دورا واستير الى حيث مدام واصف بك وام استير ومشى امين وحليم وحدهما ودار بينهما الحديث التالي

حليم — ما هذا الذكاء وما هذه النباهة . كنت اسمع عن ذكاء الاسرائيليات ولا اصدّق فهل هذه الفتاة نادرة بين بنات جنسها او كلهنَّ كذلك

امين — لا اظنها نادرة لان امها ذكية مثلها ولكنها تمتاز على غيرها باتقانها للغة العربية فانها تكتبها كما تكتب الفرنسوية وكان الشيخ احمد استاذاً لها فيها

حليم — كذا قالت لي فهي مثل حليمة من هذا القبيل وتفوقها في معرفة الفرنسوية ولكن حليمة تعرف التركية — ما علينا هل انت على ما اخبرتني بهِ عنها

امين — ماذا تعني

حليم — ماذا اعني — اعني انك تودُّ الاقتران بها

امين — اني اكرمها لذكائها وواسع اطلاعها ولكنني لا استطيع الاقتران بها لانها لا بدَّ وان تقترن باحد ابناءِ عمها لكي لا تذهب ثروتها الى اجنبي

حليم — ان كنت قد صرفت النظر عنها فانا اقوم مقامك لانها اعجبتني جدًّا

امين — بارك الله لك فيها

حليم — هات يدك　وتصافحا وسارا الى حيث السيدات وكان هنري وبهية قد سبقاهما الى هناك والتفتت دورا الى اخيها وقالت لهُ هلمَّ بنا فقد طالت زيارتنا ثم التفتت الى مدام واصف بك وقالت لقد قضينا ساعتين كانهما دقيقتان بما رأيناهُ من أنسكم

فقالت مدام واصف لقد صار لنا غاية الشرف بتشريفكم وتشريف حليم بك ومدام لاڤي ومدامواز يل لاڤي وقد استاء واصف بك كثيراً لانهُ لم يستطع الحضور لمشاهدتكم فان عندهُ مجلساً طائفيًّا في البطركخانة لا بدَّ من حضورهِ فيهِ ولكنهُ سيتشرف الليلة ويراكما في الهوتل الا اذا تنازلتما وشرفتمانا للعشاء. صحيح يا مستر برون وانت يامدامواز يل وانت ياحليم بك تفضلوا شرفونا للعشاء. مدام لاڤي ومدامواز يل لاڤي امين يذهب ويقول للمسيو لاڤي انكما عندنا ويأتي به تفضلوا كلكم وابقوا عندنا للعشاءِ عشاءً عائلي لا نقوم فيهِ بالواجب ولكن الغرض اكتساب موءانستكم

فشكر الجميع معروفها وودعوها وانصرفوا فخرجت معهم هي وابنها وابنتها الى باب المنزل وقطفوا لهم بعض الازهار واعطوهم اياها واعطت بهية للمستر هنري زهرةً من القرنفل الناصع البياض الزكي الرائحة فاخذها حاسباً انهُ نال بها بعض السعادة التي يتمناها

وعادت مدام واصف بك وولداها ولكلٍّ منهم شغل شاغل — مدام واصف مشغولة البال بما اخبرتها بهِ مدام لاڤي وهو ان ابنها آخذ في شغل البورصة خفية عن ابيهِ وهو ربحان الآن ولكن يحتمل ان يخسر في يوم واحد اضعاف ما ربحهُ ويثلم صيتهُ وصيت ابيهِ

وبهية مشغولة البال بما سمعتهُ ورأتهُ من المستر هنري بَرون فسارت الى غرفتها وهي تحسب نفسها في حلم لا في يقظة وكيفما التفتت تشعر كأنها ترى وجه ذلك الشاب وتسمع صوتهُ فيزيد قلبها خفقاناً وفكرها اضطراباً . وامين مشغول بما قالهُ لهُ حليم بك ويقول في نفسهِ قد يحتمل ان يكون مجدًّا في قولهِ ولو كان كثير المزاح . فان كان مجدًّا واخذ استير من امامي فماذا افعل ولكن أليس هذه الفتاة الانكليزية افضل منها وهل يمكن ان احبها وتحبني ولعلَّ استير تحبهُ ولا تحبني واليهوديات يتزوجن بالمسلمين كما يتزوجنَّ بالمسيحيين وهو اوسع مني ثروة واعلى مقاماً ابوهُ من باشاوات مصر العظام نعم ان امهُ شركسية او تركية ولعلها كانت من سراري القصر العالي ولكن المقام للاب . لعلَّهُ كان يمزح ولكن قلبي يدلني على انهُ كان يتكلم بالجد وقد حادث استير مرةً واحدة فشغف بها فكيف لو حادثها مراراً وعاشرها كما عاشرتها انا لا شك انهُ يُغرَم بها وقد اسقطت حقي لهُ صريحاً فلا يليق بي ان ارجع في قولي ولكن اي حق لي عشْرة فالفة فصداقة لو كنت احبها حقيقة لما مال قلبي الى غيرها

وظلت هذه الافكار تتنابهُ ساعتين من الزمان وهو مثل سفينة تتقاذفها الامواج الى ان دق جرس العشاء وجاء الخادم يدعوهُ للطعام فغسل وجههُ وخرج الى غرفة المائدة

وعاد حليم من بيت واصف بك وهو يفكر في ما رآهُ وسمعهُ من استير ويقول في نفسهِ انها جوهرة ثمينة ولا بدَّ من ان اسأل الشيخ احمد عنها فانهُ ادرى باخلاق تلامذتهِ من كل احد فسار قاصداً زيارتهُ فوجدهُ في بيتهِ وحدهُ على خلاف العادة فقبل يدهُ وجلس اليهِ وافتتح الحديث بما سمعهُ منهُ في البالو عن الرقص وشرب الخمر . فقال الشيخ رأيتك ترقص مع الراقصين . فقال كنت افعل ذلك وانا تلميذ في اوربا ولا ازال ارقص احياناً فهل يرى الاستاذ في ذلك بأساً . فقال هي عادة لا استحسنها ولكني لا احرمها ولا سيما في المجتمعات الادبيَّة حيث يكون الراقصون والراقصات من الاقارب او العشراءِ فقد رأيت البدو يرقصون رجالاً ونساء في حلقة واحدة كأنهم اخوة واخوات لواءُ العفة والشهامة منشور فوق رؤوسهم لا شيء يكدر صفاءهم اما اذا فسدت الاخلاق فالفصل بين الجنسين ادرأ للمفاسد

فقال حليم اصبت يا استاذ لكن اجتماعنا امس كان على غاية الحشمة والوقار وقد تعرفت فيهِ باحدى تلميذاتك

الاستاذ — مَن السيدة استير

حليم — نعم السيدة استير وهي تعرف العربية احسن مني

الاستاذ — اظنها كذلك لانها اذكى البنات اللواتي رأيتهنَّ قرأت عليَّ مبادىء النحو والبيان ولها انشاء حسن وقد حاولت بعض المرَّات نظم الشعر فنظمت ابياتاً حساناً . ولكن قل لي ما يهمك من امرها قل لي ولا تخفِ عني

لا شيء يا استاذ ولكنني تحدثت معها فاعجبني حديثها بالعربية والفرنسوية وعلمت منها انها قرأت العربية عليك فسألتك عنها

فقال الاستاذ ألهذا الغرض زرتني الآن . فاحمرَّ وجه حليم ولم يقل شيئاً . فقال الاستاذ هي كتابيَّة والتزوج بالكتابيات حلال فلا تتركها لانها درة يتيمة

الفصل السادس

الشركات الاجنبية ومبيع الاطيان

اقبل واصف بك والخواجه لاقي على نزل سافوى بُعيد الساعة التاسعة لزيارة المستر هنري برون فقابلهما في غرفة الاستقبال الكبرى واعتذر اليهِ واصف بك عن غيابهِ من بيتهِ لما شرَّفهُ ثم جلسوا يتجاذبون اطراف الحديث الى ان انتهوا الى الاطيان البور وسبل استحيائها فقال واصف بك بلغني من الخواجه لاقي انك آتٍ من قبل شركة كبيرة لمشترى جانب كبير من الاطيان البور بقصد اصلاحها وزرعها قطناً وتوسيع زراعة القطن في القطر المصري بكل واسطة ممكنة

فقال هنري الامر كما قال المسيو لاقي واريد ان انجز عملي باسرع ما يمكن لاني مضطر الى السفر سريعاً الى الشرق الاقصى

واصف بك — تراني في خدمتك فما هو الشيء الذي تطلبهُ مني

هنري — ما رأيك في مشترى مئة الف فدان من الاراضي البور من الحكومة

فنحفر الترع والمصارف اللازمة لها ونبني فيها العزب ونقطعها الى قطع صغيرة من عشرة افدنة الى مئة ونبيعها للفلاحين ونقسط ثمنها عليهم مشترطين ان يقصبوها ويحلوها ويزرعوا ثلثها على الاقل قطناً

فدُهش واصف بك من استعمال المستر هنري للمصطلحات المصرية الزراعية كالترع والمصارف والتقصيب والتحلية وقال له ُ اراك خبيراً بالامور الزراعية المصرية مثل واحد منا فكيف تمَّ لك ذلك ولم يمضِ عليك في مصر الاّ بضعة ايام

هنري — لقد درست هذا الموضوع في كتاب السر وليم ولككس كل مدة سفري في البحر ثم قابلت هنا احد كبار المهندسين فارتأى لي الرأي الذي بسطتهُ لك

واصف بك — لقد جرت الحكومة في مبيع اطيانها — والاولى ان اقول اطيان المصريين لان الاطيان لاهالي البلاد لا للحكومة — قد جرت على اساليب مختلفة ففي اول الامر كانت تعطيهم اياها من غير ثمن او تجبرهم على اخذها مجاناً وهم يمتنعون مخافة ان تضرب عليها الضرائب من غير ان تجري عليها الماء اللازم لاروائها واطياننا لا تنتج شيئاً من غير ري لانها ليست مثل اراضيكم التي تروى بماءِ المطر . ثم لما اصلحت الحكومة الري وصار في امكانها ارواء الاطيان البور امتنعت عن اعطاءِ الاطيان مجاناً وعن بيعها بالثمن ايضاً نعم انها تبيع في بعض الاحيان قطعاً صغيرة ولكنها تطرحها في المزاد العمومي فيأتي اناس من اخواننا (والتفت الى الخواجه لاقي) لا يقصدون مشترى الارض واحياءها بل تغلية ثمنها او يرضيهم المشتري بالمال . فيرفعون ثمن الفدان الذي يساوي جنيهين الى عشرين جنيهاً فيضطر الفلاح ان يدفع ثمناً فاحشاً ولا يعود قادراً ان يشتري الاَّ افدنة قليلة ولا يعود قادراً ان ينفق على اصلاحها واذا لم يشترها هو اشتراها الخواجه ابراهيم او الخواجه اسحق وباعهُ اياها الفدان بثلاثين جنيهاً او اربعين وقسَّط ثمنها عليهِ بالربا الفاحش . وانكى من ذلك ان الفلاحين انفسهم لا يعرفون مصلحتهم فيتناظرون ويغلون في الثمن حتى يشتروا الفدان بضاعف ثمنهِ . كذا كانوا يفعلون باطيان الدومين حتى ان ما ثمنهُ الاساسي اربعون جنيهاً اشتروهُ بمئة جنيه وهذا الاسلوب على ضررهِ الواضح اخف ضرراً في نظري ممَّا لو اخذت الاطيان

شركات اجنبية لان الاموال التي تأخذها الحكومة ومصلحة الدومين واخواننا الاسرائيليون تبقى في البلاد فتزيد بها ثروتها وتستفيد منها واما الاموال التي تربحها الشركات الأجنبية فتخرج من البلاد ولن تعود اليها

وكان هنري منصفاً ويحب الانصاف فقال لواصف بك اصبت ولكن بماذا تشير ان كنت لا تستصوب بيع الحكومة لاطيانها بالمزاد العمومي ولا بيعها للشركات الاجنبية

فتبسم واصف بك وقال رأيي في ذلك ان الحكومة تفعل فعل الشركات الاجنبية فتحفر الترع والمصارف في الاطيان البور كما حفرت في غيرها وتجزئها اجزاء صغيرة وكبيرة من عشرة فدادين الى مئة ومئتين او اكثر وتفرض لها ثمناً رخيصاً تبيعها بهِ مشترطة على المشتري اصلاح مقدار معلوم منها كل سنة وتضرب عليه ضريبة خفيفة وتفرض زيادتها رويداً رويداً حتى تبلغ مئة غرش مثلاً في عشر سنوات فيضطر المشتري ان يصلح هذه الاطيان لكي يستطيع ايفاء الضريبة من ريعها او يضطر ان يردها الى الحكومة . فتصلح الاطيان البور وتستفيد الحكومة والاهالي وتبقى الفائدة لها ولهم من غير شريك

فاعترض الخواجه لاقي على هذا الرأي وقال لا يصلح بالحكومة ان تكون تاجرة او مزارعة وتناظر رعاياها في ما يستطيعون عمله وحدهم ورأيي ان تؤلف شركة وطنية تبتاع الاطيان من الحكومة وتباشر اصلاحها و بيعها للفلاحين واصلاحها على الشركات الكبيرة اسهل وارخص من اصلاحها على الفلاحين انفسهم

فقال واصف بك اذا لم ترد الحكومة ان تفعل بالرأي الذي اشرتُ بهِ فرأي الخواجه لاقي يتلوهُ في الفائدة ولكن الوطنيين لم يعتادوا تأليف الشركات واكثر الشركات الوطنية انما هي وطنية بالاسم ثم انهُ ينقصنا المال لان الاموال التي بين ايديهم يجب ان يكون ريعها لهم اكثر من ستة في المئة سنوياً والاَّ أوفوا بها ما عليهم من الديون المتراكمة للبنوك الكثيرة فان لم تأتنا اموال رباها اربعة في المئة او اقل فلا امل بنجاح المسعى

فامعن هنري في طلبهِ ثم قال يظهر لي اننا نستطيع ذلك ولا سيما اذا اشركتمونا

في قليل من الربح اي اذا الفتم شركة وطنية تبتاع الاطيان الواسعة من الحكومة وتصلحها وتحرثها وتبيعها للاهالي فنحن نمدكم بالمال على شرط ان تضمنوا لنا ربأ اربعة في المئة مع قليل من الربح الذي تربحهُ شركتكم وعلى كل حال لا استطيع ان اقول لك القول النهائي في هذه المسألة ولكنني سأكتب الى والدي وارجح ورود الجواب منهُ بالقبول مبدئيًّا ثم تتفقون على المال المطلوب و بقية التفاصيل وسأخبر والدي لكي يكاتب حضرتك مباشرة لانني عازم على السفر بعد ثلاثة ايام او اربعة

ثم تحدثوا في شؤون أخرى واطنب واصف بك في مدح ما فعلهُ الانكليز من الاصلاح في البلاد وجعل يقابل الايام الحاضرة بالايام الغابرة ايام السخرة والمغارم والكرباج الى ان قال لكن الانسان يطلب المزيد لانهُ مفطور على طلب الكمال فقد اصلحتم كثيراً و بقي اكثر مما اصلحتم لا سيما في ما يُعلي شأن الامة و يدنيها من الاستقلال

فقال هنري ارجو ان تفصل لي هذا الاجمال

فقال واصف بك حبًّا وكرامة أرى انكم جريتم عندنا على سياسة لا تخلو من الاضرار بنا ولو لم تقصدوا ذلك وهي انكم تطبخون لنا لكي نأكل ولا تدعونا نحرق اصابعنا وقد مثَّل لي ابني على ذلك مثلاً اراهُ منطبقاً على الحالة الحاضرة تمام الانطباق وهو ان استاذ الكيمياءِ عندنا يحضّر المواد الكيماوية ويعمل بها التجارب من حلّ وتركيب فيراها التلامذة و يسرون بها وقد يدركون الغاية منها ولكنهم لا يتعلمون ولا يتمرنون واما الاساتذة في بلادكم فيعطون كل تلميذ المواد اللازمة للتجارب الكيماوية ويتركونهُ وشأنهُ فيأخذ يمتحن ويجرب الى ان يصل الى المراد فيتعلم بالعمل ما لا يتعلمهُ ذلك بالنظر فلو وازرتمونا بشيءٍ من النصح والارشاد وتركتمونا نعمل الاعمال وحدنا لبلغنا شأو اليابانيين في هذه العشرين سنة ولم نبقَ على ما نحن عليهِ . ولا انكر اننا نكثر من الخطاءِ والغلط في اول الامر ولكن الانسان يتعلم من الخطاء اكثر مما يتعلم من الاصابة

فنظر اليهِ هنري بعين الوقار وقال هذا هو عين الصواب يا واصف بك واذا كانت هذه امنية الامة كلها فعلى مَ لا تجاهرون بها . ويقيني ان مصلح بلادكم يكون اول

مساعد لكم على نيلها وأؤكد لك ان لمصر اصدقاء كثيرين في البلاد الانكليزية وسوف تطلق ايدينا في اصلاحها على ما نشتهي ونريد فاذا ساعدنا اهلها صارت على ما يتمنون . هذا واعيد القول من جهة مشترى الاطيان واحيائها اني سأكتب الى ابي بخلاصة حديثنا ولا بدَّ من ان نصل الى نتيجة ترضيكم

ثم نهض واصف بك والخواجه لاڤي وودعا وانصرفا . وجلس هنري فكتب لابيهِ كتاباً طويلاً اسهب فيهِ الشرح عما شاهدهُ في بيت واصف بك وعن زيارة واصف بك والخواجه لاڤي لهُ وحديثهما معهُ والرأي الذي اقرَّا عليهِ . ومما قالهُ في كتابهِ اؤكد لك يا ابي ان المصريين الذين لقيتهم من كل الطوائف الساكنة مصر من قبط ويهود وعرب وسوريين واترك على غاية الذكاء ورقة الجانب . والظلم الذي طال عهدهُ في بلادهم يكاد اثرهُ يزول وينسى من بين الطبقة المتعلمة منهم فقد كنا انا ودورا امس في بيت واصف بك كأننا في بيت احد اعمامنا ومداموازل واصف بك لا تفرق عن دورا في آدابها ومعارفها وهي تتكلم الانكليزية مثلي وتتكلم الفرنسوية والعربية وأبوها وأمها يحسنان الفرنسوية . وواصف بك يتكلم عن الاطيان والري والزراعة كأنهُ من مهندسي الري . ثم فصَّل لهُ رأيهُ على ما تقدم وطلب من ابيهِ ان يكاتبهُ في ذلك رأساً وان ينشر من كتابهِ ما شاء في جريدتهِ

ثم استدرك على ذلك قائلاً اما المهندس المعلوم فرأيهُ ان نشتري مئة الف فدان من الحكومة وقد اراني موقعها واكَّد لي اننا اذا اشترينا الفدان بجنيهين وانفقنا عليهِ خمسة جنيهات لا غير امكننا بيعهُ بعشرين جنيهاً وسيكاتبك في هذا الموضوع ولولا حتمك عليَّ بالسفر الى اليابان حالاً لبقيت هنا الى ان يتم هذا الامر وغداً اكتب عن الشغل الآخر بالتفصيل

وكتبت دورا الى أمها تصف لها ما رأتهُ في يومها وتقول انها مدعوة مع اخيها الى بيت راغب باشا أبي حليم بك في اليوم التالي وانهما سيسافران في اليوم الذي بعدهُ قاصدين الشرق الاقصى

الفصل السابع

البورصة

لما خرج واصف بك لزيارة المستر هنري بروْن مشت زوجتهُ مع ابنها الى غرفة الجلوس وجاست دورا على البيانو تسلي نفسها ببعض الالحان القديمة

فقال امين لامهِ كيف رأيتِ هذه الفتاه واخاها . فقالت رأيتهما على غاية اللطف والتهذيب ويا حبذا لو بقيا فصل الشتاء عندنا ولكنهما مسافران بعد غدٍ الى الهند والصين واليابان . فقال هذا شأن الانكليز فانهم اهل سفر . فقالت نعم انهم ذوو همم عالية . ثم صمتت وصمت هو ومرَّت دقائق من غير ان يفوه احدهما بكلمة كأنّ كلاًّ منهما كان يفكّر في موضوع ولا يدري كيف يبتدىء الكلام بهِ . واخيراً التفتت اليهِ وقالت لهُ عهدي بك انك لا تخفي عليَّ شيئاً

فادرك مرادها وقال ماذا قالت لكِ مدام لاڤي . فقالت اخبرتني خبراً لا اكاد اصدقهُ . فقال ان الخواجه لاڤي مغتاظ مني

فقالت لا تقل ذلك فان الخواجه لاڤي ومدام لاڤي يحبانك مثل ولدهما وقد اكَّدت لي مدام لاڤي ان هذا الخبر لم يبلغ زوجها الاَّ اليوم وكان مرادهُ ان يراك وينصحك لكي تترك هذا الشغل حالاً لانهُ ما من احد دخل البورصة وخرج وعلى بدنهِ قميص

امين — ان هذه سنة غير اعتيادية لا تفوَّت ونصف اهالي مصر داخلون في البورصة

امهُ — هم مجانين وقد ورثوا اموالهم ولم يتعبوا في تحصيلها اما نحن فكل غرش حصَّلهُ ابوك حصَّلهُ بعرق جبينه . نعم ان جدك كان على ثروة طائلة ولكن ايام اسمعيل لم تترك لهُ شيئاً والآن يا ولدي برضاي عليك لا تدع الخبر يصل الى ابيك بل اخرج من هذا الشغل حالاً

امين — أتعلمين كيف انقدت اليهِ اتاني برسوم افندي ذات يوم وطلب مني مئتي جنيه قرضة ولم ارد ان اعطيهُ في اول الامر لانني اعلم انهُ يلعب في البورصة

ولكنهُ لجَّ عليَّ كثيراً حتى اعطيتهُ تخلصاً من لجاجتهِ فمضى واتاني بعد يومين وقال انهُ اشترى الفي قنطار قطن لهُ الف ولي الف ودفع المئتي جنيه عربوناً فربح قطني ثلاثمئة جنيه في يومين وانهُ عازم ان يشتري ثلاثة آلاف قنطار اخرى على الربح الذي ربحناهُ فلم اعارضهُ في ذلك ولكنني قلت لهُ صريحاً انني لا أريد هذا الشغل ولا ادفع غرشاً من الخسارة فرضي بذلك وتوسع في الشغل والآن لو صفيت مركزي لبلغ ربحي ثلاثة آلاف جنيه لان الاسعار ارتفعت اكثر من ريال ونصف في اقل من شهر

امهُ — لا أعرف هذه الحسابات ولا اريد ان اتعب رأسي في تتبُّعها وانما اطلب منك واحتم عليك ان تخرج الليلة الليلة من شغل البورصة . قل لبرسوم ان يرد لك المئتي جنيه التي اعطيتهُ اياها والله يبارك لهُ بالربح كلهِ فاننا في غنىً عنهُ من كرم المولى

أمين — ان الربح الذي ربحتهُ حلال لي ولا يأخذهُ برسوم لو سمحتُ لهُ بهِ لانهُ هو ربح مثلي واكثر مني وكل تجار الدنيا يشتغلون في البورصة . وكل رجال المال والاعمال الذين قرأنا عنهم في اوربا واميركا جمعوا اكثر ثروتهم من الشغل في البورصة ولولا البورصة لوقف دولاب التجارة واستبدَّ التجار بالفلاحين وانا أُوافقك واترك هذا الشغل ولكنني لا اترك ربحي منهُ نعم اريد ان اترك هذا الشغل لانهُ شغل بالي كثيراً وأُؤكد لكِ انني حُرمت النوم من شهر الى الآن مع انني لم اخسر يوماً واحداً

امهُ — قُل في مزايا البورصة ما شئت فانا لا اغير رأيي واعتقادي ولما سمعتهُ من اشد الناس اخلاصاً لنا من مدام لاقي عن لسانها وعن لسان زوجها . وما لنا ولقول زيد وعبيد فقد قضينا الصيف في رمل الاسكندرية وما كنت اسمع الاَّ ان فلاناً كان يملك خمسين الف جنيه او مئة الف جنيه كان عندهُ الخدم والحشم والعربيات فاصبح على الارض لا يملك شيئاً واولادهُ يخدمون الآن في مصالح دنيئة بعد ان ربوا في الرفاهة والنعيم وما ذلك الاَّ لان اباهم طيَّر اموالهُ كلها في البورصة . ورأيت مرةً رجلاً مستخدماً بثمانية جنيهات في الشهر قيل لي انهُ كان يملك مئتي الف جنيه طيَّرها كلها في البورصة . فلا تجادلني الله يرضى عليك بل عدني انك الليلة الليلة تترك هذا الشغل وتسترجع دراهمك من برسوم وتترك لهُ كل الربح

امين — الربح ليس عندهُ بل عند السمسار

امهُ — من هو هذا السمسار

امين — عزرا ابراهام

امهُ — عزرا هذا الولد الخبيث مَن اوقعك في يد عزرا كم بيت خرب اسأل استير عنهُ فانهُ طلبها عدة مرات فرفضتهُ . عزرا وصهرهُ حاييم وشريكهُ يهودا جماعة لصوص . وهذا شيء يشق المرائر يا امين اين ابوك انا لا اطيق هذا . اتُلقي نفسك في ايدي هؤلاءِ اللصوص . قم الآن واذهب وصفِّ شغلك معهم ولا يمكن ان اصبر عليك الى الصباح

امين — هدي روعك فان البورصة تقفل ليلاً واعدك وعداً صادقاً انني اذهب غداً واصفي شغلي فانني انا غير مستريح البال ولو لم يغرني برسوم على هذه الصورة التي شرحتها لكِ ما كان يمكن ان ادخل في هذا الشغل وغداً امرُّ على عزرا قبل ذهابي الى الديوان لكي يصفي مركزي كلهُ

ثم قام اليها وقبَّل يدها وجبينها وقال لها عندي رضاك بالدنيا كلها. فقبَّلت وجنتيهِ ووعدتهُ انها لا تخبر اباهُ

جلس عزرا وحاييم ويهودا في المكان الداخلي من مكتبهم بعد ان ذهب المستخدمون كلهم ما عدا الفرَّاش وهو بربري لهُ في خدمتهم بضع سنوات وحسبوا ارباح النهار فوجدوها وافرة جدًّا وكانت ادارة المحل في يد عزرا لانهُ امهرهم وادهاهم لكن لم يكن السرور بادياً على وجههِ كما كان بادياً على وجه شريكيهِ فقال لهُ يهودا ما شأنك قال لا شيء

يهودا — لا بدَّ من شيء هل اتى تلغراف في غيابي

عزرا — كلاَّ ولكن اتت زين الدار الآن واخبرتني ان استير ذهبت مع امها الى بيت واصف بك حيث التقت بامين وقلبي يحدثني ان استير لم ترفض طلبي الاَّ لانها تحب ابن واصف بك . انظر حسابهُ يا حاييم كم صار ربحهُ الآن

حاييم — نحو ثلاثة آلاف جنيه

عزرا ثلاثة آلاف جنيه وكم ثروة ابيهِ

يهودا — ثروة ابيهِ كبيرة جدًّا اطيانهُ تساوي ثلثمئة الف جنيه او اكثر

حاييم — وليس لهُ غير صبي و بنت

عزرا — الله كريم ما دامت رجلهُ في البورصة لا يمكن ان يفلت من يدي

حاييم — ولكنهُ رائح في الطلوع والقطن طالع

عزرا - على الطلوع او النزول انا اعرف شغلي معهُ ولا يمكن ان يرى استير قوموا بنا الآن

ذهب امين الى غرفتهِ قبلما رجع ابوهُ واخذ المقطم والتفت الى الكنتراتات فوجد الاسعار لا تزال متمسكة فاطمأنَّ بالهُ فقرأ التلغرافات والاخبار المحلية والاخبار الخارجية وقليلاً من رسائل الجهات . وكان يطالع رواية انكليزية حديثة فقرأ منها فصلين وخلع ثيابهُ لينام . واخذ يراجع ما سمعهُ من دورا و يقابلها ببهيَّة و باستير و بالبنات الانكليزيات اللواتي رآهنَّ في انكلترا لما كان يدرس الهندسة فيها فقال انها من اجملهنَّ منظراً والطفهنَّ معشراً و يسرُّني منها انها تعجب بالشرقيين وقد صرَّحت لي انها تحسدنا على هواءِ مصر وتودُّ ان تقضي فصل الشتاءِ ههنا دائماً . لكن استير افضل منها من بعض الوجوه لا سيما وان لغتها مثل لغتنا غير انها اسرائيليَّة وابناء عمها لا يتركونها وليس بيننا غير صداقة انتجتها المعاشرة وقد اتى حاييم الآن وظهر لي منهُ انهُ يميل اليها هنيئاً لهُ فانها من افضل البنات . لقد اصابت امي في ما قالت من جهة البورصة لا بدَّ من تصفية مركزي غداً . ثم ران الكرى على جفنيهِ فنام الى الصباح

وقبل ان ينزل الى الديوان قالت لهُ امهُ لا تنسَ وعدك والاحسن ان تكلم عزرا الآن بالتلفون وتقول لهُ انك انسحبت من شغل البورصة . فقام الى التلفون مكرَهاً وطلب عزرا وقال لهُ ان يغطي مركزهُ كلهُ بالاحسن . فقال لهُ عزرا اننا ننتظر صعوداً اليوم ومع ذلك فالامر لك فقال لهُ لا بدَّ من بيع كل ما عندي اليوم . فقال

عزرا انبيع الثلاثين الف قنطار فقال امين نعم بعها كلها . فقال عزرا ولكن بيع ثلاثين الف قنطار دفعةً واحدة ينزل السعر كثيراً . فقال امين بعها على دفعتين او ثلاث وعلى كل حال اريد ان اخلص قبل الساعة الحادية عشرة خذ كلامي هذا امراً لك بالبيع

وكانت امهُ تسمع كلامهُ فسرَّت منهُ واعتنقتهُ ونزل الى الديوان على جاري عادتهِ وهو يشعر احياناً كأن حملاً ثقيلاً نزل عن ظهرهِ واحياناً كأنهُ ارتكب خطاءً فظيعاً. وفي نحو الساعة العاشرة ناداهُ عزرا بالتلفون وقال لهُ بعنا عشرة آلاف و بعد نحو نصف ساعة ناداهُ ثانية وقال بعنا عشرة آلاف اخرى و بعد ربع ساعة قال لهُ بعنا العشرة الآلاف الباقية والاسعار آخذة في الارتفاع جدًّا ولو بقي قطنك لتضاعف ربحك الآن اسمع مني ودعني استرد لك عشرة الآف قنطار . فقال امين كلاَّ . ولكنهُ عاد الى مكتبهِ منشغل البال مضعضع الافكار وكان رئيسهُ قد اعطاهُ رسم كبري (جسر) يراد انشاؤهُ على النيل عند الروضة ليدرسهُ فلم يعد يستوضح الخطوط بل صار يراها مشتبكة بعضها ببعض واراد ان يستردَّ افكارهُ الشاردة فلم يستطع فجعل يلوم نفسهُ ويقول لقد ربحت في شهر اكثر من راتب الناظر في سنة فلماذا لا اقنع ثم يقول ولكن لو صبرت ساعتين لتضاعف ربحي لقد صدق المثل في العجلة الندامة وفي التأني السلامة وخرج من مكتبهِ بُعَيد الظهر والتفت الى تلغرافات روتر فوجد فيها التلغراف التالي

نيو يورك في ٢٩ دسمبر

« ارتفعت اسعار القطن اليوم بمضاربات حزب الصعود الى حدٍ لم يسبق لهُ نظير منذ اعوام كثيرة فاقفلت السوق بارتفاع ٤٨ الى ٥٠ بنطاً ومما زاد المضاربين هيجاناً ورود تلغرافات من نيو أرليانس بتأليف سنديك هناك لابتياع كل ما بقي من القطن وبيعهِ باسعار عالية جدًّا » . فلما قرأ هذه السطور دار رأسهُ واصطكت ركبتاهُ واسودَّت الدنيا في عينيهِ فلم يعد يستطيع الوقوف فجلس على كرسي وهو يقول في نفسهِ فرصة ضاعت قال لي عزرا فلم اصدقهُ لا يمكن ان تكون مدام لاقي مخلصة لنا فاتت وخدعت امي يا للحماقة يا للجنون لا يبعد ان تكون الاسعار بلغت عشرين ريالاً الآن واظن انهُ باع لي بخمسة عشر ريالاً فلو صبرت الى الآن لربحت خمسة ريالات في كل قنطار

اي ثلاثين الف جنيه في ساعتين . ثم القى رأسهُ على يدهِ وكاد يغمى عليهِ . وبعد قليل نهض مذعوراً وطلب عزرا بالتلفون فقيل لهُ ان تلفونهُ مشغول فنزل الى دار الديوان وركب مركبة واسرع الى مكتب عزرا فوصلهُ بعد اقفال البورصة وعلم منهُ ان الاسعار بلغت ١٨ ريالاً وانهُ باع لهُ بخمسة عشر ريالاً الى ١٥ ونصف ولو انتظر الى الظهر لزاد ربحهُ نصف جنيه في كل قنطار فبلغ خمسة عشر الف جنيه . وقال لهُ انك لم تسمع نصيحتي ونحن دائماً ننصح زبائننا وقد بلغ ربحك عندي الآن اربعة آلاف وخمس مئة جنيه فزاد الف وخمس مئة جنيه عما كان امس ولو سمعت نصيحتي لكان ربحك الآن عشرين الف جنيه « نت » ولكن انتم المصريين تستعدون من ينصحكم

امين — ألا سبيل لاسترجاع مركزي

عزرا — لا اعلم اظن ان السعر يبلغ ٢٠ ريالاً او خمسة وعشرين كما حدث في السنة الماضية وقد صار الشغل الآن خطراً ومع ذلك لا بأس بأن تخاطر ببعض الربح

امين — اشترِ لي عشرة آلاف قنطار

عزرا — اكتب يا حاييم عشرة آلاف قنطار لامين بك عند اول فتح البورصة

وعاد امين بك الى البيت وجلس على المائدة ولم يفه بكلمة ورأت امهُ انهُ منشغل البال فاستفردتهُ بعد الغداء وسألتهُ عن القطن فقال لها انهُ باعهُ ولم تسألهُ عن ربحهِ ولا اخبرها هو بهِ . واخذ الرواية التي كان يقرأها وحاول القراءة ولكن افكارهُ كانت شاردة فقلب الصفحة بعد الصفحة وهو يقرأ ولا يعي شيئاً . وقامت في نفسهِ قوتان متضادتان قوة الطمع وقوة القناعة فكانتا تتحاوران وتتناظران على هذا النمط

الطمع — لعن الله الساعة التي اطعت فيها امك فلولا ذلك لبلغ ربحك الآن اكثر من عشرين الف جنيه . من يستخفُّ بهذا الربح بل كان يجب ان تصدق قول عزرا وتشتري ثلاثين الفاً اخرى عند اول فتح البورصة بدلا من البيع فكان ربحك الآن ثلاثين او اربعين الف جنيه — هذه خسارة لا تعوَّض

القناعة — من يعرف المستقبل ومن يقدر ان يحكم بارتفاع الاسعار فقد ربحت اكثر من اربعة آلاف جنيه وهو ربح طائل فاقنع بهِ ولا تخاطر ايضاً فم كل مرة تعود

بالربح بل لا بدَّ من خسارة تلحق البائع او الشاري او تلحقهما كليهما لان ربح السمسار منهما

الطمع — هذه سنة غير عادية وكل احد يعلم ان موسم اميركا لا يكفي لمقطوعية المعامل والمتأخرات قليلة جدًّا

القناعة — ما ادرانا ان المعامل لا تقلل ساعات العمل كما فعلت غيرة مرة فيصير القطن كافياً لها وزائداً عليها وتهبط الاسعار . وما ادرانا ايضاً ان حزب النزول لا يتغلَّب على حزب الصعود واذا حدث ذلك وهبطت الاسعار وخسرت فمن اين توفي الخسارة وابوك لا يعلم شيئاً عن اشتغالك بالبورصة وامك لا تملك نقوداً تعطيك اياها

الطمع — هذه ظنون لا تذكر في جانب الامر المحقق وهو صغر الموسم وقلة المتأخرات اما المعامل فان تأخرت عن العمل اليوم فستعود اليهِ غداً لان مقطوعية الدنيا لا يمكن ان تقل بل هي آخذة في الزيادة

وبمثل ذلك كان يحارب نفسهُ بنفسهِ فغلبت قوة الطمع على قوة القناعة ورسخ في ذهنهِ انهُ خسر عشرين الف جنيه على الاقل باصغائهِ الى نصيحة امهِ فتألم وتمرمر وتولاَّهُ صداع شديد حتى شعر كأن صدغيهِ كادا ينشقان من كثرة ما تورَّد من الدم اليهما فنهض وفتح كوة ووقف فيها يستنشق الهواء النقي لعلَّ دمهُ يتنقَّى مما تجمع فيهِ من الفضول بانتثار دقائق دماغهِ وظلَّ يلوم نفسهُ الى ان اذَّن العصر فانتبه الى انهُ وعد حليم بك بالذهاب مع هنري واختهِ اليهِ

واجتمع عزرا ويهودا وحاييم في المساء فقال عزرا خلص من الشرك ثم عاد اليهِ لا يمكن ان يخرج بقرش واحد الله كريم وسأجعل استير تنظر اليهِ كما تنظر الى الفحمة السوداءِ . ماذا فعلت اختي ياحاييم

حاييم — اخبرت الخواجه لاقي وزوجتهُ عن اشتغال امين بالبورصة فاغتاظ الخواجه لاقي وقالت مدام لاقي انها سترى امهُ وتكلمها في شأنهِ

عزرا — لا بدَّ من انها فعلت حسب كلامها والاَّ ما قام في الصباح وطلب مني

ان ابيع لهُ حسناً فعلت والاَّ لزاد ربحهُ خمسة عشر الف جنيه . الله كريم

حاليم — وقد بلغ ربح محلنا الآن من قطن امين الذي اصلناهُ لحسابنا نحو ستة عشر الف جنيه عدا السمسرة

عزرا — وسيتضاعف ان شاء الله

الفصل الثامن

دار الحريم

لما حان الوقت لذهاب هنري ودورا الى سراي راغب باشا اقبل امين وبهيَّة الى نزل ساڤوى ليأخذاهما منهُ . وقال حليم في نفسهِ لا بدَّ من ترك البورصة الآن ونزعها من بالي تماماً . ولما وقعت عينهُ على دورا تذكَّر الايام السالفة حينما كان في بلاد الانكليز يشاهد البنات الانكليزيات بوجناتهنَّ الموردة وعيونهنَّ الزرقاء البرَّاقة فهزَّهُ عامل الوجد وحياها وحيَّا أخاها وركب الاربعة مركبة واحدة من نوع اللندو وساروا من امام البوسطة فشارع محمد علي فسوق السلاح الى سراي راغب باشا ولما دخلوا باب السراي الخارجي ونظر هنري ودورا الى ما امامهما لم يصدقا اعينهما وظنا انهما في حلم لان الاسواق والعطفات التي مروا فيها لا يُنتظر ان توصل الى حديقة غناء باسقة الاشجار واسعة الخمائل كبيرة الفساقي تتدفق منها المياهُ وتسبح فيها الاسماك . وسارت المركبة بهم بين الادواح المختلفة الانواع والاشكال الى ان وصلت الى سلَّم من الرخام الناصع البياض يُصعد بهِ الى رواق كبير قائم على عمد من الرخام طول العمود منها نحو عشرين قدماً فوقها قناطر عربيَّة الشكل وارض الرواق مفروشة بالرخام المجزَّع ويدخل منهُ الى غرف السلاملك وهي واسعة مفروشة بالبسط العجميَّة فدخلوا كلهم من غرفة الى اخرى الى ان وصلوا غرفة الاستقبال الكبرى وكانت غربية شمالية تدخلها شمس العصر وتنعكس اشعتها عما فيها من الزجاج المذهب والقيشاني القديم واستقبلهم امين بك عند سلم الرواق وراغب باشا في غرفة الاستقبال الكبرى ورحَّب بهم وكان كهلاً طويل القامة واسع الجبين كبير العينين تلوح على وجههِ لوائح الشهامة وعزَّة النفس

وكان يحسن الفرنسوية لانهُ من التلامذة الذين درسوا قديماً في فرنسا

وكان الشيخ احمد هناك وكذلك استير وامها فسلَّم على هنري واخته بالفرنسوية لانهُ كان شارعاً في درسها وكانت استير تخاطبهُ بقولها يا استاذي . وبعد قليل قامت استير وامها وبهيَّة ودورا ومررنَ مع احد الخصيان الى دار الحريم وهي داخل دار الرجال او السلاملك مفصولة عنها برواق طويل على احد جانبيهِ حديقة كبيرة وعلى الجانب الآخر دار الخدَم . والتقتهنَّ حليمة عند باب الدار وعرَّفت امها بدورا وكانت استير وامها وبهية يعرفنها جيداً ولم تكن ام حليمة تتكلم غير العربية والتركية فجعلت حليمة تترجم بينها وبين دورا

وجلس السيدات ووقف الجواري في خدمتهنَّ وقدّمنَ لهنَّ الشاي في فناجين من الذهب مرصَّعة بالجواهر ثم نهضنَ يتفرجنَ على دار الحريم وحديقتها فتذكَّرت دورا ما قرأتهُ في الف ليلة وليلة وقالت بل ما اراهُ الآن اغرب مما قرأت عنهُ لانهُ جامع بين بدائع الصناعة الشرقية ومجالي الصناعة الغربية فالغرف شرقية في شكلها ونقشها وفرشها وغربية في ما فيها من الكراسي والمقاعد والموائد والخزائن والستائر والثريات . والجواري شرقيات او تركيات في لبسهنَّ الابيض المهلهل ولكن سيدتيهنَّ غربيتان في لبسها وقصّ شعرهما كأنهما حضرتا من باريس امس . وطالت الزيارة نحو ساعة من الزمان وسألت ام حليمة دورا عن اهلها وكم اخ واخت لها وعن غرضها من هذه السياحة ولما علمت منها انها ذاهبة مع اخيها الى بلاد اليابان استغربت ذلك جدًّا واستعظمتهُ وقالت انها قرأت عن اليابانيين وعن تقدمهم السريع في احدى المجلات العربية ورأت صورة ملكتهم وهي تشبه ملكات اوربا والظاهر انها تقلد ملكة الانكليز في لبسها ويظهر من صورتها وصور غيرها من النساء اليابانيات انهنَّ يظهرنَ على الرجال كالنساءِ الاوربيات ثم قالت ولا عجب اذا تقدَّم اليابانيون اكثر منا لان نساءهم يتعلمنَ من معاشرة الرجال ومزاولة الاعمال فتتسع مداركهنَّ وتقوى عقولهنَّ بخلاف اكثر اهالي المشرق الذين يحجبون نساءهم عن الابصار ويحبسوهنَّ في بيوتهم فلا يرين الاّ الجواري والخصيان ولذلك وجد العلماء ادمغة اليابانيين مثل ادمغة ارقى

الامم في ثقلها وشكلها لان اولادهم يرثون الارتقاء من آبائهم ومن امهاتهم معاً فوافقتها دورا على ذلك وقالت انها تعرف كثيرين من اليابانيين رجالاً ونساء وهم على غاية الذكاء وعلو الهمَّة وسفيرهم في لندن لا يفرق عن سفراء بقية الدول الاوربية الكبرى وزوجتهُ تقابل في بيتها مثل زوجاتهم

ودار الحديث في السلاملك على مثل ما دار عليهِ في دار الحريم والتزم الشيخ احمد خطة الاعتدال وكان يقول ان اكثر نسائنا لسنَ متربيات التربية الكافية التي تسمح لهنَّ بمخالطة الرجال ومع ذلك فقد قام من نسائنا سيدات كنَّ يدرّسنَ العلوم الشرعية وكان اكبر الائمة يقرأون عليهنَّ واللوم في التضييق على نسائنا ليس على العرب ولا على الاسلام بل على الذين التصقوا بهم من أمم الفرس والترك والديلم

ولما انقضت الزيارة عاد الضيوف من حيث أتوا وطلب هنري من راغب باشا وابنهِ والشيخ احمد ان يشرفوهم اذا زاروا بلاد الانكليز

ولم يصدق امين بك ان اوصل اختـهُ الى البيت حتى عاد الى البورصة فوجد عزرا فيها وسألهُ عما اشتراهُ لهُ وعن الاسعار فقال اشتريت لك عشرة آلاف قنطار حسب أمرك وقد هبطت الاسعار قليلاً بعد ذلك ولكن يقال انها ستصعد ثانية فهل نستغنم فرصة النزول ونشتري اكثر. فقال امين كلاَّ يكفي الآن عشرة آلاف قنطار وسار في طريقهِ

والتفت عزرا الى حاييم بعد ذلك وقال لهُ لم يعلق الآن ولكن غداً يعلق الله كريم

الفصل التاسع

التقرير السري

سكرتير السفارة — تقرَّر سفر المستر هنري برَوْن بن السر ادورد برون صاحب لندن نيوز الى بلاد اليابان وسيمرُّ على جنوى ومصر في مهمة سرية تتعلق باليابان ومهمة عمومية تتعلق بانكلترا. ومدار العمومية على زرع القطن في مصر والبلاد المجاورة لها لاضعاف اصحاب القطن في اميركا ومنع استبدادهم والاَّ خربت معامل لنكشير.

والذي يهمنا من امرهِ انما هو المهمة السرية فيجب ان تقتفي خطواتهِ وتقف على اعمالهِ بالتفصيل . أمستعد انت للسفر يا مستر برودي

برودي — متى

السكرتير — اليوم الساعة العاشرة قبل الظهر

ففتح برودي ساعتهُ وقال بعد ساعة ونصف . وصمت هنيهة وهو ينكت الارض بعصاهُ ثم فتح ساعتهُ ثانية وقال نعم الساعة العاشرة

فاعطاهُ السكرتير ظرفين ولفة من الاوراق المالية فوضعها في جيبهِ وودعهُ وخرج

وقبل الساعة العاشرة بدقيقة كان في محطة تشرنج كروس ومعهُ امتعتهُ ودخل المركبة التي دخلها هنري واختهُ وبعد لحظة سار القطار بهم ينهب الارض نهباً قاصداً مدينة دوڤر . وبعد هنيهة فتح سفطة واخرج بعض المجلات المصورة وعرضها على هنري ودورا وعلى رجل ثالث كان راكباً معهم فشكروهُ وتناولت دورا مجلة منها واما هنري والرجل الثالث فاخرجا من جيبهما جريدتين من جرائد الصباح وجعلا يقرأان فيهما . فقال برودي لهما نحن ندع السياسة لكما والتفت الى دورا كأنهُ يطلب مصادقتها على ما قال فلم تستغرب منهُ هذه الجرأة بعد ان شجعتهُ عليها بتناولها المجلة منهُ فاشارت اليهِ برأسها اشارة الاستحسان وانقطع الحديث الى ان وصلوا الى دوڤر

وكان برودي كهلاً في نحو الخامسة والاربعين من عمرهِ اشقر الشعر ازرق العينين طويل القامة عريض المنكبين تلوح على وجههِ لوائح القوة والبسالة مع توقد الذهن عيناهُ دائمتا الحركة كأنهُ يستجمع كل ما يراهُ ويسمعهُ ولم يكن شيء في منظرهِ وحركاتهِ يدعو الى النفور او التخوف لكن دورا اوجست منهُ شراً حالما رأتهُ ولامت نفسها لانها تسرعت وتناولت المجلة من يدهِ ففتحت لهُ سبيلاً الى الكلام معها

ولما وصلوا الى دوڤر ونزلوا من القطار وجدوا السفينة لا تسافر بهم الا بعد ساعتين فقالت دورا لاخيها اين نتناول الغداء . فبدت الحيرة على وجههِ لانهُ لم يكن قد اكل في دوڤر قبلاً فقال لهما برودي اذا سمحتما لي فانا ادلكما على مطعم اعتدتُ الاكل فيهِ . فشكراهُ وسارا معهُ الى الجهة الشرقية من المحطة ودخلوا مطعماً اكلوا فيهِ مما حضر .

ولامت دورا نفسها على سوء ظنها بالرجل لانها لم ترَ منهُ الاَّ كل مجاملة لكنها لم تستطع ان تتغلَّب على نفورها الطبيعي منهُ

وسألهُ هنري الى اين تقصد فقال الى بلاد اليابان ولي رفاق ينتظرونني في جنوى فلا بدَّ لي من المرور عليها واذا لم التقِ بهم هناك التقيت بهم في مصر . فقال هنري اذاً نحن رفقاء . فقال برودي هذا يسرُّني كثيراً وعسى ان لا يحدث ما يجعلني اغيّر خطَّة سفري لانني لستُ ذاهباً لغرض معين وقد كانت هذه السياحة في بالي منذ سنتين فلم تتيسَّر لي الاَّ الآن واذا التقيت برفقي في جنوى فقد نذهب بطريق القسطنطينية ونمرّ على سورية ولكن لا بدَّ لنا من التعريج على مصر . وقاموا يمشون على الرصيف ويتحدثون في مواضيع مختلفة الى ان ارتفع الدخان من السفينة التي كانوا عازمين على ركوبها فنزلوا اليها . وكان البحر هائجاً جدًّا فاصاب دورا دوار شديد وكذلك هنري اصابهُ شيء من الدوار واما برودي فلم يظهر انهُ اصيب بشيء فاخرج حنجراً من جيبهِ وقال ان فيهِ املاحاً وسوائل عطرية تزيل الدوار او تخففهُ واعطاهُ لدورا فتناولتهُ منهُ وشكرتهُ وجعلت تستنشق رائحتهُ فخفَّ دوارها قليلاً او توهمت انهُ خفَّ ولعلَّ رائحتهُ اخفت رائحة الفحم القطراني الذي يوقد في السفينة وهو السبب الاكبر للدوار . ثم انتقلت الى الجهة التي تهبُّ منها الريح حتى لا يصل اليها شيء من رائحة السفينة فسكن دوارها وبعد نحو ساعة وصلوا الى كاله وركبوا القطار الى باريس فباتوا فيها تلك الليلة وقاموا في الصباح وقصدوا ايطاليا ووصلوا جنوى ونزلوا في نزل واحد

وكتب برودي الى السفارة في المساءِ يقول « رأيتهُ اليوم مع ثلاثة من اليابانيين زاروا الطرَّادين المدَّعين اللذين بنيا لحكومة الارجنتين وظهر لي من قرائن مختلفة انهُ مفوَّض في مساعدتهم على مشتراها وقد ذهب معهم الى بنك سلمون كوهن وكان مدير الترسانة ووكيل حكومة الارجنتين معهم والراجح عندي انهم امضوا عقد البيع اليوم هناك . وقد رشيت الخادم ليسلم اليَّ المكاتيب التي يرسلها المستر برون الى ابيهِ لكنهُ لم يسلمها الى الخادم بل اخذها ووضعها في صندوق البريد بيدهِ »

وقاموا كلهم في اليوم التالي قاصدين مصر وكان البحر هادئاً فرأى برودي مجالاً واسعاً للكلام مع هنري واختهِ وتظاهر انهُ متغرّض لليابانيين على الروس وكاد يعلم من هنري ان اليابان اشترت الطرادين لكن هنري لم يقل ذلك صريحاً ولا برودي دقق في البحث بل كان يتكلم كأن الامر مقرَّر في ذهنهِ . ولما وصلوا الى القاهرة نزلوا كلهم في نزل ساڤوى

وكتب برودي يوم وصولهم الى القاهرة يقول « ان المستر برون قابل وكيل دولتهِ في بورت سعيد ولم استطع ان اعلم ما دار بينهما من الحديث » وارسل في اليوم التالي تلغرافاً بالارقام يقول فيهِ ان هنري أُمر بالسفر حالاً الى بلاد اليابان وانهُ سيرافقهُ اليها ثم جلس وكتب تفصيل ما رآهُ وسمعهُ منهُ من حين وطئت رجلهُ القطر المصري الى حين كتابة الكتاب

الفصل العاشر

دار الخدم

دار الخدَم في بيت واصف بك يُدخل اليها من باب خاص الى الجهة الشرقية من البستان وتأتيها زوجة واصف بك مراراً كل يوم توصي على الطعام وتراقب الخدم وتكتب الحساب لانها تقول ان لا بدَّ للزوجة من ان تراقب مطبخها كما تراقب ثيابها وحلاها والاَّ تضاعفت النفقات باهمال الخدَم ان لم يكن باختلاسهم وجاء الطعام تفهاً لا يؤكل . لكنها لم تكن تدقق في منع خدم الجيران والاصدقاء من الدخول بين خدمها فكانوا يتزاورون احياناً كثيرة ويتحدثون بكل ما يسمعونهُ في بيوت اسيادهم

ولما مضت استير وامها الى بيت واصف بك على ما تقدَّم تبعتهما زين الدار وهي جارية عجوز في بيت عزرا اشتراها ابوهُ منذ اربعين سنة وعتقها حين صدر الامير بعتق العبيد لكنها بقيت في بيت سيدها لانها تحب اولادهُ كأنهم اولادها . وكانت تعلم ان عزرا يريد الاقتران باستير ويخشى من انها تميل الى ابن واصف بك فتقتفي خطواتها وتتسقّط اخبارها وتوافيهِ بها . وكان في بيت لاڤي جارية فتية اسمها قدَم خير

وكانت الاثنتان متآخيتين فلا تخفي احداهما عن الاخرى شيئاً لا سيما وان عزرا استهوى قدم خير بهداياهُ عن يد زين الدار . فلما خرجت استير مع امها الى بيت واصف بك اسرعت قدم خير واخبرت زين الدار بذلك فمضت هذه الى بيت واصف بك وجلست مع الجواري والخدم وكانوا يعرفونها ويكرمونها ولا سيما السودانيون منهم وينادونها بيا امي ويعتقدون انها تبصر البخت وتضرب بالرمل . ولم تكد تدخل حتى دنا منها شاب اسود الوجه مشرَّط الوجنتين كبير العينين جاحظهما اسمهُ عبد الله ودار بينهما الحديث التالي

عبد الله — فين الكتاب

زين الدار — الشيخ موش عايز يكتب

عبد الله — على شان ايه

زين الدار — ما يكتبش كتاب زي دا بربع ريال

عبد الله — والعمل ايه

زين الدار — هات ربع تاني وهو نصف ريال حاجه وتصير لك عروس مثل قدم خير

عبد الله — اهو ربع ريال تاني

زين الدار — طيب ارُحلو من باكر واي دول الناس العندكم

عبد الله — مدام لافي وستي استير وواحد ينقلو حليم باي ابن راغب باشا وخواجه وست انجليز

زين الدار — وقوي ستي بهيَّة محتفلة فيهم

عبد الله — قوي قوي وقفت مع الخواجه الانجليزي اكثر من ساعة قدام الشباك وقدَّمتلو الشاي فمسك الفنجان بيدو ونسي يشربو

زين الدار — وكانوا يتكلمون ايه طول الساعة

عبد الله — انا عارف . كانوا يتكلموا بالانجليزي او بالفرنساوي

زين الدار — وستي استير مع مين كانت تتكلم

عبد الله — تكلمت في الاول مع امين باي ثم جاء حليم باي واخذ يكلمها ووقف مبهوت منها

زين الدار — وقلو ايه امين باي

عبد الله — ما قلّوش حاجه ولكن شايفلك ان الست الانجليزية لعبت براسو

زين الدار — الله وترك ستي استير

عبد الله — ما ظنيش أوهو بدو يسايرها والسلام وسمعتو يتكلم عن ستي استير مع حليم باي وكانوا التنين يمدحوها قوي وما صدّقش حليم باي انها تتكلم عربي حتى سمعها

زين الدار — عربي وتتكلم احسن مني ومنك وكان يجيها واحد شيخ من الازهر يعلمها

عبد الله — وقدِّ كدا الخواجه لاقي يحب ولاد العرب

زين الدار — الخواجه لاقي امير وسيدي عزرا امير

عبد الله — بيقربوا بعض

زين الدار — ما اعرفشي يمكن بيقربوا بعض كل اليهود قرايب اهو قلتلك عن الشيخ بيومي ومن باكر رحلو تاني نوبه واديلو النصف ريال

ثم ودعت وخرجت . ودخلت مدام واصف بك بعد خروجها ورأت الخدم يمسحون الآنية والادوات الفضيَّة بالمناشف والجلد الناعم فاوصتهم ان ينفضوا الجلد من الغبار قبل مسحها بهِ ووقفت معهم هنيهة الى ان وضعوا كل شيء في مكانهِ بعد ان عدَّوهُ امامها . ثم جلست وفتحت دفتراً وجعل الطباخ يسرد لها اسماء الاشياءِ التي اشتراها ذلك اليوم وثمن كلٍّ منها وهي تستغلي البعض وهو يقول «كل شي نار يا ستي اللوكندات غلَّت علينا كل شي اللحمة والفراخ والحمام والخضار مافش حاجة بتتقارب» . ثم حاسبتهُ على ما معهُ من النقود وما صرفهُ ذلك اليوم وكشفت الحلل ونظرت ما فيها من الطعام وخرجت

ولم تكد تخرج حتى دخلت دار الخدم جارية عجوز وسلمت ووقفت مع عبد الله تكلمهُ بصوت منخفض ودخلت البيت فالتقت بمدام واصف بك فقالت لها مالك

يا فاطمة كيف حال ستك

فاطمة — بخير تسلم عليكم وهي وسيدي برسوم عتبانين عليكم ازَّاي تعزموا كل الناس وما تعزموهمش

فقالت مدام واصف بك انهم لم يعزموا احداً ولكنهم التقوا بشاب انجليزي واختهِ في البالو فتعرفوا بهما ودعوهما لتناول الشاي مع مدام لاڤي وابنتها

فقالت فاطمة ان برسوم افندي رأى هذا الشاب واختهُ في البالو ونظرهُ يدلُّ على بهية كأنهُ يعرفها من قبل

فاستغربت مدام واصف بك ذلك وكانت قد رأت وقوف هنري مع ابنتها وودَّت ان تعرف ما دار بينهما من الحديث . وكانت ام برسوم تمنّي نفسها بتزويج ابنها ببهية وقد فاتحت مدام واصف بك بذلك مراراً فلم تجد منها اقل رغبة فيهِ لان برسوم لم يكن من الشبان الذين يملأُون العين ولا كانت بهيَّة تنظر اليهِ بعين الاكرام بل كانت تزدري بهِ لا سيما وانهُ كان كثير الاعتداد بنفسهِ لنظمهِ بعض القصائد وكتابتهِ بعض المقالات وكان هو يزدري باصحاب الاموال ويحسب انهم جمعوا ثروتهم بالحيل والنفاق لا بالتعب والاستحقاق وكثيراً ما وقع الجدال بينهُ وبينها في هذا الشان ولما علمت انهُ طلبها من ابيها زاد نفورها منهُ ولكنها بقيت تسايرهُ كما تساير باقي الناس

اما ام برسوم فكانت خرقاء رعناء تعتقد بالسحر والطلسم فقصدت رجلاً يقال انهُ يعرف علم المصريين القدماءِ وطلبت منهُ ان يكشف لها بعلمهِ ما يكون من امر ابنها وهل يتاح لهُ الاقتران ببهيَّة فكتب اسمها واسم ابنها واسم بهيَّة وامها ورتب حروف هذه الاسماء في جداول وجعل يسقط بعضها من بعض ويزيد ويحذف الى ان وصل الى نتيجة قال انها طبق المرام

الفصل الحادى عشر

السقوط والسفر

ذهب امين الى الاوبرا الخديوية والتقى بهنري واختهِ وكانا قد حضرا بدعوة

الخواجه لاڤي وزوجتهِ وابنتهِ وعلم منهما انهما مسافران في اليوم التالي الساعة الحادية عشرة صباحاً الى السويس ومنها الى الشرق الاقصى . وسألاهُ عن بهيَّة وامهِ وابيهِ وودا لو احضر بهيَّة معهُ فاعتذر عنها . وأُسقط في يد هنري لانهُ كان يحب ان يراها مليًّا قبل سفرهِ ولام نفسهُ لانهُ تقيَّد بهذا السفر ولم يُطلع اباهُ على ان لهُ غرضاً آخر منهُ غير الغرض التجاري والسياسي وودَّ لو اتيح لهُ ان يخرج من الاوبرا حينئذٍ ويزورها حتى يتودَّع من رؤيتها قبل سفرهِ . وكانت هذه الافكار تتردد في صدرهِ فلم يكد يعي شيئاً ممَّا سمعهُ ورآهُ . وعلمت دورا ما كان يشغل بالهُ فاجتهدت لكي تقوم مقامهُ في محادثة الخواجه لاڤي وزوجتهِ وابنتهِ حاسبة ان ذهاب اخيها الى الشرق الاقصى ينسيهِ ما رآهُ في مصر

والتقى امين بعزرا وغيرهِ من المشتغلين في البورصة وعلم منهم ان بورصة نيويورك اقفلت متحسنة بضع بنوط واشاروا كلهم بالمشترى لان الاسعار سترتفع حتماً لقلة المتأخرات ولاحتياج المعامل الى اكثر من الموجود والمنتظر وانهُ لا بدَّ من حدوث ما يسمى بمجاعة القطن فيبلغ ثمن القنطار خمسة وعشرين ريالاً او اكثر . فسمع هذا الكلام ولم يقل شيئاً لكن الكلام اثر في نفسهِ ولو لم يظهر اثرهُ حينئذٍ . ونظر الى استير جالسة الى جانب دورا وجعل يقابلها بها فقال انها اجمل من دورا وفضلاً عن ذلك فاننا مشتركان في الاذواق فاذا كان ابوها لا يبقى مصرًّا على تزويجها باحد ابناءِ عمها فهي خير قرين لي ولا عبرة بما قلتهُ لحليم بك

وعاد من الاوبرا الى البيت قبل انتهاء التمثيل لان كلام عزرا واغراقهُ عن ارتفاع القطن شغل بالهُ وبات يفكّر فيهِ وصمم على ان يسترد ما باعهُ او يشتري خمسين الف قنطار ولا يبقيها الا ريثما يرتفع السعر خمسة ريالات فيبيعها ولا يُطلع والديهِ على ما فعل الا بعد ان يتحقق الربح ويقبضهُ . ونام وهو يحلم بذلك ونهض في الصباح ولم يصدق ان صارت الساعة التاسعة حتى اسرع الى مكتب عزرا وطلب منهُ ان يشتري لهُ خمسين الف قنطار بالاحسن فقال لهُ عزرا اعطنا الاذن كتابةً وكتب حليم الاذن فامضاهُ امين وخرج وسار الى جهة أوتل شبرد ليوصي مرتبة الازهار بعمل طاقة جميلة يهديها

الى دورا حين سفرها ولم يكد يصل الى السبلنددبار حتى خطر لهُ انهُ اخطأ في كيفية الاذن الذي سلمهُ لعذرا لانهُ لا يقيدهُ بزمن المشترى ولا بزمن البيع وعزم ان يعود اليهِ ويقول لهُ ان يشتري هذا المقدار ما دام السعر دون ١٨ ريالاً وان يبيع كل ما اشتراهُ لهُ اذا هبطت الاسعار وبلغت خسارتهُ مقدار الربح الذي ربحهُ اولاً اي انهُ يخاطر بالربح الذي ربحهُ لا باكثر منهُ . وعاد نحو البورصة وهو يفكر في هذا الامر الى ان بلغ طريق الترامواي فسمع صوتاً كقبقاع الخنزير فالتفت الى جهتهِ واذا اوتومو بيل كبير آتٍ عن يمينهِ من الجهة الغربية فاسرع لكي يحيد من طريقهِ وسمع حينئذٍ صوت جرس الترامواي من الجهة الجنوبية فالتفت اليهِ وللحال عثرت رجلهُ بخطوط الحديد وسقط على وجههِ وعيناهُ تنظران الى مركبة الترامواي مقبلة اليهِ كأنها قلعة عظيمة مادت بها الارض وانفجر بركان وراءها فقذف بها في الهواء ورآها مسرعةً اليهِ حتى حجبت الارض والسماء من امام عينيهِ فايقن انها ستقع عليهِ وتطحنهُ طحناً وان لا مناص لهُ من ذلك لان رجليهِ شُلَّتا عن النهوض فافتكر في ابيهِ وامهِ واختهِ وما يحلُّ بهم من الحزن عليهِ فحاول مدّ يديهِ ليدفع تلك الداهية عنهُ ولم يكد يرفعهما عن الارض حتى أغمي عليهِ واطبقت الظلمة على عينيهِ

ووقف الناس على جانبي الطريق بعيون شاخصة وقلوب خافقة وقد قطعوا الرجاء من نجاتهِ الى ان مرَّت المركبة وهم وقوف لا يجسرون على الدنوّ منهُ واخيراً بادر اليهِ بعض السيَّاح الاجانب فتشجع غيرهم من الوطنيين واقتربوا منهُ ورفعوهُ عن الارض بكتف مخلوعة ورأس مهشَّم وعرفهُ بعضهم فرفعوهُ الى مركبة ليمضوا بهِ الى بيتهِ وحضر اثنان من رجال البوليس حينئذٍ وابيا ان يدعا المركبة تسير بهِ الاَّ بعد ان يكتبا محضر الحادثة ووقع الحجاج واللجاج بينهما وبين معارفهِ حتى كاد يفضي الى الشجار واخيراً اقبل فارس من فرسان البوليس وصرف الرجلين وسار مع المركبة

ولا تسل عمَّا حلَّ بأمهِ واختهِ لما رأتاهُ محمولاً على ايدي الرجال اصفر الوجه مغمض العينين مرتخي المفاصل كأنهُ جثة لا حياة فيهـا . اما امهُ فصرخت صرخة منكرة واغمي عليها واما اختهُ فاستندت الى الجدار وشخصت الى السماءِ ووقفت كالميت

لا تبدي حراكاً . واقبل الخدم وعلا صياح الجواري وشمل الاضطراب كل من في البيت ثم عادت بهية الى نفسها وكان الرجال قد القوهُ على مقعد في الدار وخرج بعضهم يدعون الاطباء

لما كان امين مطروحاً على الطريق امام مركبة الترامواي كان الخواجه لاڤي والمستر هنري ومهندس من كبار مهندسي الري يتذاكرون في مشترى الاطيان من الحكومة . و بسط المهندس خريطة كبيرة رسم فيها موقع الاطيان وكيفية وصول المياه اليها وما يشير بانشائهِ من الترع والمصارف فيها وتقدير النفقات اللازمة لذلك واشار هنري الى الحديث الذي جرى بينهُ و بين واصف بك فرفض المهندس رفضاً باتًّا ان يعمل برأيهِ وقال انهُ لا يكون من ورائهِ الاَّ الفشل التام لان الوطنيين لم يعتادوا تأليف الشركات وادارتها . وكان هنري يودُّ ان يختصر الحديث على قدر الامكان فقال اذن اترك الامر في يدك ويد المستر لاڤي وقد كتبت الى ابي ليكاتبكما في هذا الشأن ومع ذلك لا ارى ما يمنع اشتراك الوطنيين معنا لا سيما اذا كانوا مثل واصف بك من اهل المقدرة في المال والاختبار . وأجمع رأيهم على ان الخواجه لاڤي يدير الامر بحكمتهِ

واسرع هنري الى الاوتل وامر الخادم ان يمضي بامتعتهِ الى المحطة و يضعها في المركبة وركب مع اختهِ ليذهبا و يودعا بيت واصف بك قبل سفرهما ولما وصلا الى الباب الخارجي اعطيا بطاقة الزيارة الى البواب فمشى بين ايديهما مشيراً اليهما باتباعهِ فتبعاهُ حتى وصلا الى باب الدار فرأيا جمعاً غفيراً فيها وامامها ورأتهما بهية فبادرت اليهما وعيناها مغرورقتان بالدموع ووجنتاها تكادان تشتعلان من هول المصاب واشارت الى اخيها وهو ملقىً على المقعد والطبيب يعصب رأسهُ . ومال رأسها على عنقها حتى كادت تقع على الارض فاسرع هنري اليها وامسك بيديها وادنت اختهُ كرسياً منها فاجلسها ووقف ينظر تارةً اليها وتارةً الى اخيها ثم التفت الى جهة اخرى فرأى مدام واصف بك على مقعد والجواري يفركن يديها فبادرت دورا اليها وجعلت تفكُّ ازرارها وترك هنري بهيَّة تطفي لوعتها بدموعها ودنا من امين بك وسأل الطبيب عنهُ فقال الجرح

بالغ ولكن لا خوف منهُ وانما الخوف من ارتجاج الدماغ وكان في يده حنجر من الامونيا العطرية ينشقهُ اياه فرفق وفتح عينيهِ ونظر الى ما حولهُ متعجباً ولما وقعت عينهُ على هنري حاول مدَّ يديهِ اليهِ فلم يستطع فغمض عينيه وقال اين انا وعاد الى البحران . ووقف الطبيب حينئذٍ وقال لهنري الامر عرضيٌّ على ما يظهر . وافاقت مدام واصف بك حينئذٍ ومشت الى ابنها فالتقاها الخواجه هنري وقال لها انهُ فتح عينيهِ الآن وتكلم فشكرتهُ على ذلك وركعت امام ابنها ووقعت على عنقهِ تقبلهُ

وكان لا بدَّ لهنري ودورا من الذهاب لان ساعة السفر قد ازفت وانتبهت بهية الى ذلك فتجلدت ومدَّت لهما يديها وقالت كنا ننتظر ان نودعكما في المحطة ولكن امر الله فوق كل امر فقال لها هنري ان الطبيب يؤكد ان الامر عرضي ولو في طاقتي أن أؤخر هذا السفر أو أمنعهُ لفعلت ولكن امتعتنا في القطار ولم يبقَ الاَّ دقائق قليلة لسفرهِ . ثم ودَّعاها وودعا امها وخرجا

ولما وصلا الى المحطة رأيا واصف بك في انتظارهما هناك ليودعهما وعجب لان ابنهُ وابنتهُ لم يحضرا لوداعهما فقالا لهُ انهما مرَّا على بيتهِ وودعاهما ولم يذكرا لهُ شيئاً عن ابنهِ ولم يكادا يدخلان المركبة حتى صفر القطار وسار

الفصل الثاني عشر

مجلس النوَّاب الياباني

اجتمع الاعضاء كلهم ولم يتخلَّف منهم الاَّ ثلاثة او اربعة وهذا قليل ولو لم يكن نادراً . ولما استقرَّ بهم المقام افتتح الرئيس الجلسة وجرت اشغال عادية لم يطل البحث فيها ثم وقف وزير البحرية وطلب مصادقة المجلس على اقتراض مئة مليون ين (١٠ ملايين جنيه) من بنوك اوربا واميركا لتعزيز الاساطيل . فنهض احد الاعضاءِ من متطرفي المعارضين وهو مشهور بقوة المعارضة ومقاومة الوزارة الحاضرة واستأذن في الكلام وقال

لقد اوصانا فيلسوف من اكبر فلاسفة اوربا ان لم يكن اكبر فلاسفتها كلهم في هذا

العصر وفي كل العصور وهو الفيلسوف هر برت سبنسر (ولما لفظ اسم هر برت سبنسر نهض ثلاثة ارباع الاعضاء وقوفاً وحنوا رؤوسهم تجلَّة واكراماً لذلك الفيلسوف العظيم لانهم من تلامذتهِ فنظر المتكلم اليهم يميناً و يساراً وقال) ان وقوفكم ايها السادة وما ابديتموهُ من دلائل الاكرام لذلك الفيلسوف العظيم يشجعني على الاسهاب في اقتباس ما نصح لنا بهِ من القول الحكيم الذي كان مرشداً لنا في الماضي ويجب ان يبقى مرشداً لنا في الحال والمستقبل . قال الفيلسوف في نصيحتهِ التي كتب الينا بها انهُ يجب علينا ان نبعد الاوربيين والاميركيين عنا ولو قيد ذراع وان نبذل اقصى جهدنا في منعهم عن التمكن في بلادنا لانهم اقوى منا فيخشى علينا منهم واذا فتحنا بلادنا لهم ولاموالهم كان ذلك الضربة القاضية علينا لاننا اذا انلناهم موطىء قدم في بلادنا ومسنداً يستندون اليهِ تحوَّلوا الى الاعتداءِ علينا بمر الزمن

هذا ما اوصانا بهِ ذلك الفيلسوف المخلص في نصحهِ واي سبيل يمكننا ان نفتحهُ للاجانب علينا اوسع من ان نستدين منهم الاموال ونرهن عندهم بعض موارد بلادنا فان الارتهان يجرُّ الى المراقبة والمراقبة تجرُّ الى المشاكل كما قال لنا سبنسر في وصيتهِ والمشاكل تجرُّ الى السيطرة والاستعباد للاجانب . فيا ابناء نبون يا نسل الكماة البواسل اننا من حين رقي اسلاف امبراطورنا العظيم الى سدة الملك منذ اكثر من الفين وخمس مئة سنة ونحن عائشون احراراً لا سلطة لاجنبي علينا فهل يجوز في شرعكم ان نسلط الاجنبي علينا الآن . أنعيش في الحرية ونحن في العصور التي نحسبها مظلمة ثم نعيش في الاستعباد حينما نستنير . هل تبيح لكم وطنيتكم ذلك وانتم ابناء الحرية وابناء النور . كلاَّ يا سادتي لا تفتحوا سبيلاً للاجنبي علينا ولا تنيلوهُ موطىء قدم في بلادنا . ولذلك فانا اعترض على عقد قرض اوربي مهما كانت شروطهُ ومهما كان الداعي اليهِ

ثم اذا كان المراد من هذا القرض ان نستعين بهِ على محاربة دولة اوربية كما تدلُّ الدلائل فيكون الامر ادعى الى اجتنابهِ لان نجاحنا في الحرب مع الصين وكوريا ليس فيهِ اقلُّ دليل على اننا ننجح في محاربة دولة اوربية لان قدم الاوربيين ارسخ من قدمنا في اساليب العمران الحديث وهم اقدر منا على العمل بها لانهم مارسوها

وتمدَّنوا عليها منذ قرون كثيرة ثم انهم متحالفون بعضهم مع بعض وتجمعهم جامعة الدين ولهم كلهم مصلحة واحدة في الممالك الشرقية فاذا حاربنا دولة من دولهم وانتصرت علينا ارهقتنا ذلاً وغرامة واذا انتصرنا عليها لم نجن منها شيئاً . ولنا عبرةٌ بما جرى معنا لما اردنا ان نجني ثمرة فوزنا على الصين فان ثلاثاً من اقوى الدول الاوربية تصدَّين لنا وواحدة منهنَّ لم تكذّب ان خطفت الثمرة من يدنا والتقمتها غنيمة باردة ونحن ناظرون اليها لا نستطيع ان نبدي حراكاً . فاذا كان الغرض الاستعانة على محاربة دولة اوربية فهو الخراب العاجل والوباء الجارف فيجب علينا منعهُ بكل واسطة ممكنة

فقال لهُ بعض الاعضاء احسنت احسنت وقال غيرهم لم تحسن ولم تصب

ولما جلس نهض وزير البحرية وقال لا اعتراض عندي على شيء مما نقلهُ العضو الكريم من وصيَّة الفيلسوف هربرت سبنسر فانها صحيحة يجب العمل بها في الاحوال التي فرضها ولكن سبنسر اوجب علينا الابتعاد عن الاجانب وابعادهم ما دمنا اضعف منهم وحجتهُ في ذلك واضحة وقولهُ موَيَّد لا غبار عليهِ اما الآن فلم نعد ضعفاء كما كنا منذ اثنتي عشرة سنة لما كتب سبنسر وصيتهُ بل قد تقدمنا في هذه السنوات تقدُّماً ادهش اوربا واميركا حتى ان اعظم الدول البحرية خطبت ودنا وحالفتنا

ولو صحَّت وصية سبنسر في حالتي القوة والضعف على حدٍّ سوى لوجب ان تبقى كل دولة مستقلة بنفسها معتزلة عن غيرها من الدول ولامتنع كل اختلاط وتقوضت دعائم الالفة وهذا لم يردهُ سبنسر على الاطلاق وانما حضنا على الاعتزال ما دمنا ضعفاء اما وقد قوينا الآن وحاربت جنودنا كتفاً لكتف مع الجنود الاوربية وبرهنت على انها مثلهم نظاماً وشجاعة كما شهدوا لها وانتظمت امورنا الداخلية تمام الانتظام فلم يبقَ لنا عذر عن مجاراة غيرنا من الامم . ثم ان كنا نخاف الحرب حقيقة فيجب ان نستعد لها لان الاستعداد لها امنع لحدوثها واذا لم نستعد طمع فينا الطامعون واضطرونا الى الحرب او الى الذل والصغار . أو يليق بهمتنا وعزَّة نفوسنا ان توخذ غنيمتنا من ايدينا ونحن صاغرون هل يليق بنا ان تضيق بلادنا علينا والارض واسعة حولنا ونمنع عن السكن فيها والاشتراك في خيراتها واهالي اوربا واميركا يأتونها ويسكنونها

من غير معارض . والى اين نرسل ابناءنا الذين ضاقت بهم جزرنا ان لم نرسلهم الى البلاد المجاورة والى اين ترسل بضائعنا اذا لم نحمها بمعاهدات وثيقة تكفل الربح لصنّاعنا . ولا اقول ذلك معارضة لحضرة العضو الذي سبقني في الكلام بل اظهاراً للحقيقة وتحذيراً من خطإٍ يجب ان لا نقع فيهِ . فوصية الفيلسوف هربرت سبنسر كانت تصدق علينا منذ عشر سنوات او اكثر واما الآن فلا تصدق علينا. والاستعداد للحرب لا يوقع الحرب ولا يقربها بل يبعدها ما امكن . وانا لست اقلّ من احد منكم كراهةً للحرب ولكن كراهتي لها هي التي توجب عليَّ بذل الجهد في اتقائها. واتقاؤها على هذه الصورة هو الخطة المشروعة التي تجري عليها الدول الاوربية . اما اقتراض المال من اوربا برِبًى معتدل فلا ضرر منهُ علينا لان اكثر الاموال التي نقترضها تنفق في بلادنا وتوزَّع فيها فكأنها اموال تقترضها الحكومة وتعطيها للاهالي برباً معتدل لا يستطيعون الاقتراض بهِ هم . وصفوة المقال ان القرض ضروري ولا ضرر منهُ على الاطلاق بل منهُ نفع كبير لنا ولذلك ارجو الاقتراع على طلبي والمصادقة عليهِ

فنهض واحد من حزب اليسار وافاض في مناقضة وزير البحرية و بالغ في مضار الحرب ونفي ان نفعها لا يعود عليهم . وخالفهُ واحد من حزب اليمين ودام الجدال اكثر من ساعتين واخيراً اقترع على طلب وزير البحرية فوافق عليهِ مئتان وعشرون وخالفهم مئة واربعون فقبل بالاكثرية

ثم عرضت لوائح مختلفة فوافق المجلس على بعضها واجّل البحث في البعض الآخر .

وفي الصباح اجتمع الوزراء عند رئيسهم الكونت كتسورا تارو فقال البارون اراسوكي وزير المالية لا اظن ان مجلس الاعيان يتوقف عن المصادقة على القرض . والكلام بيننا اننا شرعنا في استعمال القرض من الآن ثم التفت الى الاميرال البارون ياماموتو غمبي وقال لهُ أليس الامر كذلك . فقال نعم وللضرورة احكام فاننا لم نرَ لنا بدًّا من مشترى الطرَّادين المدرعين من حكومة الارجنتين والاَّ اشترتهما روسيا وقد اشارت علينا حليفتنا انكلترا ان لا نتأخر عن مشتراهما لحظة وقام بعض اصدقائنا في انكلترا وجمعوا ثمنهما وارسلوهُ مع مندوب خاص الى جنوى على ان يستوفوهُ من القرض اذا

وافق مجلس نوابنا عليهِ والاَّ فيبقى ديناً خاصّاً الى ان ندبر امرهُ وقد جاءني بالتلغراف اول امس ان البيع تمَّ وعقد العقد ودفع الثمن

فقال الدكتور يدغورو وزير المعارف اظن اننا تسرَّعنا في مشترى الطرَّادين ويبلغني ان الثمن الذي دفعناهُ فاحش جدًّا ولا تنسوا ان المليون جنيه الذي ندفعهُ ثمن بارجة يماثل عشرة ملايين جنيه تدفعها انكلترا او فرنسا لان النقود رخيصة عندهم وغالية عندنا فالمليون جنيه تساوي اجرة مليوني عامل عندهم وتساوي اجرة عشرين مليون عامل عندنا ولا يحسن بنا ان نحمل انفسنا فوق طاقتها لاجل حرب لا يعلم ماذا تكون نتيجتها

فقال الكونت تارو رئيس المجلس ان الامر ليس في يدنا ولا نحن مخيرين فيهِ حتى نختار فان روسيا لا تزال تماطل وتحاول لكي تغتنم الوقت وتزيد تحصين ثغورها وتعبئة الجنود وارسالهم الى منشوريا فان لم نبادر ونضربها الضربة القاضية الآن تعذَّرت علينا مقاومتها في المستقبل

ثم تلا عليهم خطاباً مسهباً وارداً من السفير وجلسوا يكتبون المقترحات الاخيرة ليعرضوها على روسيا مصممين على ان لايتنازلوا عن حرف منها ولما اتموا كتابتها طلبوا التشرُّف بمقابلة الامبراطور ليعرضوها عليهِ فقابلهم وناقشهم في كل بند من بنودها ثم بيضوا المسودَّة الاخيرة وارسلوها بالتلغراف الى سفيرهم في لندن وهو ارسلها في ذلك اليوم عينهِ مع رسول خاص الى بطرس برج

الفصل الثالث عشر

القرض الياباني

في غرفة فاخرة الاثاث والرياش في قصر من قصور لندن ام المدائن ثلاثة رجال جلوس حول مائدة وامام احدهم آلة التلغراف يخاطب بها احد الماليين في اميركا وامام آخر آلة التلفون يخاطب بها ابن عمهِ في باريس والثالث اكبرهم وهو لورد بنشيلد فقال قد حان لنا ان ننتقم لاخواننا الذين قتلوا ظلماً وعدواناً وان نستفيد في الوقت نفسهِ

اكبر فائدة مالية يمكن ان تجنى في هذا الزمن وقد جاءني السر ادورد برون امس مندوباً من قبل نادي الصحافة واطلعني على محررات مكاتبيهم في الشرق الاقصى وفي بطرس برج وموسكو ويتضح منها ان استعداد اليابان اتم من استعداد الروس من كل وجه وانهُ اذا نشبت الحرب بينهما فالفوز لليابان الاّ اذا حدثت امور اتفاقية ليست في حساب احد . والظاهر ان لجنة نادي الصحافة كفلت اصدار القرض لليابان وقد دفعت عنها ثمن مدرعتين بنيتا في جنوى لحكومة الارجنتين وجاءني السر ادورد برون من قبلها يرجو ان آخذ بيده. ومضى على سفير اليابان اسبوعان وهو يذاكرني في هذا الموضوع

فقال الثاني وما هو الضمان الذي تقدمهُ لنا اليابان او ما هو الرهن الذي ترهنهُ لنا

فقال لورد بنشيلد ان دخل الجمارك في اليابان مليون وستمئة الف جنيه حسب تقدير الميزانية هذه السنة وهو ليس مرهوناً فيصلح ان يكون رهناً لعشرة ملايين جنيه بل لعشرين مليوناً ولذلك لا ارى بأساً في اقراضها المبلغ المطلوب

فقال الثاني وكم تكون فائدة هذا القرض

فقال اللورد بنشيلد طلبنا منها ستة في المئة والمرجح انها تقبل ما طلبناهُ اذا اصررنا عليهِ وقد بذل سفيرها جهدهُ ليجعل الفائدة خمسة فقط فأبنت لهُ ان ذلك ضرب من المحال في الاحوال الحاضرة

فقال الثاني . وبكم يصدر القرض

فقال لورد بنشيلد — اراد السفير ان يصدرهُ بسبعة وتسعين ونزل الى خمسة وتسعين في المئة فابيت الاّ ان نصدرهُ بتسعين في المئة واخيراً اتفقنا على اصداره بثلاثة وتسعين في المئة اذا وافقتموني على ذلك فتصير الفائدة نحو ستة ونصف في المئة سنوياً مضمونة بدخل الجمرك

فضحك الثاني وقال بارك الله في الحروب لولاها ما كان يمكن ان تصح النبوءة القائلة اننا نرجع بثروة الامم

فقال الثالث ولكن كتب اليَّ ثقة من بطرس برج ان الروس لا يمكن ان يرجعوا

بالفشل ولا بدَّ لهم من قهر اليابان واذلالها مهما اقتضت الحرب من الرجال والاموال

لورد بنشيلد — قد يكون ذلك وقد لا يكون ولكن هب ان روسيا امتلكت اليابان وهو امر بعيد الوقوع جداً فان حقوقنا على الجمارك اليابانية تبقى محفوظة لنا لا تمس

الثاني — هل تقرَّر امر الحرب

لورد بنشيلد — كلاَّ لم يتقرر حتى الآن ولكن الذين يؤخذ بقولهم يقولون انهُ لا بدَّ منها والظاهر ان اليابان ستضرب الضربة الاولى اذا لم تجبها روسيا الى كل مطالبها من غير تعديل ولا تحوير واذا اجابتها اليها فيكون الفوز لليابان اعظم مما لو فازت في الحرب لانها تصير المتصرفة المطلقة في كوريا وفي منشوريا ايضاً وهذا لا ترضى بهِ روسيا بوجه من الوجوه

الثالث — الى كم تحتاج اليابان بعد ذلك لو نشبت الحرب

لورد بنشيلد — اليابانيون على غاية الاقتصاد في ما ينفقونهُ من بلادهم ولا يضطرون الى الانفاق الكثير الاَّ على ما يبتاعونهُ من اوربا واميركا كالبوارج والمدافع ولكن لا يبعد ان لا يحتاجوا الى عشرين مليون جنيه اخرى قبل انتهاءِ الحرب وهب انهم احتاجوا اليها فعندهم مكوس الاشربة الروحية تبلغ ستة ملايين وستمئة الف جنيه فتزيد على ربا الدين ولو بلغ مئة مليون جنيه وليس عليهم الآن دين لاجنبي سوى عشرة ملايين من الجنيهات رباها اربعة في المئة فقط

الثالث — وقعت في ما كانت تحذر الوقوع فيهِ ولا ادري لمن الفضل في ذلك

لورد بنشيلد — الارتهان يجرُّ الى المراقبة والمراقبة لا تضرُّها بل تنفعها كما نفعت غيرها . هذه مصر نجحت تحت المراقبة نجاحاً لم يحلم بهِ اهلها ولا حلمنا بهِ نحن

الثاني — ولكن شتان بين مصر واليابان ومع ذلك فنحن لا يهمنا من امر الامم الا ان تكون اموالنا مضمونة وان يدفع رباها في مواعيدهِ فان صحَّ ما قلت عن دخل جماركها فلا مانع من اقراضها عشرة ملايين من الجنيهات بفائدة ستة في المئة

الثالث — متى يصدر هذا القرض

لورد بنشيلد — لا يمكننا اصدارهُ الاَّ بعد ان تضرب اليابان الضربة الاولى

ويظهر الفوز لها او تنتصر في معركة كبيرة . على هذا الشرط تم الاتفاق مع السفير

فاتفق الثلاثة على رأي واحد وخاطب صاحب التلغراف شركاءهم في نيويورك وصاحب التلفون شركاءهم في باريس وڤينا وبرلين وذلك بسلك خاص للتلغراف وسلك خاص للتلفون وفي اقل من ساعة جاء منهم الجواب بالايجاب وامضي الامر وكتب الكاتب قرارهم وسار بهِ الى سفير اليابان

الفصل الرابع عشر

مظهر الحب

جلس الخواجه لاڤي في مكتبهِ وهو غرفة تطلُّ على شارع المناخ من جهتهِ الشمالية تدخلها شمس الشتاءِ من كوة جنوبية كبيرة والغرفة فسيحة جداً فيها مائدة كبيرة امام الخواجه لاڤي ومقعدان وكراسي ملبسة كلها بالجلد المراكشي البني اللون وفي ارضها سجادة عجمية تغطيها كلها وعلى احد جدرانها خرائط للعاصمة وضواحيها وما فيها من الاراضي البراح المعدة للبناءِ والى يمين هذه الغرفة غرفة للانتظار يجلس فيهـا الذين يطلبون مقابلتهُ الى ان يأذن لهم في ذلك والى يسارها غرف الكتَّاب

وكان في غرفة الانتظار رجل من كبار العمد بالعمَّة والقفطان والجبَّة وفي يدهِ عصاً مقبضها من الذهب وهو العلامة الوحيدة الدالة على غناهُ لا سلسلة ذهب على صدرهِ ولاخاتم ماس في يدهِ وانما فيها دبلة سادجة من الفضة . وهو كهل يناهز الخمسين لكنهُ زوَّج اولادهُ وكان يزوج اولادهم ولم يكد يستقرُّ بهِ الجلوس حتى دخل احد الكتاب ورحَّب بهِ وقدم اليهِ سيجارة وامر الخادم بتقديم القهوة وجعل يسألهُ عن احوال الاطيان والزراعة ويبالغ في تكريمهِ وتبجيلهِ وبعد حديث دام نصف ساعة دخل غرفة الخواجه لاڤي وقال لهُ ان علي بك أتى الآن طالباً عشرة آلاف جنيه ويرهن عندنا مئتي فدان يقول ان الفدان منها يساوي مئة وخمسين جنيهاً

الخواجه لاڤي — الفدان يساوي مئة وخمسين جنيهاً ؟ اين هذه الاطيان

الكاتب — في الغربية في مركز قلين

الخواجه لاڤي — بخ بخ وكم يساوي الفدان من الاطيان التي اشتراها منا يا ترى

الكاتب — يقول انهُ لا يبيعهُ بمئة وعشرين جنيهاً وقد عُرض عليهِ مئة جنيه في الفدان فلم يرد ان يسمع

الخواجه لاڤي — اشترى منا تسع مئة وخمسين فداناً منذ سنتين لا غير دفع ثمن الفدان منها اثنين وسبعين جنيهاً فاذا باعهُ بمئة جنيه فقط يكون ربحهُ ثمانية وعشرين جنيهاً في كل فدان فكم يكون ربحهُ من الاطيان كلها

ثم اخذ القلم وجعل يخط على القرطاس وقال يكون ربحهُ من الاطيان التي اشتراها منا ستة وعشرين الفاً وستمئة جنيه. كنا نقول ان الفلاح مجنون فاذا هو العاقل ونحن المجانين

ثم وقف وجعل يمشي في الغرفة ذهاباً واياباً ويضرب رأسهُ بيدهِ ويقول هو العاقل ونحن المجانين . ولا يبعد ان يبيعها بمئة وعشرين جنيهاً فكم يصير ربحهُ منها . فقال الكاتب خمسة واربعين الفاً وستمئة جنيه . فقال الخواجه لاڤي كم كم خمسة واربعين الفاً وستمئة جنيه . خمسة واربعين الفاً في سنتين انظر مَن منَّا المجنون . ثم وقف امام الشباك وجعل ينظر منهُ الى المركبات السائرة في الشارع تباعاً سراعاً ذهاباً واياباً وعيناهُ تريانها وافكارهُ شاردة تجمع الجنيهات الفاً فوق الف وتتصوَّر الفلاحين اصحاب العمائم يتمتعون بالغنى الوافر ويركبون المركبات الفاخرة تجرها الخيول المطهمة . ثم التفت الى الكاتب وقال لهُ لماذا يطلب عشرة آلاف جنيه الآن

فقال ان احد جيرانهِ عندهُ خمسون فداناً ملاصقة لاطيانهِ وقد اوصلها ابن اخيهِ الى عشرة آلاف جنيه اي الفدان بمئتي جنيه فاضطرَّ ان يطلبها بالشفعة نكاية بابن اخيهِ ولا بدَّ من دفع الثمن فوراً

الخواجه لاڤي — خمسون فداناً — الفدان بمئتي جنيه . من سمع ان الفدان بمئتي جنيه الفدان الذي كان يعرَض على الفلاحين بعشرة جنيهات وبخمسة صار يباع بمئتي جنيه . لا يمكن ان تدوم الحال على هذا المنوال ولا بدَّ من « كريزه » فتعود الاسعار وتهبط . ولكن ما دام ثمن القطن على ما هو عليهِ فهبوط الاسعار ضرب من المحال . اظن انهُ اوفى القسط كلهُ في آخر السنة

الكاتب — اوفاهُ قبل الميعاد بعشرة ايام سلمنا بهِ قطناً وزاد لهُ عندنا اكثر من الفي جنيه

الخواجه لاقي — وكم الفائدة التي اتفقتم عليها

الكاتب — طلبت منهُ الفائدة القانونية تسعة في المئة فاستغلاها وقال انهُ يدفع سبعة ثم طلع الى ثمانية فقلت لهُ ان الامر ليس في يدي بل في يد جنابك

الخواجه لاقي — طيب قل لهُ يدخل

فخرج الكاتب ثم عاد بعلي بك والتقاهُ الخواجه لاقي الى وسط الغرفة واجلسهُ عن يمينهِ وقدم لهُ علبة السكاير وطاب لهُ القهوة وهو يقول اهلاً وسهلاً بعلي بك ثم سألهُ عن اولادهِ وعن المدير ومهندس الري وقال اخبرني فيتا انك طالب عشرة آلاف جنيه البنك كلهُ على حسابك برهن او بغير رهن

فشكرهُ علي بك على ذلك وقال انهُ لا يريد ان يفعل الاَّ الامر القانوني . ثم عرض ان يأخذ العشرة آلاف جنيه بربا ثمانية في المئة سنوي ويقسطها اقساطاً متساوية على خمس سنوات ويرهن المئتي فدان ويدفع كل المصاريف القانونية

فرضي الخواجه لاقي بذلك وامر الكاتب ان يخبر الافوكاتو ليكتب الرهنية وسمح لعلي بك ان يستلم المبلغ المطلوب حالاً قبل كتابة الرهن ولم يكد يتم كلامهُ حتى دخل الفرَّاش وقال ستي استير تحت في العربية تنتظر حضرتك لتذهبوا وتودعوا الخواجه برون

ففتح ساعتهُ وقال نعم نعم لم يبقَ الاَّ ربع ساعة ثم قام واعتذر الى علي بك واخذ عصاهُ ونزل وكانت السيدة استير في مركبة فاخرة يجرها جوادان ادهمان من الخيل الروسية وسائقها باللباس الاسود والبرنيطة العالية والى جانبهِ خادم بثياب مقصبة فنزل وفتح باب المركبة ولم يكد الخواجه لاقي يجلس الى جانب ابنتهِ حتى دنا منهُ عزرا السمسار وقال لهُ بلغني الآن ان مركبة الترامواي صدمت امين بك بن واصف بك وقتلتهُ فان احد خدمة محلنا كان آتياً من جهة السبلندبار ورآهُ بعينهِ وقع امام الترامواي وقد رفعوهُ ميتاً مهشماً ووضعوهُ في مركبة وساروا مسكين هذا الشاب فاني متأسف عليهِ جدًّا . ثم التفت الى استير لكي يظهر لها كرم اخلاقهِ في اسفهِ عليهِ فرآها

شاخصة لا تتكلم كأنها لم تعِ شيئاً مما قاله وقد امتقع لونها حتى زال احمرار شفتيها ولم تصدق ان قال ابوها للسائق «بيت واصف بك خذنا الى بيت واصف بك سوق حالاً» حتى تنفست الصعداء

وضرب السائق الجوادين بسوطهِ فسارا ينهبان الارض نهباً ولم تكن الاّ دقائق قليلة حتى قطعت المركبة شارع الفجالة ووصلت الى شارع الظاهر الى بيت واصف بك . وخطر للخواجه لاڤي حينئذٍ ان يترك استير في المركبة او ان يقول لها لتذهب الى البيت اما هي فنزلت من المركبة قبلهُ ونظرت اليهِ نظر المتوسل كأنها تقول لهُ دعني ادخل ايضاً . فقال لها هل يناسب دخولكِ انتِ فقالت ولماذا لا يناسب ان ارى بهية وامها واعزيهما . وارتجفت شفتاها وهطلت الدموع من عينيها فرقَّ لها حتى كادت الدموع تذرف من عينيهِ وادخلها معهُ . ولحتهما بهية داخلين فقامت للقائهما ولما دنت من استير خنقتها العبرات وارتمت عليها وامتزجت دموعها بدموعها واعتنق الاثنتان ووقف الخواجه لاڤي هنيهة ينظر اليهما ثم تركهما تبرّدان لوعتهما ومشى احد الخدم امامهُ الى الغرفة التي نقل اليها امين بك فرآهُ ملقىً على سريرهِ وامهُ راكعة بجانب السرير لا تعي على شيء . فدمعت عيناهُ ووقف لا يبدي حراكاً . وبعد هنيهة فتح امين بك عينيهِ ورآهُ فحاول التبسم لهُ واشار اليهِ ليجلس فعلم الخواجه لاڤي انهُ لا يزال في قيد الحياة ولكنهُ لم يعلم حقيقة ما اصابهُ ولا درجة الخطر الذي هو فيهِ ودخل الطبيب حينئذٍ فسلَّم واراد الخواجه لاڤي ان يسألهُ عن حالهِ فاومأ اليهِ ان لا يفعل . ثم جسَّ نبضهُ ونظر في عينيهِ وخرج فتبعهُ الخواجه لاڤي

لما سار القطار من محطة مصر بالمستر برون واختهِ عاد واصف بك مستغرباً عدم حضور ابنهِ وابنتهِ لوداعهما وكذلك عدم حضور الخواجه لاڤي وزوجتهِ وابنتهِ على غير عادتهما . وركب مركبتهُ وهو يفكّر في امر ابنتهِ فان زوجتهُ كانت قد اخبرتهُ بما رأتهُ منها وسمعتهُ من حين التقت بالمستر برون وكيف صارت قليلة الكلام كثيرة التفكير وقد سألتها عن شأنها معهُ فاخبرتها بكل ما قالهُ لها ولم تخفِ عنها شيئاً . وتحدَّث واصف بك

مع زوجتهِ في هذا الموضوع وكان يرى ان العادات القومية تحول دون اقترانها بهِ لانهُ لم يسبق لقبطية ان تزوجت انكليزيًّا . وخاف ان يكون ما بدا منهُ شعوراً وقتيًّا يزول سريعاً اما زوجتهُ فكانت تقول انهُ ليس كذلك بل هو يحب ابنتها من كل جوارحهِ وقد خرج من مصر غصباً عنهُ ولو لم يكن الانكليز متر بين على تفضيل الواجبات على كل شيء لترك السفر الى الشرق الاقصى وبقي في مصر وبهية تحبهُ ايضاً ولو لم تجاهر بذلك . هذه الامور جالت في بالهِ فزاد استغراباً من عدم مجيء زوجتهِ وابنتهِ الى المحطة . ثم قال لعل بهية خافت ان يبدو منها شيء وقت الوداع ففضَّلت البقاء في البيت ولقد اصابت في ذلك وهي مُصيبة في كل اعمالها و ياليت اخاها مثلها لكنهُ متهوّر لايقف عند حد وهو على لين عريكتهِ وطيب قلبهِ سهل الانخداع ولايقدّر العواقب. وعاد الى البيت فرأى مركبة الخواجه لاقي امام الباب ومركبة اخرى ظنها لجراح مشهور فزاد استغرابهُ وقلق بالهُ حتى اذا نزل من المركبة شعر كأن رجليهِ عجزتا عن حملهِ ودخل الدار فرأى بهية واستير على مقعد واحد متعانقتين تبكيان معاً فظن اولاً انهما تبكيان لفراق اخت المستر برون واتفق حينئذٍ خروج الطبيب والخواجه لاقي من غرفة ابنهِ فدنا الطبيب منهُ وقال لا شيء يوجب انشغال البال وقصَّ عليهِ ما جرى بالايجاز فلم يفهم شيئاً ودخل غرفة ابنهِ ولما دنا منهُ حاولت زوجتهُ ان تكفكف دموعها فلم تستطع فانحنى وقبَّل جبين ابنهِ ثم خرج وجلس مع الطبيب واستعادهُ القصة بالتدقيق وسألهُ عمَّا فعل ودخل حينئذٍ الطبيب الاول الذي شاهد امين بك اولاً وكان قد ذهب واتى بكيس لوضع الثلج وجلس الطبيبان يتداولان وقال لهما واصف بك احضرا كل من تريدان من الاطباء فقال لهُ الجراح لا داعي الآن لحضور احد . و بعد مداولة استغرقت عشر دقائق اتفقا على طريقة العلاج وقالا لواصف بك ان الحالة لا تخلو من الخطر ولا يمكن البت فيها قبل الغد . فاوصاهما ان لا يذكرا شيئاً امام زوجتهِ وابنتهِ . وجلس يفكّر في ما تؤول اليهِ حالهُ بعد ابنهِ وهو وحيدهُ ورجاؤهُ في الحياة فاظلمت الدنيا في عينيهِ وجعل يلوم ابنهُ على طيشهِ ويلوم نفسهُ لانهُ لم يحسن تربيتهُ حتى يكون شديد الحذر . ثم راجع ما قالهُ لهُ الجرَّاح فايقن انهُ خفَّف عليهِ الامر

وان الاطباء عاجزون عن انقاذ ابنهِ من مخالب الموت فارتجفت شفتاهُ ودمعت عيناهُ وسلَّم امرهُ لله

وحضر حينئذٍ مأمور من قبل المحافظة وكتب احوال الحادثة وامضاها

الفصل الخامس عشر

باب الامل

لم تكد المركبة تجري بالخواجه لاڤي وابنتهِ حتى جعل عزرا يناجي نفسهُ ويقول قد جاء الامر طبق المرام ولو بقيت سنة كاملة ادبر الحيل والتدابير حتى اخلّص استير من هذا الشاب واكسب امواله ُ ما عثرت على طريقة احسن من هذه . ولكن لابدَّ لي من ان أؤخر اعلام ابيهِ بذلك حتى تزيد خسارتهُ وقد بلغ النزول الآن ريالاً كاملاً واذا استمرت الاسعار على هذا النزول فلاعجب اذا بلغ النزول ريالين او ثلاثة ولكن ما الحيلة حتى يصلهُ العلم ولا يلتفت اليهِ . الاحسن ان ارسل الفاتورة اليهِ واعمل طريقة حتى لا يفتحها الاَّ بعد يومين او ثلاثة . ثم خطر على بالهِ ان يستعين بزين الدار فناداها واخبرها ان امين بك قُتل قتلتهُ الكمبانية وان مرادهُ ان يرسل جواباً الى واصف بك ولكنهُ لا يريد ان يطَّلع عليهِ الآن لحزنهِ على ابنهِ وطلب منها ان تجد لهُ طريقة حتى لا يستلمهُ الاَّ بعد يوم او يومين . ولما سمعت ان امين بك قُتل وقفت مبهوتة ثم جلعت الدموع تهطل من عينيها وهي تقول مسكين امين باي مسكينة امهُ واختهُ كيف قتل وشرعت تبكي . فانتهرها وقال لها ان كان لا بدَّ من البكاءِ فلا يمكنها ان تعمل لهُ العمل الذي طلبهُ منها . فقالت لهُ ماذا تريد ان اعمل فقال اذهبي الآن الى بيت واصف بك ومتى رأيتِ الخادم داود داخلاً بالجواب فقولي لاحد الخدم ان يستلمهُ منهُ ولا يسلمهُ لواصف بك اليوم . فوعدتهُ انها تفعل ذلك وخرجت . اما هو فنادى حاييم وقال لهُ هل وضعت التاريخ على الاذن فقال كلاَّ فقال ضع عليهِ تاريخ امس اذاً وكم المقدار فقال خمسون الف قنطار فقال ألا يمكن ان تجعلها مئة وخمسين الف قنطار ارني الاذن ضع واحداً وراء الخمسة انتهى المشكل مئة وخمسون الف قنطار

والاذن الاول عشرة آلاف فصار الاذنان مئة وستين الف قنطار بثمانية عشر ريالاً والسعر الآن كم . فقال حاييم سبعة عشر ريالاً فقال صار الفرق ريالاً اي اثنين وثلاثين الف جنيه عدا السمسرة وبلغ ربحنا منهُ اولاً ستة عشر الف جنيه فصار الربح كله ثمانية وار بعين الف جنيه مصري ما عدا السمسرة اكتب الفاتورة حالاً وارسلها مع داود الى بيت واصف بك

ثم جعل يفكّر في استير ويقول في نفسهِ لا بدَّ من انها كانت تحب امين بك فقد احمرَّ وجهها اولاً ثم اصفرَّ لما اخبرتها واخبرت اباها انهُ قتل ونظرت اليَّ شزراً ولكن الله كريم لا بدَّ من ان تنساهُ ويجب عليَّ ان اظهر امامها بمظهر كرم الاخلاق والحزن عليهِ والاحسن ان اوصي على اكليل كبير يوضع على نعشهِ . اكليل بخمسة جنيهات صار ربحنامنهُ نحوخمسين الف جنيه فلا نبخل عليهِ بخمسة جنيهات ونستجلب رضاها ومحبتها . اما الخواجه لاڤي فلا اظن انهُ يمانع في اقتراني بها ولا سيما اذا عرف مقدار ربحي هذه السنة . وتبقى مسألة حليم بك ابن راغب باشا فقد قالت قدم خير جارية بيت لاڤي انها سمعت الشيخ احمد يطنب بمدحهِ امام استير وابيها . ما قصد هذا الرجل يا ترى . لو مدحهُ امام الخواجه لاڤي فقط لقلنا ان مرادهُ عقد سلفة او بيع بعض الاطيان ولكن ما مرادهُ من مدحهِ امام استير . لا نخلص من مشكل حتى نقع في آخر ولكن الله كريم من لا يأتي بالقوة يأتي بالحيلة

بمثل هذه الافكار كان يناجي نفسهُ حينما عاد يهودا من البورصة وقال لهُ ان قطن يناير وقف على ١٧ ريالاً فاستبشر خيراً وادخل حساب امين بك مع حساب اليوم الماضي وكان قد تركهُ مفتوحاً لغاية مثل هذه ثم خطر على بالهِ زين الدار وبكاؤها على امين بك فقال ان هذه الجارية السوداء ارق قلباً مني . لكنهُ طرد هذا الفكر من بالهِ حالاً قائلاً الدنيا حرب الذي يأخذ استير من امامي آخذ روحهُ وصمَّ اذنيهِ عن توبيخ ضميرهِ

الفصل السادس عشر

لوعة الوداع

دورا — ما بالك يا هنري صامت لا تتكلم

هنري — ماذا أتكلَّم أنظري هذه البلاد كم طوت من الامم الغابرين وهي على حالها من عهد الفراعنة الاولين فلاَّحها يعيش بالجد والكدح وغنيها يتمتع بجنى فقيرها ثم يدرج الكل تحت التراب

فالتفتت من كوة القطار ورأت المروج وقد كساها البرسيم ثوباً من الزمرُّد وقالت ترى ما يكون حال أمين بك الآن

هنري — اذاً انتِ تفكرين فيهم اما انا فاني باذل جهدي لكي انسى ما مضى فلا استطيع ويخطر ببالي احياناً ان اعود من السويس ولكن السفينة تقوم صباح الاثنين ولا تقوم سفينة بعدها الى اليابان توًّا الا بعد اسبوعين ومهمتي تقضي عليَّ بالذهاب في هذه السفينة وقد ضاقت بي الحيل ولا اعلم كيف اعمل . ايجوز ان اضحّي عواطفي كلها لاجل عمل لا ينالني منهُ ربح مادي ولا ادبي لماذا نذهب الى بلاد اليابان ؟ لخدمة الماليين لكي تكثر اموالهم اما جمهور الاهالي الفلاحين والمعدّنين والصنّاع وهم التسعة الاعشار فلا يستفيدون شيئاً . والماليون ايضاً لا يستفيدون لان زيادة المال لا تزيد الراحة بل تزيد التعب . هذا لورد بنشيلد تقدَّر ثروتهُ باكثر من ثلاثين مليوناً من الجنيهات ودخلهُ اليومي باكثر من ثلاثة آلاف جنيه وقد سمعتُ منهُ ان ما ينفقهُ على نفسهِ من مأكل ومشرب وملبس لا يزيد على ثلاثة جنيهات في اليوم يأكل في الصباح بيضةً ويشرب كاساً من اللبن والقهوة ويأكل الظهر قطعة من السمك وقطعةً من اللحم وقليلاً من الخبز والخضر والفاكهة ونحو ذلك في المساءِ وان زاد بلي بالتخمة ويلبس مثل ابسط الناس وما هو الاّ وكيل على أموالهِ يهتم نهاراً وليلاً بتشغيلها وتثميرها فلو بلغنا مبلغهُ من الثروة لزدنا طمعاً وتعباً . أنظري كيف نحن الآن مسخَّران لغيرنا . كيف دست قلبي وعواطفي وخرجت من بيت واصف بك وابنهُ على فراش الموت ولا امل ان اراهُ بعد

الآن وبهية تبكي وتنوح ويكاد قلبها ينفطر حزناً عليه . تصوري نفسكِ مكانها وأن مركبة الترامواي داستني فقتلتني أو كادت ولكِ حبيب او صديق ولا بدَّ لهُ من ان يتركك في تلك الساعة تصوري نفسكي مكانها

فاغرورقت عينا دورا بالدموع وقالت لهُ اني اعرف ما يختلج فؤادك وأؤكد لك يا هنري اني احب هذه الفتاة كما تحبها انت واني آسفة جداً لفراقها على هذه الصورة ويكاد قلبي ينفطر عليها وعلى امها ولكن الواجب اولى بالاتباع ونحن مرتبطان بهذا السفر ولا مناص لنا منهُ واذا بقينا في مصر لا نقدِّم ولا نؤخر ويقيني ان امين بك يقوم من هذه السقطة واظن اننا نجد تلغرافاً منهم في السويس يطمئنا عنهُ والاَّ فلا بدَّ لنا من ان نرسل تلغرافاً نسأل عن صحتهِ

فقال لا اظن أنهُ يقوم من هذه السقطة ألا تتذكرين انني رأيت بهية في حلم لابسة ثوباً اسود وهي تستغيث بي والثوب الاسود علامة الحداد

فتبسمت وقالت عدنا الى الاحلام واضغاث الاحلام . أتظن ان فكراً خطر لك وانت نائم يقدم ويؤخر في امور الناس ومجرى احوالهم

فقال لا يمكننا أن نكذِّب كل ما يقولهُ البعض عن ادراكهم للغيب فان الحوادث كلها الماضي منها والحاضر والمستقبل يفصلها الزمان بعضها عن بعض فاذا لم يقيَّد العقل بالزمان استطاع ان يدرك المستقبل كما يدرك الحاضر . وكيف ندرك الماضي ونحن بعيدون عنهُ سنيناً او قروناً ولا ندرك المستقبل وقد لا يكون بعيداً عنا الاَّ أشهراً او أياماً . ولا بدَّ من انك تقولين لي كيف ندرك حدوث الشيء وهو لم يحدث بعدُ فاجيب ان كل حادث متعلق بسلسلة من الاسباب سابقة لهُ وهو موجود فيها بالقوة ولو لم يكن موجوداً بالفعل فكما نرى الزهرة فنتصوَّر الثمرة التي تتكون منها ونراها بالبصيرة ولو لم ننظرها بالباصرة ونرى الطفل فنتصور الرجل الذي يصير منهُ كذلك عين العقل تقوى في بعض الناس فتهتك حجاب المستقبل وتعلم الحوادث الآتية مما هو جارٍ . وما لي ولهذا البحث الفلسفي الآن ألم أصف لكِ بهية قبل أن نأتي الى مصر أوَ لم تجدي وصفها مطابقاً لما وصفتها بهِ . أواه يا دورا كم أتمنى أن اكون الآن بجانبها أسليها

واشاركها في حزنها على اخيها . لا بدَّ من انها تقول ما اقسى هذا الرجل واقل ودادهُ . والحق اننا نحن الانكليز قساة نضحي كل شيءٍ في سبيل ما نعدُّهُ واجباً علينا

ودخل حينئذٍ خادم ودعاهما للطعام فقاما الى غرفة المائدة وكان الجلوس فيها قليلين فجلسا على مائدة وحدهما واكلا اللون الاول قبلما عادا الى الحديث . ولما اتاهما الخادم باللون الثاني قالت دورا لا اظنهم يجلسون على مائدة الآن ما اقبح الامراض والآفات فانها تنغص الحياة وتسلب منها كل مسرة ولا اظن ان المصاب يتألم اكثر مما يتألم ذووهُ . لو كان الناس يعوّدون انفسهم الاستخفاف بالموت والترحيب بهِ كأنهُ واسطة لانقاذهم من متاعب الحياة لما وجدنا في المرض والموت عشر معشار ما نجدهُ فيهما الآن من الالم والكدر

فقال اخوها اصبتِ ويصير الناس يلجأون الى الانتحار كلما اصابهم مرض او وجع لكي يتخلصوا من الالم لان الالم لا يزول بالفكر والتصوُّر كما تظنين

فقالت كلاّ ليس الى هذا الحد ولكن ألم تقرأ ان بعض الاقوام يحسبون الموت سبيلاً للوصول الى دار السعادة فيرحّبون بهِ واذا شاخ احدهم طلب من اولادهِ ان يقتلوهُ قبلما تنهكهُ الشيخوخة فيعجز عن مصادمة الاعداءِ في الوصول الى دار النعيم . فيقتلونهُ باحتفال عظيم ولذلك يفرحون بموت واحد منهم كما نفرح نحن بولادتهِ او بزيجتهِ فلو اعتقد كل الناس ان الموت انتقال من دار الشقاء الى دار السعادة كما تعلم الديانة المسيحية لزالت شوكتهُ تماماً وصرنا ننتظرهُ ونرحب بهِ كما ننتظر ايام الربيع ونرحب بها

فقال ان الخوف من الموت راسخ في النفوس منذ ألوف من السنين ويكاد يكون راسخاً في نفوس الحيوانات لان منها ما يجزع من الموت ويضطرب . وقد مضى على الديانة المسيحية نحو الفي سنة تعلم الناس ان الموت انتقال من دار الشقاءِ الى دار السعادة ومع ذلك لم تنزع من نفوسهم الخوف من الموت

فقالت ان تعليل هذا الامر الاخير سهل جدًّا لان رجال الديانة يعلّمون ان بعد الموت دارين دار ثواب ودار عقاب ويخوفون الناس من دار العقاب اكثر مما يطمنونهم بدار الثواب . وكثيرون منهم يتخذون التخويف من دار العقاب سبيلاً

الى الحث على التدين والتقوى حتى لما قال جورج لنتش ان قصيدة كبلنج المشهورة المعنونة بحمل الرجل الابيض نفاق ورياء عارضها بقصيدة يخاطب بها البيض بلسان السود قائلاً

احملوا حمل الترقي   واملكوا املاكنا
وانشرونا في الفيافي   واخضدوا اشواكنا
جئتمونا بسموم   وخمور تنهك
وجحيم يحشر الله به ويهلك

وقد حضرت عظة لاحد خدمة الدين مثّل فيها صور الناس في جهنم تمثيلاً تقشعر منهُ الابدان لم يأتِ ملتن في شعرهِ بارهب منهُ ولا جاء دنتي بما يدانيهِ . وكان اكثر الذين صوّرهم في جهنم من النساء حتى خُيّل لي ان الجحيم للنساءِ والنعيم للرجال . فصوَرٌ واوصاف مثل هذه ترسخ في نفوس الناس فيزيد خوفهم من الموت لانهم يرجحون العقاب بعدهُ ولا سيما اذا علموا انهم يحاسبون على كل كلمة بطّالة يقولونها . وقد يكون لخدَمة الدين غرض ذاتي يدعوهم الى تخويف الناس من العقاب وقد يكونون مخلصين لا غرض لهم سوى خلاص النفوس ولكن النتيجة من ذلك واحدة وهي زيادة خوف الناس من الموت على ضد ما تعلم بهِ الديانة المسيحية وكل الاديان الشهيرة . فلو عدل خدمة الدين عن هذا السبيل وشوّقوا الناس الى الحياة الاخرى بعد الموت لزالت مرارتهُ من النفوس وخفَّ فراق الاحياءِ على الاحياءِ وقضى الانسان الايام الاخيرة من عمرهِ جذلاً متهللاً بما سيصير اليهِ بعد الموت . ولا رغبة لي الآن في موضوع مثل هذا لان اشتغال العقل وقت الاكل يضعف الهضم . هات قل لي الحق هل يخطر ببالك ان تعود الى مصر بعد الرجوع من اليابان

فقال نعم هذا كان مرادي ولكن الامر يتوقف على ما اراهُ من بهية ووالديها فانها لم تسمح لي ان اكاتبها ولكنني ساكاتب والديها فان رأيت منهما ما يقوي الامل طلبت منهما ان يسمحا لي بمكاتبتها ولكنني لا ادري كيف نتمكن من ذلك ونحن في آخر المعمور ولا يصل البريد في اقل من شهر ويلوح لي ان الحرب صارت على الابواب وربما اضطر ان اذهب الى ساحة القتال ومَن يعلم ماذا يصيبني هناك . ثم جاءت مسألة

اخيها وهذه لم تكن في الحسبان واذا فرضنا انهُ يقوم من هذه السقطة كما ارجو ويشفى منها تماماً فمتى يكون ذلك وهل يطمئن بالهم حتى يكاتبونا واذا لم يقم من هذه السقطة لا سمح الله صار البحث في هذا الموضوع ضرباً من المحال وكيفما التفتُّ لا ارى الاَّ ظلاماً دامساً لا نور فيهِ

ولما شرع في الكلام ابطل الاكل وجارتهُ دورا في ذلك فرفع الخادم الطعام من امامهما وعرض عليهما لوناً آخر فابيا وطلبا الفاكهة . ثم عادا الى مكانيهما وكانا جالسين وحدهما فقالت لهُ دورا هب انك كتبت الى والديها وكتبا اليك وظهر لك من كتابتهما ان تزوُّجك بابنتهما ليس في الامكان فماذا تفعل

فقال ان هذا لا يكون

فقالت كيف لا يكون وقد فهمت من استير ان الاقباط لا يزوجون بناتهم للاجانب مع ان رجالهم يتزوجون بالاجنبيَّات فان ام بهية من السوريين الذين استوطنوا القطر المصري ولكن لم يسمع ان قبطية تزوجت باجنبي

فقال اني لا انظر الى ذلك بل الى ما اشعر بهِ في نفسي فاني اشعر ان هذه الفتاة خُلقت لي وخُلقت لها ويخال لي انها هي ايضاً تشعر كما اشعر ولا اعرف سر هذا الشعور المتبادل ولكنهُ حقيقة لا ريب فيها

فتبسمت وقالت لا تزال انت انت

فقال نعم ومن يستطيع ان يكذّب وجدانهُ ومتى صرتِ مثلي تشعرين شعوري . فاحمرَّت وجنتاها وقالت هذا بعيد عني ولكن انظر كيف نسينا بيت واصف بك ولجة الحزن التي هم فيها

فقال اصبتِ ولا يجوز ان نفتكر في انفسنا الى هذا الحد قولي لي ماذا اخبرتك استير عن بهيَّة وبهيَّة عن استير واين اخو استير فاني لم ارَهُ الاّ مرة او مرتين

فقالت سألت استير عن اخيها فقالت ان اباها صارم جدًّا عليهِ وقد وضعهُ في بنك لا تزيد اجرتهُ فيهِ على اربعة جنيهات في الشهر وهو يحضهُ دائماً لكي لا يصرف منها شيئاً لا لانهُ بخيل بالطبع بل لانهُ يخاف ان يطلق لهُ العنان في الانفاق فيعتاد الملاهي

ويتورط في السبل التي يعتادها الشبان في مصر . ولكن هذه التربية السلبيَّة لا تكفي لانها لا تقوي عقول الشبان واعتمادهم على انفسهم وليس في القاهرة كلها نادٍ ادبي يجتمعون فيهِ ويستفيدون من المطالعة ومن مذاكرة اهل العلم والاختبار كما في البلاد الانكليزية . وهي تمدح اميناً وتثني على آدابهِ واخلاقهِ ولكنها تقول انهُ مبذر متلافٍ لا يعرف قيمة المال ولا يقدّر العواقب وتخشى من ان يكون قد تعلَّق حديثاً بشغل البورصة وقد سمعت امها تتكلم مع ابيها في هذا الموضوع وعزمت ان تخبر امهُ لتردعهُ والاَّ عطَّل مستقبلهُ وخرب بيت ابيهِ . اما استير وبهية فجوهرتان وكلٌّ منهما تحبُّ الاخرى كما تحب نفسها على ما ظهر لي مما سمعتهُ من كل واحدة منهما عن الاخرى . وقد لحظت ان اميناً يحب استير وهي تحبهُ والظاهر ان العائلتين تعرفان ذلك . هذه الامور لاحظتها ملاحظةً وقد اكون غلطانة . وبيت واصف بك وبيت راغب باشا من الاصدقاءِ والظاهر ان حليماً صديق حميم لامين درسا في المدرسة سوية وكذلك واصف بك وراغب باشا . وحليمة اخت حليم بك من اجمل البنات اللواتي وقعت عليهنَّ عيني طويلة القامة بيضاء اللون شقراء الشعر سوداء العينين والحاجبين قد تمثَّل فيها الجمال الشرقي بل الجمال التركي بل الجمال الشركسي . ومهما بالغ مصورونا في رسم العيون الحوراء والشفاه الحمراء والخدود الاسيلة والوجنات الموردة لا يبلغون نصف ما رأيت فيها ولم اشبع من النظر اليها . وهي مخطوبة لشاب من كبار رجال الحكومة وسيكون عرسهما في اواخر فبراير او اوائل مارس حينما يقلُّ السياح في القاهرة لان اصحاب البيوت الكبيرة يتعبون من ازدحام السياح عليهم ويقال انهُ بلغت القحة من بعض السياح ان يصوروا العروس في جلوتها وينشروا صورتها في الجرائد وهذا يستقبحهُ المسلمون جدًّا . وطلبت حليمة مني ان نبقى في مصر لحضور عرسها وقالت لي استير ان الافراح الكبيرة مثل فرح ابنة راغب باشا يكلّف ثلاثة آلاف جنيه او اكثر . وحقًّا اني اود ان ابقى واراهُ ولكن الواجب اولى بالاتباع

ولم تكد تنطق بالكلمة الاخيرة حتى مادت بهما المركبة واطمت بالمركبة التي امامها واطمت بها المركبة التي وراءها فوقعت بين يدي اخيها واطم رأسها صدرهُ لطمة

عنيفة ووقعت الاسفاط عن الرفوف فاصاب سفط منها رأسهُ وكتفيهِ وكاد يقضي عليهِ

الفصل السابع عشر

الباخرة في السويس

كان اليونان يربُّون احداثهم تربية رياضية حتى تقوى ابدانهم فتقوى عقولهم ويستطيعون مغالبة الخصوم في ميدان الحياة والفوز عليهم وانشأوا ما يسمى بالالعاب الاولمبية حيث كانوا يجتمعون ويتبارون في المحاضرة والمصارعة ويكلّلون الفائز باكاليل الظفر وجعلوا لذلك شأناً دينيًّا حتى يرسخ في نفوسهم ويكون لهُ المقام الارفع فيها . ولا نرى بين الامم الحديثة من اقتفى خطوات اليونان في هذا السبيل اكثر من الانكليز فانهم يربون احداثهم تربية رياضية ويغرونهم بتقوية ابدانهم ولذلك ترى شبانهم مجدولي العضل اشداء الاعصاب لا يحجمون عن المشاق وهم يشرعون في ترويض ابدانهم منذ الطفولية وقد شرعوا الآن في اغراءِ بناتهم بترويض ابدانهنَّ ولا يندر ان ترى الفتاة الانكليزية سائرة مع اخيها للصيد والقنص وهي متأبطة بندقيتها مثلهُ او تراها راكبة على جواد تطارد في ميدان السباق او على جمل تقطع بهِ البراري والقفار

ولهذه التربية الرياضية اثر ظاهر في ما يبدو من الشعب الانكليزي من القوة ورباطة الجأش والصبر على المشاق ولا يضاهيهم في ذلك الاَّ الشعب الاميركي الذي حذا حذوهم والامم المتبدّية كالعرب والتركمان

وقد كان هنري ودورا من الذين ربوا هذه التربية فلما حدث ما حدث في القطار ووقعت الاسفاط على هنري حتى كادت تقضي عليهِ كانت غاية ما فعلتهُ بهِ وباختهِ انها اضحكتهما فنهضا وجعلا يضحكان ويقهقهان حتى دمعت اعينهما ثم اطلاَّ من النافذة يسألان عما جرى فعلما بعد اللتيا والتي ان القاطرة اصابت خشبة وضعتها يد اثيمة في طريقها عمداً فحادت عن الشريط وحاد معها مركبتان ولم يحدث في القطار شيء غير ذلك ولكن كان لا بدَّ لهُ من ان يتأخر بضع ساعات الى ان تصل قاطرة أخرى من الزقازيق تسير بهِ . وخاف هنري ودورا ان يأتي قطار آخر من الورا. فيصدم قطارهما

وعزما على النزول منهُ فقال لهما احد الكومسيرية لا خوف من ذلك لان السكة الحديد المصرية جرت على النظام الانكليزي حديثاً فلا يقوم قطار من محطة الى اخرى الاَّ و يفرغ الخط الذي بينهما فما دمنا هنا لا يقوم قطار من المحطة التي وراءنا . فاطمأنَّ بالهما ولم يعلما متى يقوم القطار بهما وحسبا انهما سيتأخران عن الباخرة التي كانا عازمين على السفر فيها . اما دورا فكانت ترجح ان ذلك بعيد الوقوع فلم تعبأ بهِ واما هنري فكان يودُّ حدوثهُ ليتأخر اسبوعاً او اسبوعين و يعود الى القاهرة

و بعد ساعتين من الزمان اتت قاطرة سارت بقطارهما فوصلا متأخرين ثلاث ساعات . ووجدا الباخرة في المرفإِ وهي يابانية من بواخر شركة نيون يوسن كايشا فنزلا اليها حالاً وارسلا تلغرافاً الى بيت واصف بك يسألان عن صحة امين بك وتلغرافاً آخر الى بيت الخواجه لاقي يشكرانهِ فيهِ ويخبرانهِ بوصولهما سالمين الى السويس

وكان وصولهما الى الباخرة الساعة الثامنة مساء بدل الساعة الخامسة فوجدا ان مكاتب جريدتهما قد اعد لهما غرفتين في منتصف السفينة من احسن غرفها والسفينة من اكبر السفن التي تسير بين اوربا والشرق الاقصى واكثرها اتقاناً وافخرها فرشاً وكان الركاب قد لبسوا للعشاءِ و بينهم كثيرون من كتَّاب الجرائد الانكليزية وهم بثياب السهرة وفي جملتهم المستر برودي وكان بعضهم ينتظرون المستر برون وأختهُ و بلغهم ما أصاب القطار فأخرهُ عن ميعادهِ فلما وصلا السفينة حيوهما مرحبين بهما وطلبوا من القطبان أن يأمر الخدم ليتمهلوا في تقديم الطعام فغسل هنري ودورا أيديهما ودخلا غرفة المائدة من غير أن يغيرا ثيابهما فاستقبلهما الركاب باصوات التهليل والابتهاج وأعطوهما كرسيين الى جانب القطبان وزوجتهِ . وعرف هنري كثيرين من الحضور فاومأ اليهم مسلّماً وقال القطبان هل دارت رحى الحرب فاني أرى هنا كثيرين من كتَّاب الجرائد فقال القطبان كلاَّ ولكن لا بدَّ منها عاجلاً أو آجلاً . وكان جالساً في صدر المائدة عند منتصفها وزوجتهُ امامهُ والى يمينها مكاتب جريدة التيمس فجلس هنري الى يسارها وجلست دورا عن يمين القطبان وسيدة أخرى عن يسارهِ . وقُدّم لهم الطعام لوناً لوناً بهو مما يؤكل عادة في السفن الكبيرة فرنسوية كانت او انكليزية

من الاسماك واللحوم والخضر والمربيات وقدمت لهم اجود أنواع الخمور الاوربية ودار الحديث أولاً على ما حدث للقطار فوصف لهم هنري ما أصابهُ واصاب اختهُ وهو يضحك ويمزج الجد بالهزل . ومما قالهُ في هذا الصدد ان القطار خاف من صولة الانكليز لما وصل الى التل الكبير فارتعد واضطرب فقالت دورا نعم وكاد يدفنا مع الذين دُفنوا هناك فقال هنري ولو فعل لعُددنا بين الابطال . ثم استدرك على ذلك قائلاً ولكنني علمت من رجل من كبار الموظفين في سكة الحديد المصرية أن الحوادث التي من هذا القبيل قليلة جداً أقل مما هي في اوربا واميركا. فجعل القبطان يسألهُ عن نسبتها الى عدد الركاب وطول السكك وعدد القطارات وهو يجيب مما بقي في ذاكرتهِ من كلام ذلك الموظف والقبطان يقابل ذلك بما يحدث في بلاد اليابان من هذا القبيل فظهر ان الحوادث التي تحدث في سكك الحديد المصرية قليلة بالنسبة الى عدد الركاب ولكنها ليست قليلة بالنسبة الى سرعة القطرات . واستطرد القبطان السؤال الى احوال القطر المصري وما بلغهُ عن ارتقائهِ السريع . فجعل هنري يصف ما شاهدهُ وما سمعهُ الى ان قال ان اهالي القطر المصري عشرة ملايين من النفوس ومع ذلك بلغت قيمة صادراتهم في العالم الماضي نحو عشرين مليوناً من الجنيهات . فجحظت عينا القبطان على صغرهما وكانت زوجتهُ تتكلم مع دورا فالتفتت اليهِ وقالت عشرين مليوناً من الجنيهات أي مئتي مليون ين . وكانت تحسن الانكليزية مثل زوجها وهي صغيرة القد بشوشة الوجه تحسبها فتاة في الخامسة عشرة او السادسة عشرة مع انها نصَف ولها ولدان شابان احدهما في الجيش والاخر في البحرية وقد زارت اوربا مرتين قبل الآن

فقال هنري نعم عشرون مليوناً من الجنيهات وتسعة اعشارها من ثمن القطن الذي يصدرونهُ الى اوربا واميركا . فقال القبطان والى اليابان ايضاً وفي سفينتنا الآن لا اقلَّ من ٥٠٠ بالة منهُ ولكن الذي يدهشني من امر المصريين ان بلادهم على بحرين وتجارتهم الخارجية واسعة ومع ذلك ليس عندهم شركات تجارية ولا سفن بخارية الاَّ سفن شركة واحدة صغيرة ابتاعت سفنها من الحكومة ويبلغني ان اشغالها ليست على ما يرام ولا تعطي المساهمين شيئاً من الربح وبلاد مصر على ابواب اوربا وقد

شرعت في بناء السفن الكبيرة منذ ثمانين او تسعين سنة اي قبلما شرعنا نحن في ذلك بنحو ستين سنة فما اخَّرها عن مجاراة اوربا بعد ان شرعت في ذلك

فقال هنري لا اعلم ولكن الامر مستغرب جدًّا وقالت دورا أنا أعلم بعض السبب ان لم يكن كلهُ فقد رأيت في القاهرة نساءً مثل النساءِ المتعلمات المتهذبات في ارقى البلدان الاوربية ولكنني علمت منهن ان النساء اللواتي مثلهنَّ قليلات العدد واكثرهنَّ من الاوربيات والسوريات واليهوديات والتركيات وأما نساء الفريق الاكبر من الاهالي فاكثرهنَّ على غاية الجهل وعدد اللواتي يعرفنَ القراءة والكتابة بين كل نساءِ القطر المصري لا يبلغ سبعة في الالف فما دام نصف السكان أميًّا وهو النصف الذي يربي الاولاد فكيف ترتقي البلاد . فاستغربت امرأة القبطان ذلك وهي من المهتمات بتعليم النساءِ في بلادها وقد ساعدت أباها في انشاءِ مدرسة كبيرة لهنَّ وجعلت تستخبر من دورا عن كل ما علمتهُ من أحوال النساءِ في مصر وتعليمهنَّ

وانتقل الحديث الى الحرب المنتظرة فجعل القبطان يبرر اعمال دولتهِ ويصف اعتداء الروس عليهم وكان المستر برودي أشد الموافقين لهُ على ذلك فالتفت مكاتب التيمس الى مكاتب جريدة أخرى كان جالساً الى جانبهِ وقال لهُ من هذا الرجل فقال لم يذكر لهُ اسم في قائمة الركَّاب وأظنهُ تاجراً أو سائحاً

وقام النساء بعد الطعام وكنَّ قليلات والتففنَ بارديتهنَّ وخرجنَ الى ظهر الباخرة وأما الرجال فبقوا يشربون ويدخنون . ثم جاء مكاتب لندن نيوز يحمل تلغرافين الى هنري ودورا الواحد من بيت واصف بك يقال فيهِ ان أميناً أفاق مراراً والاطباء يطمئنونهم عنهُ . والثاني من بيت لاقي يهنئهما بالوصول بالسلامة ويرجو لهما سفراً سعيداً وعوداً حميداً وقد أسفوا لان حادثة أمين بك منعتهم من توديعهم . ودنا برودي من دورا وسلم عليها وهنأها بالسلامة وقال لها أنهُ اضطرَّ أن يسبقهما فجاء في اليوم السابق وقضى النهار في السويس . ثم عاد الى غرفة الكتابة وكتب الى السفارة يقول

« أزيد على ما كتبتهُ لكم الظهر ان في الباخرة نحو عشرين طنًّا من الديناميت وثلاثين صندوقاً فيها مدافع صغيرة وقد أكد لي الوكيل أنهُ لا تمر سفينة من السفن

الانكليزية الآ وهي مشحونة ميرة لليابان ومعنا في السفينة سبعة من مكاتبي الجرائد أربعة منهم ضلعهم مع اليابان واثنان مع الروس وواحد بين بين . وقد وصل الآن المستر هنري برون واختهُ بعد ان كاد العدل ينتقم منهما فقد انحرف بهما القطار ووصلا متأخرين ثلاث ساعات . الوكيل هنا الآن وسيأخذ كتابي هذا ثم تقفل ابواب السفينة وتسافر قبل الفجر وسأكتب من عدن وأعنون الكتاب باسم والدتي »

ولما كان برودي يكتب الكتاب المتقدم الى سفارة روسيا في لندن اتى هنري ليكتب الى ابيه ثم التفت الى الساعة فوجد عقربها على التاسعة وسأل المكاتب الى اي ساعة تستطيع ان تبقى في الباخرة فقال الى الساعة العاشرة فقط . فقال في نفسهِ ساعة واحدة لا كتب فيها الى ابي وامي و بيت لافي و بيت واصف بك فبأيهم ابتديء . الرأس قبل القلب والجد قبل الهزل . فلا بدَّ من الكتابة الى ابي اولاً ولكن كيف تكون بهية الآن هل اطمأن بالها على اخيها وهل نسيتني يا ترى او تفتكر فيَّ كما افتكر فيها وهل بلغها ما اصاب القطار . ما كان اجملها لما وقفت لوداعنا كنت أرى فؤادها يخفق والدم يرد الى وجنتيها ثم يزايلهما . ما اجمل تينك العينين النجلاوين . هل جالت فيهما الدموع على مصاب اخيها او على فراقنا . خير لي ولها ان يبقى هذا الامر غامضاً . لا شبهة عندي انها تحبني كما احبها ولكن قد تقضي عليها عادات قومها بتركي كما قضت عليَّ مطالب قومي بتركها . ان كنت احبها حقيقةً فيجب ان اعطيها نفسي ولا افرط بها وأي تفريط اقبح من هذا . حرب تثار لخدمة المال فاكون من المذكين نارها ثم اذهب بنفسي الى ميادين القتال ترويجاً لجريدة حتى يباع منها مليون نسخة في اليوم بدل نصف مليون وتزيد اموالنا زيادة لا حاجة لنا بها وانما تزيدنا تعباً وهمَّاً . اذهب الى ميادين القتال وقد أصاب برصاصة تقضي عليَّ في لحظة من الزمان او اقع جريحاً تطأني سنابك الخيل فتكسر مني الساق والذراع ويلصق لساني بحنكي من شدة العطش فلا اجد من يبل شفتيَّ بقطرة ماء ثم تنهش لحمي الذئاب الى ان أتنفس النفس الاخير وكيف يكون حال ابي وامي واختي بعدي . ابي قد لا يسأل . هذا لورد رُبرتس أصيب وحيدهُ في حرب البوير فهل دمعت عيناهُ . اما امي ودورا فلا شك انهما تحزنان عليَّ مدى العمر

وبهية لا اعلم ما يكون من امرها . لم أرَ منها دليلاً قاطعاً على حبها لي غير شعوري وقد اكون مغترًّا بنفسي كما يغترُّ اكثر الشبان

والتفت الى الساعة فرأى عقرب الدقائق قد وصل الى الدقيقة العاشرة فلام نفسهُ وشرع في الكتابة . كتب اولا الى ابيهِ فأشار الى ما اصاب القطار بالايجاز التام وذكر لهُ ما اخبرهُ بهِ المكاتب وهو ان الميرة التي تشحن الى اليابان اضعاف ما يشحن الى الروس وان المراقبة ستكون تامة متى نشبت الحرب . وكتب الى امهِ سطرين يأسف فيهما لان تأخر القطار منعهُ عن الكتابة لها بالاسهاب ووعدها بالكتابة عن ظهر السفينة وحار في امرهِ الى من يكتب ألى واصف بك وهو لا يعرف الانكليزية او الى امين بك وهو مريض او الى اختهِ وهي قد حذرت عليهِ الكتابة لها . واخيراً رأى ان يكتب الى امين بك فقال لهُ « اني لا استطيع ان اصف لك مقدار السرور الذي شملنا مما نالنا من الشرف بالتعرف بكل واحد من اعضاء عائلتكم الكريمة كما لا اقدر ان اصف لكم مقدار غمنا على الحادثة المشؤومة التي حدثت لك وعلى اضطرارنا الى السفر قبل ان نراك ملكت صحتك . ولكن انا ودورا نرجو ونطلب من الله ان يزول هذا العارض سريعاً وتعود اليك صحتك التامة . وقد اصابنا نحن حادث طفيف في الطريق أخرنا عن الوصول الى السويس ثلاث ساعات والاَّ لأرسلنا اليكم التلغراف قبل ذلك واني اشكركم على وصول جوابهِ ولولا هذه الحادثة لكتبت اليكم بالاسهاب عن سفرنا وعما نشعر بهِ من الشكر لكم على كل الجميل الذي عاملتمونا بهِ ولي امل اننا حينما نصل الى عدن نأخذ خبراً عن قيامك بالسلامة . وارجو ان تهدي واجب الاحترام الى والديك المحترمين والى حضرة شقيقتك واني لك دائماً الصديق المخلص هنري برون »

وكتبت دورا الى بهية بمثل ذلك واسهبت قليلاً في وصف الحادثة التي حدثت للقطار وكتبت سطرين الى امها وختما المكاتيب وسلماها الى المكاتب ثم رُفع سلم الباخرة وأقفل بابها وكانت قد صارت الساعة العاشرة

الفصل الثامن عشر

الشكوى

صدقيني يا استير لو وقع يوسف الوقعة التي وقعها امين ما كنت تألمت اكثر مما انا متألمة الآن وكل الحق على عزرا

هذا ما قالتهُ مدام لاڤي وكانت جالسة مع ابنتها في غرفة صغيرة تتناولان الشاي وحدهما وكانتا تتكلمان باللغة الفرنسوية لان كل حديثهما في البيت بها . فقالت استير وما دخل عزرا في وقوع امين تحت الترامواي

فقالت امها لقد بلغني منذ يومين او ثلاثة ان عزرا اصطاد امين بك وادخل رجليهِ في حبائل البورصة ولا بدَّ من ان يكون قد خسر خسارة فاحشة او ربح ربحاً كبيراً بحيث انشغل بالهُ مثل كل الذين يبتدئون في شغل البورصة فعثرت رجلهُ وهو يمشي لانهُ كان مشتَّت الافكار

فقالت استير مَن اخبرك انهُ يشتغل بالبورصة . فقالت اخبرتني قدم خير وقدم خير عرفت من زين الدار . والجواري السود يعرفنَ كل شيء لان فيهنَّ عفريتاً كما يقول اولاد البلد

استير — انا اكره زين الدار واحب ان لا تدخل بيتنا واعتقد انها جاسوسة علينا من قبَل عزرا

مدام لاڤي — عزرا شاب مجتهد ومن انسبائنا ويقول ابوكِ انهُ كسب مكاسب طائلة هذه السنة

استير — مجتهد او غير مجتهد هذا لا يعنيني وشغل البورصة ليس عيباً ولاَّ ما كان ابي واعمامي يشتغلون به وانا لا الومهُ على ذلك ولكنني ابنت لهُ الف مرة انني لا اطيقهُ لانني ارى في وجههِ شيئاً ينفّرني منهُ وان كان قد اوقع امين بك في البورصة فيكون لانهُ يريد ان يسلب اموالهُ حتى يفتقر ولا اعود التفت اليهِ وهذه دناءة منهُ واكبر دناءة

مدام لاڤي — اصبتِ ولكن انا غير قاطعة بصحة الخبر لان الجواري مهذارات فقد يصدقنَ وقد لا يصدقنَ وابوكِ لم يقل لي شيئاً عن خسارة امين ولكنهُ تأسف جدًّا على ما اصابهُ

استير — لا بدَّ لي من ان اسألهُ حالما يرجع الى البيت . وعزرا هو الذي اخبر ابي عن وقوع امين وقال انهُ قُتل ونظر اليَّ كأنهُ حزين على ذلك ولكنني قرأت في وجههِ علامات الشماتة والتشفي

مدام لاڤي — وابوكِ يقول ان الخطر شديد على امين وقد لا يقوم من هذه السقطة لا سمح الله — مسكينة امهُ

فجالت الدموع في عيني استير وارتجفت شفتاها ونظرت الى الحائط وقالت ما اقل بختي

فقالت لها امها ليس الى هذا الحد يا استير نعم ان بيت واصف بك جيراننا واصدقاؤنا منذ خمس عشرة سنة وانا احب اميناً واختهُ مثل اولادي ولكن ليس الى هذا الحد يا ابنتي ولا تنسي انهم اقباط وان اولاد عمك ينتظرونك كلهم وموسى اتمَّ دروسهُ في بلاد الانكليز ودخل في محل من اكبر المحلات التجارية وانا من رأيك من جهة عزرا ولكن لستُ من رأيك من جهة موسى

فقالت استير ولكن موسى وَلَد و بالامس كنت اضحك عليهِ . فقالت امها الولد يصير رجلاً وموسى كالمرحومة امهِ طويل القامة مليح الوجه تبين على معاطفهِ علائم الرجولية كما يظهر من صورتهِ واظن انهُ يأتي في أواخر هذا الشتاء ليقضي بضعة اسابيع مع اخوتهِ

فلم تقل استير شيئاً وانقطع الحديث . و بعد قليل جاء الخواجا لاڤي وقال لزوجتهِ وابنتهِ ورد تلغراف من الزقازيق ان القطار الذي سافر فيهِ المستر برون واختهُ حاد عن الخط وانقلبت مركبة من مركباتهِ ولا يزال واقفاً قرب التل الكبير . فقالت مدام لاڤي يظهر ان السنة سنة نحس من اولها . فقال زوجها كذا يظهر وقد مررت الآن على بيت واصف بك فوجدت اميناً على حالهِ وامرهُ مشكل وقد قال لي الجراح ان

الخطر اشد مما نظن وهو يعتقد ان الدماغ غير سليم . وانا واقع في مشكل آخر فانهُ اشترى قبل سقطتهِ اكثر من مئة وخمسين الف قنطار من القطن عن يد عزرا وابوهُ لا يعلم شيئاً من ذلك فهل الاحسن ان نخبرهُ ونزيد همومهُ او نترك الامر وربما هبطت الاسعار ايضاً فتكثر الخسارة وقد استشارني عزرا في امرهِ فاشرت عليهِ ان يخبرهُ حالاً ولكنني رأيت واصف بك الآن فلم يقل لي شيئاً عن القطن والظاهر ان عزرا اخَّر إخبارهُ لكي تزيد خسارة ابنهِ او انهُ اخبرهُ وهو لم يهتمَّ بالخبر لانشغال بالهِ

فتحققت استير ما اخبرتها بهِ امها وادركت جسامة الامر لان الاشتغال بالبورصة شاع حتى بين النساءِ والبنات ولا يندر ان يشتري الرجل لزوجتهِ او لابنتهِ اسهماً او كنترااتات ويشركها معهُ في الاهتمام بالصعود والنزول وصار النساءُ يتحدثنَ باشغال البورصة في مجتمعاتهنَّ ويهتممنَ بالكسب والخسارة اهتمام الرجال بهما وقد خصها ابوها ببعض الاسهم فشغل بالها بها حتى فقدت لذة العيش ثم اهملت امرها من تلقاءِ نفسها لانها رأت ان الربح والخسارة يشغلان البال على حدٍّ سوى فلما سمعت ان امينًا تطرَّف في البورصة الى هذا الحد لامتهُ في قلبها لكنها ودَّت ان تنقذهُ من هذه الورطة كأنها مشاركة لهُ فيها والتفتت الى ابيها وقالت له كم تظن بلغت خسائرهُ الآن فقال لا اعلم ولكن اظن انها عشرون او ثلاثون الف جنيه . فابدت مزيد الدهشة مع اعتيادها سماع ألوف الجنيهات لانها ربيت على الاكتراث للمال مهما كان قليلاً وقد طالما رأت اباها يحاسب على الغرش التعريفة مع انهُ ينفق على اسطبلهِ نحو ثلثمئة جنيه في السنة ورأت امها تحاسب على نصف الفرنك وهي تدفع ثمن الفسطان ستين جنيهاً . وقالت لابيها ان اباهُ غنيٌّ يسهل عليهِ دفع هذا المبلغ عنهُ ولكن دفعهُ في هذا الوقت يزيد ألمهُ وحرقتهُ . فقال اظن ان الامر بالضد من ذلك لانهُ يفتدي ابنهُ الآن بكل مرتخص وغالٍ والخسارة واحدة سواءٌ كانت كبيرة او صغيرة لدى من يسهل عليهِ دفعها ولا سيما خسارة البورصة الملعونة فلكِ ترين الرجل الذي يشقُّ عليهِ ان تنكسر عصاهُ في يدهِ وثمنها نصف ريال وان يعطي نصف غرش لفقير ثم يجد انهُ اعطاهُ غرشاً خطأً . هذا الرجل نفسهُ يدفع الف جنيه خسارة كأنهُ دفع غرشاً واحداً . ولا شيء

يحقّر قيمة المال مثل الاشتغال بالبورصة اذ يربح الواحد الالوف ويخسر الالوف في ساعة من الزمان واخشى ان يتمكن داء البورصة من امين فيبدد ثروة ابيهِ

فقلقت استير من كلام ابيها كما قلقت مما اصاب اميناً من سقطتهِ ورأت انها عاجزة عن ان تساعدهُ بشيء ولو رأت من ابيها عدم الاهتمام بهِ لحثّتهُ على الاهتمام ولكنها رأتهُ مهتماً مفكراً فلجأت الى الصبر وهو الخلق الذي تغلب بهِ المرأة وتنال رغائبها

الفصل التاسع عشر

الحيلة

لم يكد داود خادم عزرا يخرج من مكتبهِ بالكتاب الى بيت واصف بك حتى خطر لعزرا ان زين الدار ليست لتؤتمن بعد ما اظهرت من الحزن على امين بك فنادى داود وقال لهُ اذهب ضع المكتوب في صندوق البوسطة وخذ هذه ثلاثة مليمات ضعها عليهِ . فوضع داود المليمات الثلاثة على المكتوب وسار بهِ الى اقرب صندوق في ساحة الاوبرا ومرَّ بهِ رجل شيخ اسمهُ فورتي من سماسرة السماسرة فقال لهُ الى اين فقال ذاهب لاضع هذا الجواب في الصندوق . فقال لهُ الى مَن فقال الى امين بك بن واصف بك وفرّ عليّ المشوار الى الظاهر

فورتي — مشوار الى الظاهر لماذا لا تذهب بالتراموای

داود — ومن يدفع اجرة التراموای

فورتي — اظن معلمك يخرب الدنيا على قرش تعريفه

داود — اهو تعلّمْ كيف يجمع الناس الفلوس

ووصلا حينئذٍ الى صندوق احمر لاصق بالحائط فوضع داود الكتاب فيهِ وافترقا واراد عزرا ان يعرف الخبر اليقين عن امين بك فركب مركبةً وسار بها الى بيتهِ ليعودهُ ظاهراً ويطمئن بالهُ من جهة عدم سلامتهِ باطناً . ولما وصل الى الباب ارسل ورقة الزيارة فقابلهُ احد الاصدقاء وقال لهُ ان امين بك على حالهِ فعاد بالمركبة ومرَّ من امام بيت الخواجه لاقي وكان الخواجه لاقي عازماً على الخروج فسلم عليهِ ودعاهُ

للدخول فلم يكذب ان دخل وقال انهُ ذهب الى بيت واصف بك لان سقوط امين بك شق عليهِ جدًّا . ولما سمعتهُ استير يرائي بهذه الوقاحة نظرت اليهِ شزراً ومشت ولم تكلمهُ ورأى ذلك منها فاحتدم غيظاً ولكنهُ كظم غيظهُ حينئذٍ و بقي يكلم الخواجه لاقي كأنهُ لم يرَ شيئاً . فسألهُ الخواجه لاقي عما اذا كان قد اخبر واصف بك باشتغال ابنهِ في البورصة و بالمركز الذي هو فيهِ فقال انهُ فعل ذلك . فقال لهُ وماذا قال لك واصف بك فقال لم يقل لي شيئاً حتى الآن والخسارة ليست جسيمة والامل كبير بالربح فقد اقفلت بورصة لندن بصعود عدة بنوط . ثم ودَّع وخرج

وتلك الليلة جلس عزرا في النيو بار وحدهُ وهو يفكر في احتقار استير لهُ وفي طريقة يجتذبها بها اليهِ او ينتقم منها ويتحسر على الايام الماضية ايام اللصوص والقرصان حين كان المرء يغري احد قطاع الطريق ببضعة دنانير فيخطف لهُ اية فتاة ارادها وقال في نفسهِ مضت تلك الايام ولم يبقَ لنا سلاح للانتقام الاَّ المال والحاكم . و بينما هو يفكر في هذه الامور دنا منهُ رجل ايطالي وطلب منهُ صدقةً وألحَّ في الطلب وهو يقول انهُ جائع ليس عندهُ ما يتعشى بهِ ويعشي اولادهُ فنظر عزرا اليهِ مليًّا ثم مدَّ يدهُ الى جيبهِ وناولهُ نصف ريال وقال لهُ تعالَ اليَّ بعد ساعة الى مكتبي امام البورصة نمرة كذا فشكرهُ الرجل الف شكر وذهب وهو لا يصدّق ان عزرا يعطيهِ نصف ريال احساناً

و بعد ساعة وافاهُ الى مكتبهِ فاخذ يستقصي عن احوالهِ بالتدقيق واقام معهُ ساعةً زمانية ثم صرفهُ وعاد الى النيو بار وهو لم يذق عشاء فشرب كاسين من البيرا واكل ما معهما من اللماظ الى ان كانت الساعة الحادية عشرة فمضى الى بيتهِ وخلع ثيابهُ وحاول النوم فطار النوم من عينيهِ وكثرت عليهِ الهواجس وهو يتصوّر استير تارة في صورة ملاك كريم يشمخ عليهِ كبراً ودلالاً وطوراً في صورة شيطان رجيم آتٍ للانتقام منهُ ثم تخطر لهُ صورة زين الدار والدموع تهطل من عينيها لما سمعت ما حلَّ بامين فيكاد قلبهُ يلين لكن النفس الامَّارة بالسوءِ الموروثة من عصور الخشونة والهمجية حين كان الناس كالوحوش الضواري يفترس بعضهم بعضاً — هذه النفس تغلب اكرم الاخلاق وانبلها اذا لم يستعن المرء عليها باوامر الدين ونصائح الفضلاء ولم يردعها بارشاد العقل

ونتائج الاختبار . وويل لمن لم ينهَ نفسهُ عن الهوى ولم يجد من حوادث الايام نذيراً . ولخفة عشائهِ بقي دمهُ في دماغهِ ولم يهبط الى معدتهِ فبقيت الافكار تتزاحم عليهِ واكثرها افكار سوءٍ وهو يتقلَّب ويتململ الى ان لاحت تباشير الصباح فنهض من فراشهِ اصفر الوجه غائر العينين ولكنهُ شديد التنبه كأمس وما قبلهُ فأكل مما قدم لهُ وامر زين الدار ان تذهب وتسأل عن امين بك ثم خرج الى مكتبهِ ووصل اليهِ قبل شريكهِ وراجع حساب الامس فرأى ان ربحهُ كان وافراً رغماً عن انشغال بالهِ

الفصل العشرون

رأس السنة

دخلت سنة ١٩٠٤ وجو السياسة مكفهر والمخابرات دائرة بين الروس واليابان في بطرس برج وطوكيو ولكن رجال المال ولاعمال الذين في يدهم شؤون الامم في هذا الزمان واثقون ان هذه المخابرات لا تجدي نفعاً لا لان اهالي الشرق ضاق بهم شرقهم فهم يطلبون منتجعاً في بلاد الغرب ولا لان اهالي الغرب ضاق بهم غربهم فهم يطلبون الرزق في بلاد الشرق . كلاّ . ولا لان القيصر يطمع في ان يلبس تاجاً آخر فوق تاجهِ . ولا لان الميكادو يرغب في ان يورث ابنهُ مملكة أخرى فوق مملكتهِ . والاربعون مليوناً من الحراس والصنّاع والعمال في بلاد اليابان الرجال منهم والنساء واولادهم لا يعلمون شيئاً من امر توسيع الممالك وانتجاع الارزاق لان كلاًّ منهم مكتفٍ بما يجدهُ من الارز والفاكهة في بلادهِ . ولا المئة والثلاثون مليوناً من امم الروس تهمهم بورت آرثر او فلادفستوك واكثرهم لم يسمعوا اسميهما ولا اسم اليابان وانما مصالح التجار واصحاب المعامل وارباب الاموال هي الدافع الوحيد الى هذه المناظرات الدموية

ليرتكب ملك من الملوك ما شاء من الفظائع التي تقيم الدنيا وتقعدها ثم ليوصِ معمل ارمسترنج او معمل كروب بمئة مدفع او مئة الف بندقية فيغتفر وزرهُ وتصمت الصحف عن ذمهِ او تتغنّى بمدحهِ . وليفرط ملك اخر في ما شاء من الاعمال التي يأباها العمران ثم ليعقد قرضاً يشرك فيهِ البنوك الفرنسوية والالمانية والانكليزية حتى

يربح كل فريق منهم مئة الف جنيه في السنة من عرق رعيتهِ بل من الدم المستقطر من عروقها فللحال يغتفر ذنبهُ ويقال انهُ ملك مصلح استدان الاموال لاصلاح بلادهِ واستثمار خيراتها او لتقويتها ومنع الاجنبي عن الطمع فيها

والصحافة ولا سيما الصحافة الصفراء جاءت ضغثاً على ابالة وشاركتها الصحافة القديمة المعروفة بالرزانة والتبصر فتبارت كلها في الكسب ولا تكسب الاَّ اذا اكثر القراء من ابتياعها ولا يكثرون الاَّ اذا حملت اليهم اخبار الحروب والخصومات . فترى في اثارتها اكبر مروّج لها حتى قيل انها هي التي اضرمت نار الحرب بين اميركا واسبانيا

هذه الخواطر جالت في بال هنري برون وهو على ظهر السفينة اليابانية في البحر الاحمر في بدء السنة الميلادية سنة ١٩٠٤ فأسف لانهُ جارى اباهُ على مطامعهِ وودَّ ان يكاشف اختهُ بذلك وكانت جالسة مع امرأة القبطان تتكلم معها وتسألها عن بلاد اليابان وتلك تسألها عما شاهدتهُ في مصر لانها لم ترد ان تعطي اكثر مما تأخذ خُلق في اليابانيين ساعدهم على هذا النجاح الذي نجحوهُ في مدة وجيزة . فدنا هنري منهما فعايدتهُ زوجة القبطان برأس السنة ومدت اليهِ يدها فصافحتهُ واشارت اليهِ ليجلس فجلس ولم تكن قد رأتهُ ذلك اليوم لانها لم تفطر مع الركاب ثم قالت لهُ ان اباك من من اعز اصدقائنا وانصارنا ونحن مديونون لكم كثيراً لما تبدونهُ من المساعدة لنا والاهتمام بامرنا فشكرها على حسن ظنها

ثم سألتهُ عما اذا كان قد شاهد الباخرة ورأى ما فيها من الانتظام فقال كلاَّ فنادت ثاني زوجها وكلمتهُ باليابانية ثم قالت بالانكليزية ان الخواجه هنري برون ومس برون اختهُ من اعز اصدقاء اليابان افلا تريد ان تطوف بهما في السفينة تريهما ما فيها من الآلات والادوات ثم قالت لهما ان القبطان كان يود ان يفعل ذلك بنفسهِ لكني سألتهُ عنهُ فقال انهُ على المرقب يهتم بسير السفينة لان هذا البحر كثير الصخور والجزائر المرجانية المخفية تحت الماء فلا يريد ان يفارق المرقب ولا سيما في هذه البقعة . فنزل ثاني القبطان معهما الى محل الآلات واراهما كل قطعة واخبرهما بالمعمل الذي صنعت فيهِ وكان اكثرها مصنوعاً في بلاد اليابان نفسها وشرح لهما الامور التي زادها

صنّاع اليابان من باب التحسين في الآلات الاوربية ولا سيما التي يقتصد بها ما يحرق من الفحم

فقالت دورا لثاني القبطان يظهر لي انكم ستبارون الانكليز في التجارة لان بلادكم جزيرة مثل بلادنا وهي كثيرة الاجوان والمرافىء مثلها و بالقرب منكم بلاد واسعة كثيرة السكان يسهل الاتجار معها

فقال اصبتِ وقد كنا اهل تجارة من قديم الزمان وكانت سفننا التجارية تصل الى كوريا والصين ثم دخل قوم من الاوربيين بلادنا ففتنوها واضطرَّ ملوكنا ان يطردوهم من البلاد وان يحظروا علينا بناء السفن الكبيرة لكي لا نخرج منها ولم نعد الى بناءِ السفن الكبيرة الاّ منذ عهد قريب اي منذ نحو عشرين سنة ثم رأت حكومتنا ان تغري الشركات الوطنية بالاكثار من بناءِ السفن البخارية الكبيرة فقطعت لها الاعانات المالية بعد حربنا مع الصين والآن تسير سفننا الكبيرة الى اوربا واميركا واستراليا وروسيا وكوريا والصين وعندنا خطان من البواخر التي تذهب الى اميركا وخط الى انكلترا ومنهُ هذه السفينة وخط الى استراليا وخط الى روسيا وخطان الى كوريا و١٣ خطًّا الى الصين وفي كل خط عدة من السفن الكبيرة التي محمول الواحدة منها ستة آلاف طن فاكثر وهي تضارع اكبر السفن البخارية واكثرها راحة لركابها . وعندنا الآن ١٠٨٨ سفينة بخارية كبيرة محمولها نحو سبع مئة الف طن و٣٥٠٠ سفينة شراعية كبيرة محمولها اكثر من ثلثمئة الف طن . وعندنا شركتان للسفن التجارية احداها شركة نبون يوسن كيشا من اكبر شركات السفن البخارية في الدنيا

فقال هنري وهل تجارتكم الخارجية كبيرة الى حد يقتضي هذا المقدار من السفن التجارية . فقال نعم وقد كانت قيمة الصادر والوارد في العام الماضي نحو ٥٤ مليون جنيه وينتظر ان تبلغ هذه السنة ٦١ او ٦٢ مليوناً ولا يزال جانب كبير من تجارتنا الخارجية يرد ويصدر في السفن الاجنبية فالسفن اليابانية تحمل نحو عشرة ملايين طن والسفن الاجنبية تحمل نحو ١٦ مليون طن ولذلك لم يزل المجال واسعاً امامنا لبناء سفن اخرى

فقالت لهُ دورا وماذا تفعلون لو نشبت الحرب بينكم وبين الروس فان سفنكم التجارية تضطرُ حينئذٍ ان تبطل سيرها وتختبئ في مرافئكم فتكون الخسارة كبيرة عليكم

فقال نعم قد نضطر ان نتوقف عن السفر مدة ولكن حركة التجارة تزيد قبل الحرب وبعدها زيادة تجبر النقص الذي تنقصهُ في مدتها. وقد ربحنا في الشهور الستة الاخيرة اكثر مما كنا نربح في سنة كاملة من زيادة الشحن ومن غلاء الاجرة واكثرنا مساهمون في شركاتنا فنطَّلع على حسابها كل ثلاثة اشهر وتهمنا مصلحتها لانها عائدة علينا . واسلوب الاشتراك هذا شائع عندنا اكثر مما هو شائع عندكم

فالتفتت دورا الى اخيها وقالت لهُ أتتذكر حديثنا في نادي الصحافة وانا يعجبني هذا الاسلوب وارى انهُ الحل الوحيد لمسألة العمال واصحاب الاعمال لان العامل الذي لهُ سهم من الربح يكون اوفر همةً ونشاطاً واهتماماً من العامل الذي ليس لهُ الاَّ اجرتهُ

ثم صعد بهما ثاني القبطان الى ظهر الباخرة ولما بلغاهُ رأيا الركاب مجتمعين حول سمكة كبيرة من السمك الطيار طارت في الهواء او وثبت فيهِ ووقعت على ظهر السفينة وكان احدهم يبسط جناحيها وهي زعانف كبيرة بين اضلاعها غشاءٌ صفيق فسرَّ هنري برؤيتها لانهُ قرأ عنها ولم يرَها قبل الآن فجعل يتفحصها ملياً ثم مضى وغسل يديهِ وعاد ووقف ينظر الى البحر لعلهُ يرى سمكة اخرى تطير منهُ وقال لاختهِ ارأيت يا دورا عاقبة الطمع هذه السمكة مخلوقة لتعيش في الماء فلم تقنع بذلك بل طلبت ان تعيش في الهواءِ ايضاً وتزاحم الطيور على معيشتها فاودت بنفسها

فضحكت دورا وقالت ارأيت انت عاقبة من يطلب ان يعيش في غير عنصرهِ

فقال نعم يقع ولا يعود يقوم . ولكن تظنين حقيقة ان الفرق بيننا عظيم بهذا القدر

فقالت لا اظن ولكن لا يخلو الامر من شيء من الفرق

فقال اصبتِ لقد طلبتُ منها ان تسمح لي بالكتابة لها فابت ولو كانت انكليزية او اميركية ما طلبتُ منها ذلك بل كنت اكتب اليها من غير ان اسألها وعلى كل حال كانت تقرأ مكاتيبي وتكاتبني

فقالت اظن ان الحق معها في هذا الامر نعم لو كانت تعرفك معرفة كافية وكان

بينكما صداقة قديمة ما كان وجه للاعتراض على المكاتبة . هب ان الشاب المسلم حليم بك طلب مني ان اكاتبهُ فهل كنت اجيبهُ الى ذلك كلاّ . او هب ان اميناً اخا بهيَّة طلب ان اكاتبهُ فالمرجح عندي اني كنت اعتذر عن قبول طلبهِ

فقال اذاً لا فرق بينكِ و بينها

فقالت كلاّ قد لا يكون أقلّ فرق بيني و بينها وقد تكون احسن مني من كل وجه ولكن عادات قومها ونظرهم الى الامور تختلف عن عاداتنا ونظرنا اليها وقد يسهل التوفيق بين عاداتهم وعاداتنا وقد لا يسهل . هذا لا يمنع ان تكون هي معتادة عاداتنا كلها وان لا يختلف عليها الحال في شيء ويحتمل ايضاً ان يكون ابوها وامها واخوها كذلك . ولكن واحسرتاهُ على اخيها تُرى ما هي حالهُ الآن

فقال لا اعلم وأكدي اني كنت افتكر بهِ وحدهُ وانت تتكلمين الآن . اذا أصيب بالتهاب الدماغ او بنزف فيهِ ضعف الامل بنجاتهِ

فقالت اما النزف فقد مضى وقتهُ واما الالتهاب فكان يجب ان يظهر قبل الآن. ما هي عبارة تلغرافهم

فقال العبارة تطمن ولكن كل الكتَّاب عن الشرق يقولون ان الشرقيين لا يذكرون الصحيح عن مرضاهم كأنهم يتشاءمون من ذلك

فصمتت وعادت تنظر الى البحر

فقال لها يجب ان نذهب ونشكر زوجة القبطان فقالت نعم وسارت معهُ . وكانت زوجة القبطان واقفة مع برودي يتحدثان فلما رأتهما مقبلين نحوها تبسمت لهما وقالت عسى ان تكونا قد رأيتما ما سركما

فقال هنري حقًّا أن كل شيء من الطبقة الاولى وقد كان ثاني القبطان على غاية اللطف واخبرنا اموراً كثيرة مفيدة ولم اكن اعلم ان حلفاءنا بلغوا هذه الدرجة من المهارة في بناءِ السفن وعمل الآلات

فقالت نعم ونحن ربينا في البحر مثلكم ولقد سافرت مع زوجي مراراً كثيرة لاني افضل البحر على البر . هل رأيتما السمكة الطيارة . في هذا البحر كثير من الغرائب

ولكن بحور اليابان اغرب وجزائرها جميلة جدًّا ليست قاحلة مثل الجزائر التي نراها هنا بل مغطاة بالاشجار اليانعة وانا مسرورة جدًّا لانكما ذاهبان الى بلادنا وسترين يا مس برون كيف تكون في فصل الربيع حينما يظهر زهر الكرز الوردي وتلبس الارض حلل الاقحوان بالوانهِ الفضية والذهبية ولا بدَّ من ان يدعوكما الامبراطور الى حدائقهِ فتريا فيها جمال الطبيعة وبدائع الصناعة وسيكون وصولنا الى اليابان قبلما يبتدىءُ فصل الربيع ولكن ابناء انكلترا واسكتلندا لا يسوءُهم منظر الثلج مغطياً السهول والآكام . ثم تكتسي الارض خضرة فترون في سهولها ونجودها وآكامها ووهادها وبحيراتها وغدرانها وحراجها الملتفة وحقولها المنبسطة وفجواتها العميقة وشلالاتها المتصببة وما تتشح بهِ من وشي الازهار وطراز الخمائل ما ينسيكم هضاب اسكتلندا وبحيراتها

فسرَّت دورا بهذا الوصف وهذه البلاغة وقالت لها لقد شوَّقتِنا ايتها السيدة الى مشاهدة بلاد زهر الكرز ومطلع الشمس وانا واخي سنغتنم هذه الفرصة للتمتع بكرم ضيافتكم ونقيم عندكم الصيف كلهُ اذا استطعنا

وكان برودي واقفاً لا يتكلم فقالت لهُ دورا باسمةً وانت يا مستر برودي ألا تقيم مثلنا في تلك البلاد الجميلة

فقال كيف لا ويكون فيها مثلكِ ومثل السيدة الكريمة

فتبسمت الاثنتان وحنتا رأسيهما لهُ وقال هنري وانا اعود الى مصر اذا لم يكن لي مكان معكم

فقالت لهُ امرأة القبطان انت قبل الكل ويا حبذا لو تشرَّفنا بزيارة والدك ايضاً ونحن النساء لا ننفع شيئاً بدونكم . فشكرها على هذا التجمل ونظر الى اختهِ نظر الظافر فضحكت ولم تتكلم وسمعوا حينئذٍ الجلجل يدعوهم للغداء فمشوا نحو غرفة المائدة

لما كان هنري ودورا يتعهدان آلات السفينة كان الخواجه لاقي في مركبتهِ يطوف لمعايدة اصدقائهِ الاوربيين والسوريين برأس السنة وقد ركب احدى مركبتيهِ خلافاً لعادتهِ لانهُ يفضل ان يركب مركبة اجرة قائلاً انهُ اذا حدث حادث فلا اكون

مسئولاً كما لو كنت في مركبتي لكن ابنهُ ركب معهُ للمعايدة في هذه النوبة وابى الآن يركبا مركبتهما فجاراهُ على ذلك واتفق انهُ بينما كانت المركبة مارَّة من شارع المناخ الى ساحة الاوبرا صدمت رجلاً ايطاليًّا مارًّا في الطريق فوقع على الارض وداس احد الجوادين على خاصرتهِ فكسر بعض اضلاعهِ وبادر الناس من النيوبار وبعضهم من الايطاليين وعلا الصياح فأنزلوا الخواجه لافي وابنهُ من المركبة وكادوا يمزقونهما لولا مبادرة رجال البوليس الى اغاثتهما. وسيق الخواجه لافي وابنهُ الى مخفر البوليس رغماً عن اعتراضهِ بانهُ اجنبي. ووصل الخبر الى زوجة الرجل الايطالي واولادهِ فتسارعوا الى المخفر وهم يصيحون ويجلبون وحُمِل الرجل الى المستشفى وفحصهُ الاطباء فرأوا انهُ كسرت اربع من اضلاعهِ وان شظاياها دخلت الرئة وحالتهُ تنذر بالخطر. وطار الخبر الى اصدقاءِ الخواجه لافي فبادروا اليهِ وساروا بهِ الى دار القنصلية فاعطى الضمان الكافي وقُبض على السائق وأودع السجن وعاد الخواجه لافي الى بيتهِ اصفر الوجه غائر العينين وكان الخبر قد وصل الى زوجتهِ وابنتهِ ان مركبتهُ قتلت رجلاً ايطاليًّا وان الايطاليين تجمهروا عليهِ وعلى ابنهِ وقتلوهما فلما رأتاهُ داخلاً سرّي عنهما بعض الشيء وحمدتا الله اسرائيل على سلامتهِ وسألتاهُ عن يوسف فقال ان عزرا اخذهُ الى بيتهِ. ولما هدأ روعهُ قص عليهما ما جرى بالاختصار وقال هذه عاقبة التظاهر الفارغ لو ركبنا مركبة أجرة ما حدث شيء من ذلك اما الآن فلا يعلم الاّ الله الى اين تنتهي حالنا ولا سيما اذا مات الرجل ومن ينجينا من ايدي زوجتهِ واولادهِ اذا نجونا من القضاء

فقالت زوجتهُ هي سنة شؤم من اولها ولكن الرجل فقير على ما يظهر فاعطهم الف جنيه او الفي جنيه او عشرة آلاف جنيه. هوذا فلان بك صدمت مركبتهُ رجلاً من الوجوه ولم يحكم عليهِ بسوى عشرة آلاف جنيه

فقال نعم ولكن الرجل الغني المطموع فيه يتناتشهُ الناس من كل جهة والآن لو لم يكن في جيب يوسف عشرة جنيهات ما وصلت الى هنا سالماً واظنهم يطمعون بنصف ما نملكهُ. ثم اسند رأسهُ الى ظهر الكرسي وجعل ينفخ وذهبت استير فأتتهُ بكاس ماءٍ فيهِ قليل من الكنياك لانعاشهِ فشربهُ وقال لها من افتكر في مصيبة غيرهِ هانت

عليهِ مصيبتهُ هل سمعتم شيئاً عن امين فقالت نعم لا يزال على حالهِ

فقال والرجل الذي داستهُ المركبة كيف ولهُ زوجة واولاد وهم على فظاظتهم لا يستطيع الانسان الاّ ان يشفق عليهم اما الرجل نفسهُ فلا محل للشفقة عليهِ لانهُ هو رمى نفسهُ امام المركبة كأنهُ قاصد ان يوقعنا في هذا المشكل

ثم قام وجعل يمشي ذهاباً واياباً ويداهُ وراء ظهرهِ وهو يطل من الشباك احياناً كأنهُ ينظر الى شيءٍ مع انهُ غير منتبه الاّ الى ما يجول في بالهِ . ثم سار الى حيث التلفون وطلب مكتب الافوكاتو احمد بك واستدعاهُ اليهِ ولم يكن الاّ عشرون دقيقة حتى حضر وهو من اكبر المحامين واوسعهم اختباراً وكان موكلاً بكل اشغال الخواجه لاڤي القضائية فهو يكتب لهُ عقود البيع والمشترى والدين والرهن . فلما حضر استقبلهُ الخواجه لاڤي بالترحيب وقصَّ عليهِ الحادثة كما جرت وقال لا شبهة عندي ان الرجل رمى نفسهُ امام المركبة متعمداً . فقال احمد بك قد يكون الامر كذلك لان هؤلاءِ الطغام يسهل عليهم كل شيءٍ ولا سيما اذا كانوا من جماعة الفدامين كما يقال عنهم ولكن كيف نستطيع ان نثبت ذلك اما السائق فلا بدّ من معاقبتهِ جنائيًّا والزامنا بالتعويض المدني وسأذهب الآن واطلع على محضر البوليس

ولم يكد يخرج حتى دخل عزرا ومعهُ يوسف دخل رافعاً رأسهُ كأنهُ جاء بغنيمة فسلم على مدام لاڤي وعلى استير واشار الى المشقة التي لقيها في تخليص يوسف من ايدي الايطاليين وقال انهُ لولم يكن يعرف البعض منهم ويستعن بهم على غيرهم ما استطاع ذلك . فشكرتهُ مدام لاڤي على نخوتهِ . وعرض عليهم ان يتوسط لهم في القنصلاتو لانهُ يعرف بعض رجالها حتى يحل المشكل بالتي هي احسن من غير مداعاة ومرافعات فقال لهُ الخواجه لاڤي افعل ما بدا لك ولكن لا تقطع قبلما نستشير الافوكاتو بهِ

فقال هذا ليس من رأيي واخاف من ان الافوكاتو يزيد العقد ولا يحلها لانهُ يلجأ الى الوسائط القانونية ونحن نريد حلها حبيًّا

فقال لهُ الخواجه لاڤي اسعَ جهدك وعلى كل حال لا بدّ من التبصُّر قبل بت

الحكم لئلاَّ تقع في ورطة جديدة

الفصل الحادي والعشرون

الاعتداء

قومي يا بهيَّة اتت استير لتأخذكِ الى النزهة

بهيَّة — دعيني يا أماهُ فان نفسي صغيرة ولا رغبة لي في الخروج من البيت الآن

مدام واصف - يقول الحكيم ان اخاكِ احسن جدًّا ومسألة ابيك عرضية ولم يبق ما يشغل البال والحمد لله وانتِ محتاجة الى الراحة وشم الهواءِ

بهيَّة — انتِ احوج مني فلماذا لا تخرجين

فتنهدت مدام واصف وقالت الامهات للشقاء والتعب قومي يا بنتي واذهبي مع استير اما انا فان ذهبتُ فلا يستريح بالي دقيقة وفوق ذلك فانا اقوى منكِ كثيراً

بهيَّة — الا تظنين ان خروجك يفيد اخي لانهُ يقول لو لم يكن بال امي مطمئنًّا عليَّ ما خرجت من البيت وقد مضى عليك الآن اربعون يوماً لم تخرجي فيها. نعم اكثر من اربعين يوماً من قبل رأس السنة بيومين والآن نحن في العاشر من فبراير اما انا فخرجت مراراً

كيفما كان الحال فانتِ احوج مني الى الخروج واستنشاق الهواءِ قومي ولا داعي لتغيير ثيابك البسي برنيطتكِ فقط

قالت ذلك وخرجت من غرفت ابنتها الي غرفة الجلوس حيث كانت استير في انتظارها

اما بهية فكان في يدها كتاب تقرأ فيهِ وهي مشرّدة الافكار فقد قرأت بالامس ما شغل بالها - قرأت عن نشوب الحرب بين الروس واليابان وكانت قد علمت من دورا ان اخاها ذاهب الى بلاد اليابان حتى اذا نشبت الحرب بين اليابانيين والروس يمضي الى ساحة القتال ويعيّن لجريدة ابيهِ المكاتبين الاكفاء في كل الجهات التي يمتد القتال اليها فكانت تقرأ الصفحة بعد الصفحة من الكتاب الذي في يدها ولا تعي

شيئاً و بقيت كذلك نحو ساعتين الى ان دخلت امها ودعتها لتذهب مع استير . وكثيراً ما حاولت جمع افكارها ولامت نفسها على التفكير في شاب قد يكون نسيها الآن لا سيما وانهُ لم يرسل اليهم الاَّ كتابين واحداً من السويس وواحداً من عدن وانقطعت اخبارهُ عنهم منذ شهر من الزمان واكثر كتابيهِ سؤال عن اخيها ووصف سفرهم برًّا وبحراً . نعم ان دورا كتبت اليها واكثرت من ذكرهِ ولكن كان ذكرهُ يرد معها على سبيل العرض كأن تقول قال لي هنري كذا او دعاني هنري او دعوت هنري او قلت لهُ اوقال لي ولم تشر الى ما بينهُ وبينها الاّ مرة واحدة اذ قالت « اننا كلينا نود الرجوع الى مصر باقرب ما يمكن ولا سيما هنري ولا بدَّ من انك تعلمين السبب » ولم تزد على ذلك . ولما قرأت هذه العبارة قالت في نفسها لا بدَّ من ان يكون قد اخبر اختهُ بما دار بيننا من الحديث تُرَى ماذا جرى لهما بعد ذلك فان البحر امام جزيرة سقطرى كثير المخاطر وقد سمي المضيق الذي هناك ببوغاز باب المندب لان الاحياء يندبون الغرقى فيهِ على ما قرأت في كتب الجغرافية وفي العام الماضي غرقت سفينة كبيرة هناك ورياح الموسم تهبُّ في الاوقيانوس الهندي فتعبث بالسفن ان لم تغرقها وجاءت الآن هذه الحرب ولا بدَّ من ذهابهِ اليها لان الانكليز لا يحجمون عن المهالك في سبيل المجد . مَن من ابناء المصريين يذهب الى الحرب عفواً من تلقاء نفسهِ او مَن يستطيع ان يدفع البدل العسكري ولا يدفعهُ . بالامس رأيت رجال القرعة مارين في الشارع وامهاتهم وراءهم بالنوح والبكاء كأنهنَّ في مأتم ولكن من يدري ما يصيبهُ هناك وكيف يكون حال اختهِ وهي في بلاد الغربة وحال أمهِ وهي بعيدة عنهُ

ولم يكد هذا الخاطر يخطر على بالها حتى دمعت عيناها وشعرت كأن قلبها ضاق او كأن احداً قبض عليه بيديه وعصرهُ فعسر عليها التنفس وبينما هي على هذه الحال قرعت امها الباب ودخلت واخبرتها بقدوم استير لتخرج بها الى شم الهواء على ما تقدم

واطلعت استير في المساء السابق على تلغرافات النهار ورأت اباها مشغول البال باخبار الحرب وهبوط سندات الدين الروسي فقادها ائتلاف الافكار الى دورا واخيها

وبهية وكانت قد لحظت ان هنري يحب بهية او يميل اليها وفاتحت بهية في هذا الموضوع اكثر من مرة تلميحاً لا تصريحاً فلم تعلم منها شيئاً لا سيما وان بال بهية كان مشغولاً باخيها وابيها فلم تشأ استير ان تتطرّف في السؤال وتستقصي في البحث . ودعتها مراراً للخروج معها الى النزهة وكانتا تتكلمان في المواضيع القريبة كوقوع اخيها ومرض ابيها ودوس مركبة بيت الخواجه لاقي للرجل الايطالي واقامة القضية عليهم في المختلط ومطالبتهم بعشرين الف جنيه وقرب اقتران حليمة بنت راغب باشا وما خاطت من الملابس الفاخرة وصاغت من الحلى الثمينة وقد ساعدتها استير في اختيار بعضها واستغربت الاثنتان كيف ان واحدة لا يباح لها الخروج بين الناس تلبس على آخر زي من ازياءِ باريس وتكلفها كل بدلة من ستين جنيهاً الى ثلاثمئة جنيه وقد اشترت تاجاً من الماس وتاجاً من الزمرد وطقمين كاملين الواحد من الماس والثاني من الماس والزمرد بلغ ثمنهما اكثر من ثلاثة آلاف جنيه واهدى اليها عمها طقماً من الماس والياقوت الشرقي الحر واهدت اليها امرأة عمها دبوساً فيه الماسة الصفراء المشهورة التي من جواهر البرنسس جميلة هانم ولولا صفرة فيها لبلغ ثمنها ألوف الجنيهات اما اللؤلؤ فلا حساب لهُ على غلاءِ ثمنهِ فان المناشف ووجوه المخاد مطرَّزة بهِ كأنهُ الخرز الابيض كل ذلك وخطيبها لا يملك شيئاً الاَّ راتبهُ وهو طفيف لا يقوم باجور الخدم لكن ابا حليمة سيعطيها الفاً وخمس مئة فدان من اجود الاطيان ريعها السنوي نحو تسعة آلاف جنيه وينتظر ان يرتقي خطيبها يوماً ما فيصير من نظار الحكومة لانهُ مشهور بالذكاءِ وحسن الادارة والمداراة وقد كان متزوجاً امرأة فقيرة مثلهُ لما كان موظفاً في وظيفة صغيرة فطلقها الآن لكي يقترن بابنة راغب باشا . وكانت استير وبهية تتحدثان بهذه المواضيع حينما تزور استير بهية او تخرجان للنزهة وتستغربان كيف تقبل حليمة ان تقترن برجل طلق زوجتهُ لكي يتزوج بها وقالت بهية انها تعرفهُ قد زارهم مرةً وهو شاب لا تظن ان عمرهُ اكثر من ثلاثين سنة ابيض الوجه جميل المنظر ثم قالت ولعل حليمة لا تعلم انهُ كان متزوجاً وطلق زوجتهُ . فقالت استير كلاَّ بل هي تعلم ذلك وقد اعترضت في اول الامر على التزوج بهِ لكن زارتها امرأة سمسارة وجعلت تتردد عليها يوماً بعد يوم الى ان اقنعتها

انهُ طلق زوجتهُ حبًّا بها

بهية — وهل صدقت حليمة ذلك وهل رأت هذا الشاب قبلما رضيت الاقتران بهِ

استير — يظهر انها صدقت او تظاهرت بالتصديق وعلى كل حال لا يتعذر عليها ان تراهُ لانهُ لا بد وان يكون قد زارهم مراراً ولدار الحريم جناح فوق السلاملك فاذا جلست وراء شبابيكهِ رأت كل من في الحديقة امام دار السلاملك واظنها جلست هناك مراراً واذا كان كما وصفتِ من صغر السن وجمال المنظر وانفتاح ابواب الترقي امامهُ فلا تعود تلتفت الى تزوجهِ بامرأة اخرى قبلها

بهية — انا لا اعترض على تزوجهِ بامرأة اخرى قبلها لانهُ لو ماتت امرأتهُ الاولى وتزوج حليمة وهو ارمل ما كان عندي اقل اعتراض على ذلك ولكن أن يطلق زوجتهُ لانها فقيرة ويتزوج باخرى لانها غنية هذا شيء لا يطاق ومع ذلك فقد يكون لهُ عذر مقبول

استير — اظن انني سمعت ما يشبه ذلك سمعت يوسف يقول مرة ان امرأتهُ الاولى سليطة جاهلة غير متهذبة مرَّرت حياتهُ والظاهر ان الشبان تحدثوا في امرهِ كما نتحدث نحن وهذا يدل على ان الناس اخذوا ينتبهون لهذه الامور ويرون اللائق منها وغير اللائق

فقالت بهية ولكنني سمعت ان ابن عمها طلبها فلماذا لم تقبلهُ

فقالت استير نعم طلبها ولكنهُ ولد خليع سكير بذر اموال ابيهِ وباع قصرهُ في شبرا وخسر ثمنهُ بالقمار في ليلة واحدة ويقول ابي انهُ بذَّر اكثر من كل اولاد الاغنياء فان ثروة ابيهِ كانت تقدر بمليون ونصف فلم يبقَ منها غير ما هو موقوف وقفاً لا يستطيع بيعهُ وهو نحو الف فدان وتربيتهُ يتهدد امهُ من يوم الى آخر انهُ يقتل نفسهُ او يقتلها ان لم تعطهِ ما يريد وقد رافق واحدة من بنات التياترو في الصيف الماضي وذهب معها الى باريس فتركتهُ هناك بعد ان سلبت كل ما معهُ ويقول الآن ان لا بدَّ لهُ من اخذ حليمة والاَّ قتلها وقتل زوجها اذا تزوجت احداً غيرهُ اما حليمة فتضحك عليهِ وتقول انهُ مجنون . وقد اتى الى ابي يطلب وساطتهُ فنصحهُ ابي ان يحسن سيرتهُ اولاً ويضع

عقلهُ في رأسهِ ولكن هيهات . ويقول ابي ان هذا مصير اكثر اولاد الاغنياء ان لم يربوا كأنهم فقراء حتى يصيروا يعرفون قيمـة المال وان الذي يتعلق بالقمار منهم لا يرجى اصلاحهُ ابداً ولا بدَّ لهُ من ان يبدد ثروتهُ مهما كانت ويتلف صحتهُ من طول السهر . ولولا طريقة الوقف لما بقي لاولاد الاغنياء شيءٌ يعيشون بهِ والوقف ايضاً قلما يفيد المسرف لانهُ يستدين على الريع بالربا الفاحش ويتلف املاكهُ ولا يتولى الاعتناء بها بل يتركها لرحمة المستأجرين ولكن الوقف يحفظ العين على كل حال الى ان يشب لصاحبهِ ولد حسن التصرف فيعتني بهِ

وكثيراً ما ذكرنا دورا واخاها ولكن على سبيل العرَض لان بهية كانت تتحاشى هذا الموضوع فاذا عرَّضت استير بهِ استطردت بهية الى حديث آخر حالاً قبلما يتسع مجال الكلام فيهِ كانها كانت تظن الناس كلهم رقباء عليها يعلمون ما يحيك في فؤادها

ودخلت استير غرفة بهية حينئذٍ وتعانقتا وساعدتها على وضع الدبابيس في برنيطتها واتت امها تقول لا تخرجي من غير بلارين الفرو لان الهواء بارد . ودخلت بهية غرفة اخيها فقبَّلت وجنتيهِ فنظر اليها باسماً وقال الى اين الى النزهة احسنتِ لقد مللتُ من هذه الحياة مع مَن انتِ ذاهبة

فقالت مع استير ألا تريد ان تقوم وتخرج معنا

فشخص اليها وقال قولي لاستير ان مرضي لا يعدي ولكن الظاهر انني لا اخطر ببالها

بهية — انت غلطان فانها تاتي كل يوم مرةً او مرتين تسأل عنك ولكن الطبيب لم يسمح بان تدخل وتراك لا هي ولا غيرها

وما هو اعتراض الطبيب او ان الاطباء يشددون في الاوامر والنواهي لكي تزيد اهميتهم . صار لي اربعون يوماً مرمياً هنا ماذا فعلوا لي • الطبيعة طببت نفسها

بهية — اسكت اسكت الآن ثم انحنت ثانية وقبَّلت وجنتيهِ وخرجت والتقت بامها امام الباب فاسرَّت في اذنها قائلة طلب ان يرى استير فما قولك . فقالت امها وماذا نقول للحكيم

ووقفت الاثنتان صامتتين ثم قالت بهية اني اذهب الآن مع استير واذا اتى الطبيب في غيابنا فاسأليه عن دخول استير فاذا سمح بذلك تدخل وتراهُ بعد رجوعنا. وخرج الاثنتان للنزهة في مركبة بيت الخواجه لاڤي فسارت بهما في شارع الظاهر فالفجالة ومرّت من امام شبرد فالكنتيننتال ودارت من امام البنك الاهلي وساقوى وسارت فوق الكبري الى الجزيرة ومنها في سكة الجيزة فسكة الاهرام — طريق النزهة العادي الذي يسير فيهِ اكثر الذين يخرجون الى النزهة من سكان القاهرة . وكانت اروقة اللوكندات غاصّة بالسياح رجالاً ونساء وسكة الجيزة غاصّة بالمركبات تسير فيها الهوينا ولا سيما في الجزيرة الصغيرة وركابها ينظرون بعضهم الى بعض ويحيون بعضهم بعضاً بالتبسم وحنو الرأس كأنهُ حُظر عليهم الكلام والنسيم يعبث بريش البرانيط والهوانم يطللنَ من شبابيك المركبات المقفلة لكي لا تفوتهنَّ رؤية شيء . وكانت حليمة وامها تتنزهان في سكة الهرم فرأتا استير وبهية ووقفت المركبتان متحاذيتين وجعلتا تسألان بهية عن اخيها وابيها وتطلبان منها ان تحضر العرس وعاتبتها حليمة لانها لم تأتِ لترى جهازها وحلاها وبينما هي تتكلم ملتفتة الى بهية واستير اقبل شاب في مركبة من نوع الدوكار آتياً من جهة الهرم وكأنهُ عرف مركبة حليمة وامها من خيلها فاوقف مركبتهُ الى جانبها واخرج مسدساً من جيبهِ واطلق منهُ رصاصتين على حليمة واطلق لجوادهِ العنان فسارت بهِ المركبة كالبرق ووقعت حليمة في المركبة وأغمي على امها وصاحت بهية واستير وعلا صياح مَن في المركبات الاخرى وحمحمت الخيل واضطربت وادار البعض مركباتهم وحاولوا اللحاق بالجاني لكن مرّ قطار الصعيد حينئذٍ وأقفل باب سكة الحديد وعلت الضوضاء وكان في احد المركبات طبيب فنزل الى مركبة حليمة وحاول فتحها فنزل الآغا من جانب السائق ومنعهُ ولكن كثر الناس وامسكوا الآغا ومنعوهُ من التعرُّض للطبيب وحملوا حليمة ونقلوها الى مركبته وهي تشير الى مكان الرصاص في ذراعها اليسرى وخاصرتها ولم يكن هناك بيت قريب ينقلونها اليهِ ولا استحسن الطبيب ان ينقلوها على هذه الصورة الى بيت ابيها ونزلت بهية فجلست معها في المركبة وجلست استير مع امها ورأى الطبيب ان ينقلها الى بيت

بجانب المدرسة الزراعية الى ان يصل الخبر الى ابيها

وتبرع اثنان في اتوموبيل ان يمضيا سريعاً ويخبرا ابيها ويأتياها بالجرّاح . وانتشر الخبر في العاصمة كلها ان نجم الدين بك اطلق الرصاص على ابنة عمهِ لانها ابت الاقتران بهِ فقال البعض انهُ مصاب بدخل في عقلهِ وقال غيرهم انهُ سكران وقال آخرون بل انهُ فعل ذلك عن نظرٍ وتروٍّ وقد صمم على قتلها لانها ابت الاقتران بهِ وهدّدها بذلك مراراً ولم يعد لاهل العاصمة خاصتهم وعامتهم غير هذا الحديث

الفصل الثاني والعشرون

شؤون مختلفة

نهض الخواجه لاقي صباح اليوم التالي والتفّ بفروة وجلس يفكّر في احوال الدهر وما مرَّ بهِ من العبَر منذ اربعين يوماً الى الآن . اليابان شهرت الحرب على روسيا ودمَّرت اسطولها ودخلت منشوريا . الاوراق الروسية هبطت هبوطاً فاحشاً وتبعتها اكثر الاوراق المالية فافلس كثيرون من الماليين . القطن ارتفع ثم هبط فخسر بهبوطهِ كثيرون من اصدقائهِ ولا سيما امين بن واصف بك فاضطرَّ ابوهُ ان يوفي عنهُ نحو تسعين الف جنيه واصيب بمرض من جراء ذلك . وامين نفسهُ سقط سقطة كادت تقضي عليهِ ولا يزال طريح الفراش وسلامتهُ غير مكفولة . وهو داست مركبتهُ رجلاً فاماتتهُ واقيمت عليهِ قضية مدنية طولب فيها بعشرين الف جنيه والغالب انهُ يلتزم ان يدفع هذا المبلغ او ما يقاربهُ عدا اتعاب المحاماة . والآن اصيب بيت صديقهِ راغب باشا بمصيبة من اكبر المصائب فان الرصاص خرق خاصرة حليمة من يد شاب خليع مجنون بدَّد ثروة ابيهِ

راجع هذا التاريخ وهو يقول سنة نحس من اولها نعم انني لم اخسر شيئاً حتى الآن بل ربحت واذا دفعت عشرين الف جنيه كما تطلب ارملة ذلك الرجل لا يقلُّ ربحي . وقد تمَّ لنا مشترى المئة الف فدان من الحكومة بالثمن الرسمي والربح منها وافر جدًّا لاننا اذا انفقنا على الفدان خمسة عشر جنيهاً لاروائهِ وتصليحهِ كما يقدَّر

المهندسون يبقى الربح كثيراً لان الفدان هناك يصير يساوي ستين او سبعين جنيهاً والصعوبة الكبرى في جلب العمال ولا بدَّ من اغرائهم ببناء العزب لهم ودفع الاجور العالية ورأيي ان لا نغريهم بدفع الاجور العالية لئلاَّ يعتادوا الكسل والطمع ولكن نعطي كلَّ عائلة منهم فداناً او فدانين فيصير لهم ملك في الارض اي يصير لهم جذور فيها وترسخ اقدامهم هناك فنصير بمأمن من تركهم لنا والفلاَّح يخدم عشرة افدنة بالراحة ومع آلات يخدم عشرين فاذا كان لهُ فدان او فدانان يبقى يخدم لنا عشرة افدنة او عشرين فداناً اي اذا وهبناهم عشر الاطيان احيينا بهم التسعة الاعشار الباقية والاَّ فلا فائدة من الزراعة . وهنَّأ نفسهُ لانهُ ابقى لهُ اربعين في المئة من اسهم الشركة التي الفها لهذه الاطيان وخمسين في المئة من اسهم التأسيس. ثم عاد فقال ولكن هل زادت راحتي بزيادة ثروتي كلاَّ بل زدت تعباً وهمَّاً. الناس يتنعمون الآن في فرشهم في هذا الصباح البارد وانا جالس هنا منذ ساعة وافكاري تنتقل من موضوع الى موضوع . شغل شغل من الصباح الى المساء وافكار وهموم في النهار والليل . ولم ابع شيئاً من القنصليد الانكليزي الذي عندي فاذا هبط ثمنهُ كما هبط وقت حرب الترنسفال تكون الخسارة كبيرة جدًّا ويظهر من التلغرافات التي وردت امس انهُ يخشى من ان انكلترا وفرنسا تشتبكان في هذه الحرب فاذا وقع ذلك خربنا ولكن لا يحتمل ان يقع ما دامت ازمَّة السياسة في يدنا . ألم يقل لي لورد بنفيلد لما كان هنا منذ سنتين انهُ لم يعد في الامكان وقوع الحرب في اوربا ولا سيما بين الدول الكبيرة التي لنا فيها مصالح مالية كبيرة وقولهُ حجة فلا خوف من ذلك ومع هذا فليس من الحكمة ان ابقي عندي الآن هذا المقدار من القنصليد لان الاخبار الحاضرة لا بدَّ من ان تنزلهُ فاستردَّ ما ابيعهُ الآن حينما يهبط ثمنهُ واكتفي بحصر شغلي في مصر فان الارباح فيها ستزيد بازدياد العمران وتكاثر السكان ولا بدَّ من توجيه العناية الى ضواحي العاصمة ومشترى كل ما يمكننا مشتراهُ من الاطيان والرمال لانها ستصير كلها اراضي بناء ما اوسع ابواب العمل . ترى هل تخطر هذه الافكار ببال يوسف . لا يزال نائماً حتى الآن ولا ارى منهُ اقل همة اوطمع فمن اين ورث هذا الخلق يا ترى لا مني ولا من امهِ لكنهُ على كل حال احرص من

ابن واصف بك ولوكان يميل الى التبذير والابهة اكثر منهُ . لعن الله الابهة فسنخسر بسببها عشرين الف جنيه . ليس احسن من البساطة في المعيشة . ولكن لمن نجمع المال ان لم نصرفهُ نحن ولا صرفهُ اولادنا . آه هذه مسألة صعبة وعلى كل حال يجب ان لا نجعل مالنا سبباً لزيادة تعبنا فاذا تُرِكَ الحال لابني يوقعنا كل يوم في مشكل جديد لا نخلص منهُ الاَّ بشق الانفس

بينما كانت هذه الافكار تتزاحم في بالهِ اتت استير وقالت لهُ ان كنت عازماً على الذهاب الى بيت راغب باشا فخذني معك فقال لها حباً وكرامة انزل الى المكتب اولاً وافتح البوسطة ثم اعود واذهب معكِ او تعالي انتِ اليَّ الى هناك فنذهب معاً . فدنت منهُ وقدَّمت لهُ وجهها فباسها وقال اذاً انتظرك في المكتب . رأيت الطبيب البارحة وانا عائد في المساءِ فقال لي ان الرصاصة التي دخلت ساعد حليمة خرجت منهُ ولا ضرر منها ولكن الرصاصة الثانية التي دخلت خاصرتها لم تزل فيها ولم يهتدوا اليها حتى الآن . ما اكبر هذه المصيبة على راغب باشا

فقالت أعلى راغب باشا فقط وماذا تقول عن حليمة وامها صدقني يا ابي اني لم انم طول هذا الليل ألم يمسكوا ذلك الكلب يجب ان يمسكوهُ و يشنقوهُ . آه لو كنت رجلاً لكنت اقتلهُ بيدي ولكن الرجال لا نخوة فيهم كيف تركوهُ يفلت من ايديهم وكل واحد ينظر الى الآخر

فقال لها هدي روعكِ من قال انهم تركوهُ امسكوهُ امس ووضعوهُ في السجن حالاً

فقالت يجب ان يشنقوهُ . وكيف كانت حليمة في المساءِ هل كانت متألمة جدًّا

فقال كلاَّ ولكن الصدمة كانت قوية عليها واليوم يجتمع الاطباء والجراحون ليبحثوا عن الرصاصة الثانية باشعَّة رنتجن . وقد قال لي الجراح انهُ يرجو لها الشفاء العاجل لانهم صاروا يمنعون الفساد الذي كان يخشى منهُ على الجروح ووَدَّ ان يأخذها الى المستشفى ويعالجها فيهِ لان وسائل النظافة هناك اتم جدًّا مما يمكن ان تكون في البيوت ولكن لم يرد احدٌ ان يسمع منهُ هذا الكلام

فوقفت استير هنيهة كأنها تفكر في هذا الامر ثم سمعت امها تناديها فخرجت ولم

تقل شيئاً ولما خرجت جعل ابوها يفتكر فيها وفي ما يظهره عزرا من الميل اليها والتودد لهم وقال ترى هل يفعل فعل نجم الدين لو صرفناه فارغاً . واجاب نفسهُ بنفسهِ قائلاً من اين لعزرا الدم الشركسي كلاً لا يفعل ذلك ولكنهُ يقلقني ويقلق يوسف وما ادراني لانهُ لا يتعقب يوسف بعد وفاتي حتى يخرب بيتنا لانهُ ولد خبيث ماهر في سلب الناس. كيف احتال على ابن واصف بك حتى سلب من ابيهِ تسعين الف جنيه ولو لم تتدارك الامر لتضاعفت الخسارة فلا بد من كف شرهِ عن ابني ولكن هل أضحي ابنتي لكي انقذ ابني كلاّ فلا محل لعزرا في بيتنا على كل حال ولكن لا بد من اخذ الامر بالحكمة وهو مغرم بالكسب فلا بأس بمساعدتهِ في ذلك حتى نكفى شرهُ

وبينما كان الخواجه لاقي يفكر في عزرا كان عزرا يفكر فيهِ ويقول لقد نجا امين من يدنا بعد ان كدنا نسلخ جلدهُ والحق كلهُ على الخواجه لاقي ولكنني حمّلت الخواجه لاقي جميلاً كبيراً ومرادي ان ابين لهُ احتياجهُ اليَّ واضطرارهُ الى مساعدتي في المشكل الذي وقع فيهِ لانهُ على غناهُ المفرط لا يدفع عشر ما طُلب منهُ الاّ بشق النفس فهو كريم من مال غيرهِ او من المال قبلما يصير لهُ ولكن متى صار في يدهِ فيعز عليهِ ان يفرّط بغرش واحد منهُ . ثم مضى وقابل المحامي وسألهُ عن رأيهِ في المسألة وتظاهر بالغيرة الشديدة على الخواجه لاقي وكان المحامي قد رآهُ في بيت لاقي وحسب انهُ من الاصدقاءِ ان لم يكن من الانسباءِ فذاكرهُ في هذا الموضوع مليًّا وقال لهُ عندي ادلة قوية على ان الرجل أغري اغراء لكي يلقي نفسهُ امام المركبة ولا ارى فرقاً بين من يغري رجلاً بقتل نفسهِ ومن يغريهِ بقتل غيرهِ .

فامتقع وجه عزرا لما سمع هذا الكلام ولم يستطع اخفاء ما حلَّ به ولحظ المحامي ذلك فتنبهت في نفسهِ الظنون وكتم بقية ما علمهُ بالبحث والاستقصاءِ وتظاهر بانهُ لم يتنبه لشيءٍ وظلَّ يكلم عزرا كانهُ من اصدقاء الخواجه لاقي المخلصين . ولم يكد عزرا يخرج من مكتبهِ حتى استدعى الايطاليين اللذين شهدا امامهُ ان القتيل اخبرهما عن رجل اغراه بذلك واستكتبهما كل ما يعلمانهِ ووضع ذلك بين اوراق القضية ومضى واخبر الخواجه

لافي بكل ما عمله من هذا القبيل فلم يصدقهُ في اول الامر لانهُ لم يرَ مسوِّغاً لهُ ووقف صامتاً ثم طلب ان يرى الشاهدين فاحضرهما المحامي اليه فسألهما عما اذا كان عزرا اعطى الرجل شيئاً من النقود فقالا نعم اعطاهُ اولاً نصف ريال احساناً ثم اعطاهُ خمسة جنيهات وقد ارانا اربعةً منها

ولما خرجا قال الخواجه لافي للمحامي كيف العمل الآن ولم ندخل هذا الامر في التحقيق

فقال اني ادخلهُ في المذكرة والمرافعة فتأمر المحكمة باعادة التحقيق ورأيي يا خواجه لافي اننا اذا اثبتنا ان الخواجه عزرا اغرى هذا الرجل اغراءً ثبت من ذلك ان الرجل القى نفسهُ امام المركبة تعمُّداً فنتخلص من المسئولية

فقال الخواجه لافي وماذا يكون عقاب عزرا حينئذٍ

فقال المحامي لا اعلم ولكن لا ارى فرقاً بين من يغري واحداً بقتل غيرهِ ومَن يغريهِ بقتل نفسهِ

فجعل الخواجه لافي يتبصر في ما يصير اليهِ حال عزرا حينئذٍ وكاد يطلب اخراجهُ من هذه القضية ولكن عاد ففكَّر في خبثهِ الذي حملهُ على فعل هذا المنكر فتصلَّب وقال مهما فعلنا معهُ فهو يستحق لانهُ حاول القاءنا في المهالك . لقد اصابت استير في نفورها منهُ . ما اشد شعور النساءِ فانهنَّ يكدنَ يدركن الغيب

في ذلك اليوم عينهِ ورد تلغراف على بيت واصف بك من يوكاهاما في اليابان يقال فيهِ « وصلنا بالسلامة . طمنونا الى طوكيو . هنري »

وتلا التلغراف كل من في البيت حتى امين وبهية وارسلوهُ الى بيت الخواجه لافي وسُرَّت بهية بهِ اولاً ولكن لم يدم سرورها الاَّ دقائق لانها قالت في نفسها كان وصولهُ الى بلاد اليابان بعد نشوب الحرب فلا بدَّ لهُ الآن من الذهاب اليها ومن يعلم ماذا يصيبهُ وان كتب الينا الآن لا يصل كتابهُ في اقل من اربعين يوماً فلا اعلم شيئاً من امرهِ قبل اواخر مارس . واتت ام برسوم حينئذٍ تعود اباها واخاها واظهرت

لها انها تحبها حبًّا لا مزيد عليهِ فزاد نفورها منها وحاولت الهرب من وجهها وقالت ان صح ما يقال عن الجواذب بين الناس فما معنى ما اجدهُ في نفسي من النفور من هذه المرأة وابنها وهما يودانني هذه المودَّة

والتقى عبدالله خادم بيت واصف بك بزين الدار جارية الخواجه عزرا في سوق الخضر ودار بينهما الحديث التالي

زين الدار — شفت شفت يا عبد الله كيف انقلبت الدنيا في هذين اليومين

عبد الله — نعمل ايه يا أمي ولكن نشكر الله على كل حال سيدي احسن وامين باي صار يقعد في سرير وبدنا ربنا بريح البال لمَّا كتاب الشيخ بيومي معي وكنت عايز قول لستي مبارح ولكن جت مسألة بيت راغب باشا فطبقَّت وغلَّقت

زين الدار — أهو كل واحد تعبو على قدو وسيدي عزرا مشغول اليوم عايز يخلّص الخواجه لاڤي من دوخة الرأس الواقع فيها كرمال عينين ستي استير

عبدالله — ستي استير بتزورنا كل يوم والبارح طلب امين باي ان تخش لاوضته وهيَّه عايزه

زين الدار — لادول يهود ما بتجوزوش بالقبط

عبدالله — مين عارف يمكن تكون كتبتلو او كتبلا . في مثل الشيخ بيومي كثير

زين الدار — الله كريم امين باي كويِّس وسيدي عزرا امير والمكتوب يصير

الفصل الثالث والعشرون

السفيران

قرأتُ يا ادورد قصة غريبة جدًّا في مجلة وندسور فان كانت صحيحة فتكون الحروب كلها لاجل المضاربات المالية

هذا ما قالتهُ لادي برون وهي داخلة للغداءِ مع زوجها السر ادورد برون صاحب لندن نيوز

فقال وما هي هذه القصة ولا اظن ان مجلة مثل مجلة وندسور تطَّلع على اسرار

رجال الحكومة وان اطلعت عليها فلا تفشيها

ثم دخلا غرفة المائدة وجلسا للطعام وحدهما لان ولديهما الوحيدين هنري ودورا ذهبا الى بلاد اليابان ولم يكن عندهما ضيوف ذلك اليوم وهذا نادر لا سيما وان بيوت كبراءِ لندن لا تخلو من الضيوف في فصل الشتاءِ . واخذت لادي برون تقصُّ على زوجها القصة التي قرأتها ذلك اليوم قالت

ذهب ستورتن الى باريس برسائل من وزارة الخارجية وأقفل بابا المركبة التي دخلها من مركبات سكة الحديد وُحجزت لهُ بكتابة صريحة على البابين . ولما دخل نظر يمنة و يسرة وتطلع تحت المقعدين كأنهُ يخشى ان يكون احد مختبئاً لهُ هناك ثم جلس وفتح جريدة من جرائد المساء واذا في رأسها عنوان بحروف سوداء كبيرة يقال فيهِ

الصين واليابان

اليابان التجأت الى انكلترا تطالبها بعهودها

البارون نجاساكي في وزارة الخارجية

اجتمع مجلس النظار الآن

وكان هذا الخبر قد شاع في طول البلاد وعرضها ومآلهُ ان الصين عاونت الروس فتلتزم انكلترا ان تعاون اليابان ويترتب على فرنسا حينئذٍ ان تعاون روسيا فتنشب حرب عمومية بين اليابان وانكلترا من جهة وروسيا وفرنسا والصين من الجهة الاخرى. ولم تكد الجرائد الانكليزية تذيع هذا الخبر حتى اذاعت خبراً آخر وارداً من فرنسا مفادهُ انهُ صدرت الاوامر للاسطول الفرنسوي ليقوم من مرافئهِ وصارت الحرب بين فرنسا وانكلترا على قاب قوسين او ادنى

وصفر القطار وتحفَّز للقيام واذا بامرأة طويلة القامة شقراءِ الشعر لابسة ثياب السهرة وهي تعدو على رصيف المحطة الى ان دنت من المركبة التي فيها ستورتن ورآها مقبلة نحوهُ فنهض حالاً ودنا من الكوة ومحفظتهُ في يدهِ وقال لها مالكِ يا استيز . وكان القطار قد اخذ يسرع في السير فقالت وهي تمشي معهُ مسرعةً ان ستنمور في باريس وقد رأيت ان الخادمة ارسلت اليهِ تلغرافاً تخبرهُ بسفرك فكن على حذر منهُ

وكانت سرعة القطار قد اشتدت فلم تعد تستطيع مجاراتهُ وقد انقطع نفسها من سرعة الجري فاشار اليها بمنديلهِ مودعاً ومؤكداً انهُ لا يغفل طرفة عين ثم اقفل زجاج الكوة وجلس وهو يخاطب نفسهُ ويقول رشا الخادمة حاسباً انني اقع في شراكهِ مرة اخرى هل نسيت ما اصابني منهُ في العام الماضي

وستورتن ليس من الرجال الذي ينفعلون سريعاً ولكن المهمة التي كان ذاهباً فيها تفوق كل مهمة غيرها خطارة واقل خطإٍ او اهمال او تأخر يوقد نار الحرب في المسكونة كلها فلما فكَّر في ذلك ارتجفت مفاصلهُ الاَّ انهُ كان واثقاً بقوة ذاكرتهِ فان الاوراق التي كانت معهُ سرية مكتوبة بالارقام ومفتاحها في ذهنهِ ومفادها في ذهنهِ ايضاً فاذا اضاع الاوراق او نسي المفتاح فلا يمكن ان ينسى مفاد الرسالة لاسيما وانها في بضع كلمات صريحة المعنى فلا خطر الاَّ اذا حدث ما يؤخرهُ عن ايصال الرسالة في الوقت المعين . فلما فكَّر في ذلك اطمأن بالهُ نوعاً لكنهُ لم يهمل الحرس والحذر فبقيت يدهُ على المحفظة في جانبهِ ويدهُ الاخرى على مسدَّس في جيبهِ مع ان القطار كان اسرع من الطير . ولما بلغ دوفر نزل وسار الى البارخة وسار معهُ رجلان واحد مشى امامهُ وواحد مشى وراءهُ وكان يعلم من هما وما هو الغرض من مشيهما معهُ . ولما دخل الباخرة سار الى الغرفة المعدَّة لهُ واقفل الباب واحضر الرجلان كرسيين وجلسا عند بابها وهما من امهر رجال البوليس السري عند الانكليز . واقام في غرفتهِ لا طعام ولا شراب ولا همَّ لهُ الاَّ النظر الى المحفظة التي معهُ ولما بلغ كاله ودخل مركبة القطار دخلها الرجلان وجلسا امامهُ فلم يكلمهما بل تجاهل وجودهما معهُ ووضع المحفظة على ركبتيهِ وغطَّاها بحرام كبير الى ان وصل الى باريس فنزلا معهُ واستأجرا مركبة اجلساهُ فيها وسارا بهِ الى السفارة الانكليزية وكانت تباشير الصباح قد لاحت من الافق ولكن الشوارع لم تكن خالية من المارَّة لان اخبار النهار كانت قد اقلقت افكار الناس فطار النوم من عيون كثيرين وباتوا في القهاوي يترقبون التلغرافات ساعة بعد ساعة والرأي الشائع انهُ لا بدَّ لانكلترا ان تقوم بعهدها مع اليابان فتنشب حرب عمومية

ورأى ستورتن القهاوي لا تزال غاصة بالناس فعرف سبب قلقهم وارقهم وضحك

في نفسهِ وهو يقول لو علموا ما اعلم لقاموا الى بيوتهم واستراحوا في فرشهم . ولما بلغت المركبة باب السفارة نزل منها ووراءهُ رفيقهُ يدخل الباب فرفعا برنيطتيهما لهُ قليلاً كأنهما يقولان لقد اتممنا مهمتنا فادخل بسلام ثم سارا في طريقهما

ولما دخل سأل البوّاب قائلاً كيف السر تشارلس الان فاجابهُ انهُ يشكو صداعاً شديداً وقد استدعاهُ المسيو كاميليون نصف الليل فبقي عندهُ ولم يعد الاّ منذ ربع ساعة وهو الآن في مكتبهِ وقد امرنا ان ندخلك اليهِ حالما تصل

فلم يتوقَّف ستورتن مع ما كان فيه من التعب بل سار في الدار الى ان وصل الى المكتبة فدخلها وكان النور فيها ضعيفاً والسفير جالساً امام مكتبهِ فسأل ستورتن عن صحتهِ ودنا منهُ ووضع المحفظة على المكتب والمفتاح في يدهِ وقال « احسن قليلاً ولكن لم يزل هذا الصداع الملعون متسلطاً عليَّ وقد اضاع كاميليون صوابهُ وليس في الوزارة رجل يمكن الاعتماد وعليهِ فهات اخبرني على ماذا قرَّ القرار »

فقال ستورتن سِلْم سِلْم سِلْم وسلام وستنقشع هذه الغيوم في يومين . وانك لتعجب كيف حللنا هذا المشكل

السفير — دق الجرس ليأتونا بمركبة لان المسيو كاميليون في انتظارنا ولو كان رأسي يكاد ينشق

ولحظ ستورتن ان صوت السفير كان متغيراً وحركاتهِ كلها تدل على انهُ في شدة الالم فقال لهُ لا استطيع ان احلّ الارقام واكتبها في اقل من ساعة ولكن ان اردت ان تذهب حالاً فاني اخبرك بمفاد الرسالة فاذهب بهِ ثم احلّ الرسالة واكتبها لك فتكون حاضرة الساعة الثامنة او قبلها

السفير - احسنت قل لي ما هو مفاد الرسالة

ستورتن — اخبر المسيو كاميليون ان انكلترا لا تعترف بالصين دولةً من الدول ولذلك لا تحسب نفسها مضطرة ان تعاون اليابان اذا عاونت الصين روسيا فنحن لا نرسل بارجة من بوارجنا الى الشرق الاقصى ولا نفعل اقل فعل يختل بهِ توازن القوات الحاضر

السفير — سيتلقى المسيو كاميليون هذه البشارة بما لا مزيد عليهِ من السرور فدق الجرس لكي يحضروا لي مركبة حتى اذهب وابشرهُ بها

فقام ستورتن ليدق الجرس الكهربائي وفتح السفير شباكاً بجانبهِ وتطلع الى الشارع الذي تحتهُ . ووضع ستورتن يدهُ على زر الجرس لكي يدقهُ ولكنهُ لم يفعل واغلق السفير الشباك والتفت اليهِ فرآه واقفاً وبيدهِ مسدَّس وقد صوَّبهُ الى رأسهِ . فقال لهُ أمجنون أنت

فقال ستورتن قد اكون وان خطوت خطوةً واحدة الى الامام او الى الوراءِ فاني اطير دماغك

فوقف السفير لا يبدي حراكاً . ومدَّ ستورتن يدهُ الى مفاتيح النور الكهربائي وادارها فانارت الغرفة كلها بنور ساطع ثم دنا من السفير ورجع مذعوراً مدهوشاً وهو يقول قل لي ماذا كان مفتاح المراسلات السرية في الشهر الماضي

فهزَّ السفير كتفيهِ وقال الظاهر انك أصبت بخلل في عقلك فاعرف مَن انا وكلمني بالاحترام الواجب

فقال ستورتن اخبرني عن مفتاح الشهر الماضي اخبرني حالاً

فضحك السفير وقال اتظن اننا في مجلس استجواب وتحقيق تنحَّ حتى اخرج

فقال ستورتن اذا مشيتَ خطوةً واحدة اطرت دماغك ايها الخدَّاع قلْ لي مَن انت فانك لست السفير ولو كنت تشبههُ وقل لي اين السفير ولا تحاول النجاة من يدي

فقال الرجل لماذا احاول النجاة ألم تعلم حتى الآن اني ستنمور عم زوجتك اما السفير فانهُ عند المسيو كاميليون على ما اظن

فقال ستورتن وانت ما هو شأنك هنا

فقال لا شأن لي الآن فضعني اينما تشاء ولكن ارفع هذا المسدَّس الملعون من امام رأسي

فمشى ستورتن الى الباب واقفلهُ ثم جلس وقال لعم زوجتهِ المتزيي بزي السفير

ان لم يكن لك شأن هنا فلماذا هذا التخفي وهذه الحيلة الشيطانية حتى عرفت الخبر مني قبل كل احد

فقال ستنمور لقد كنت اظن انهُ يأتي بالحرب فيكون لي من ورائهِ مصلحة كبيرة اما الآن وقد جاء بالسلم فلا فائدة لي منهُ ولذلك لا يهمني بقيتُ هنا او خرجت فانا بين يديك افعل بي ما تشاء

وسمع ستورتن حينئذٍ صوت مشي في الدار فنهض وفتح الباب وللحال دخل السفير وهو يقول لماذا لم تذهب اليَّ فقد كنت في انتظارك عند المسيو كاميليون واوامري صريحة في ذلك

ستورتن — السبب واضح يا مولاي انظر من امامك . قال ذلك واشار الى ستنمور ورأى السفير رجلاً يشبههُ تماماً كأنهُ يرى وجههُ في مرآة فدهش ووقف مبهوتاً . ثم قال لهُ من انت يا مسيو

فقال ستنمور اسأل هذا الشاب يُخبرك من انا ومهما حاولت ان اقلدك لا استطيع ان اكون مثلك فمن اين لي هذه القامة وهذه المهابة ومع ذلك فبيني و بينك شيء من الشبه ولا سيما ما دام هذا الشعر على رأسي وهذان الشاربان في وجهي . قال ذلك ونزع الشعر العارية عن رأسهِ والشار بين من وجههِ فبانت هيئتهُ مضحكة حتى لم يتمالك السفير ان تبسم رغماً عما كان بهِ من الغيظ . ثم التفت الى ستورتن وقال لهُ هات اخبرني بخلاصة الخبر . فاخبرهُ فتنفس الصعداء وقال الحمد لله اذاً أذهبُ من ساعتي واخبر المسيو كاميليون وآخذ هذا الرجل معي ولكن لا لا آخذهُ بل ابقهِ هنا واقفل الباب لئلا يذهب ويتاجر بالخبر قبلما يذيع في السوق واكتب الرسالة وبعد نصف ساعة يأتي بلونت ويتبعني بها . قال ذلك وخرج وجلس ستورتن يحل الرسالة السرية وجلس ستنمور وقال ألا يأتينا احد بفنجان قهوة وسيكارة فقرع ستورتن الجرس وطلب لهُ فنجان قهوة وقدم لهُ علبة السكاير عن غير قصد منهُ وظلَّ يشتغل في حل الرسالة السرية الى ان اتمها . ثم التفت الى ستنمور وقال لهُ هذه هي المرة الثانية التي عملتَ فيها على هلاكي والآن انت في قبضة يدي ويمكنني ان انتقم منك على اسهل سبيل

فضحك ستنمور وقال انت تعلم انك لا تستطيع ذلك لانهُ ليس من مصلحتك ان تبين للملإ كيف اني خدعتك ولا تريد ان تصير سفارتكم اضحوكة في الدنيا ثم ان كل رجال البوليس الفرنسوي يعرفونني فاذا سلمتني الى يدهم الآن اطلقوني بعد ساعة

فقال ستورتن اذا تركتك الآن وسمحت لك بالذهاب فهل تعدني بشرفك انك ما عدت تفعل ذلك معي فقد تعقبتني مرتين حتى الآن واخذت اسرار الحكومة مني رغماً عني وانا احب خدمة الحكومة ولا اريد تركها فعدني بشرفك انك ما عدت تحتال عليَّ

فهزَّ ستنمور رأسهُ وقال لهُ انت نسيبي وانا عم امرأتك ويهمني نجاحك جدًّا والحادثتان اللتان تشير اليهما هذه وتلك قد نفعتاك كثيراً فاذا وعدتك الوعد الذي تطلبهُ مني لا تعود شديد الحذر كما انت الآن . فليبقَ كل شيء على حالهِ وابقَ على حذرك مني وابقى انا احتال عليك جهدي

ففتح ستورتن الباب وخرج ستنمور منهُ

وتغدى ستورتن مع السفير ذلك النهار وكان السفير متهللاً بانفراج الازمة وجاءتهُ رسائل التهنئة من كل صوب ولكن كان في بالهِ شيء يشغلهُ فلما انفرد بستورتن بعد الغداءِ قال لهُ بلغني ان احد السماسرة اشترى مبالغ وافرة من القنصليد الانكليزي والرنت الفرنسوي قبلما نشر المسيو كاميليون الخبر بساعة من الزمان وقد ارسلت الوزارة تخبرني بذلك وتنتقدهُ فعسى ان لا تظنَّ ان لنا اشتراكاً في ذلك

فقال ستورتن اما انا فلم ادعهُ يخرج من هنا الاَّ بعد ان عُلّقت الاعلانات في الشوارع

و بعد اسبوعين جلس ستورتن ليفطر في الصباح ودخلت زوجتهُ و بيدها عقد نفيس من الجوهر ورسالة صغيرة من عمها ستنمور يقول فيها

عزيزتي استير

ان الهدية التي اهديتها اليكِ يوم عرسكِ لم تكن على حسب رغبتي فاسمحي لي ان اكفر عن ذنبي الآن فقد ربحتُ حديثاً ربحاً طائلاً بالاوراق المالية ولو كنت قليل المضاربة

اهدي احترامي الى زوجك وقولي لهُ انني سررت بدار السفارة في باريس ولا سيما بالشباك الذي يطلُّ على شارع سان انطوان (لانهُ رمى خبر السلم الى احد اتباعهِ لما اطلَّ من الشباك كما تقدم)

واعطت استير الرسالة لزوجها فقرأها وهي تقول لهُ اخبرني ما هو معناها فاخذها من يدها وقرأها ثم القاها في النار

هذه خلاصة القصة فما رأيك فيها وهل هي صحيحة . فقال اظنها صحيحة وما اسرع ما عرفها صاحب المجلة وكان يجب عليهِ ان لا يفشيها على هذه الصورة

فقالت اذاً رجال الحكومة يتاجرون باخبار الحروب وقد قرأت في تاريخ بيت روتشيلد ان جدهم عرف اخبار انتصارنا على بونابرت في واقعة ووطرلو قبلما عرفتها الحكومة فربح من مشترى القنصليد الانكليزي ربحاً وافراً وكنت اظن ان هذه القصة موضوعة ولكن يظهر لي الآن انها صحيحة

فقال سواء كانت صحيحة او موضوعة فالماليون يجرون على ذلك الآن ولا ابالغ اذا قلت انهم صاروا يثيرون الحروب لاجل الربح

فقالت الآن فهمت امراً اشكل عليَّ فهمهُ فقد قرأت بالامس في مجلة مُنصي الاميركية ان دزرائلي اليهودي الاصل صار رئيساً لوزرائنا وليس في عروقهِ نقطة من الدم الانكليزي . وكانت الامّة تكرههُ والملكة لا تطيقهُ فلا يبعد اذاً ان الماليين من الاسرائيليين عضدوهُ بكل جهدهم حتى صار رئيساً للنظار لكي ينتفعوا من الوقوف على مقاصد الحكومة منهُ

فقال لا اظن ان الامر بلغ الى هذا الحد لا سيما وان دزرائلي كان عفيفاً ولم يسمع عنهُ قط انهُ تاجر بما يعلمهُ من امور السياسة مع انهُ لو فعل ذلك كما كان نبوليون الثالث مثلاً يفعلهُ على ما يقال لربح الملايين الكثيرة

فقالت الظاهر انهُ كان موسوساً في السياسة وتاركاً الربح المالي لغيرهِ لان ثروة زوجتهِ كانت كافية لنفقاتهِ مهما بلغت ولم يكن لهُ اولاد يهتم بمستقبلهم ولو عُرف بالتبذير والرجل الذي يبذر لا يهتم بايجاد الاساليب لجمع الثروة ولكنهُ لا يمنع غيرهُ من جمعها .

هل استفاد احد من معارفنا من نشوب هذه الحرب بين الروس واليابان

فقال نعم استفاد كثيرون منهم و بعضهم اثروا ثروة وفرةً ونحن تضاعف البيع من جريدتنا وفي نيتنا ان نصدرها الآن في منشستر و باريس ونيويورك في الوقت الذي تصدر فيهِ لندن

فقالت اذاً نحن من المغرين بهذه الحرب والممهدين السبل لها هذا امر لا يرضي الله يا ادورد ولا يحسن ان نربي اولادنا عليهِ

فقال الحق في يدك ولكن نحن مسيرون غير مخيرين وهذا هو مقتضى الناموس الطبيعي ناموس الجهاد لاجل البقاء فاذا اردنا تغييرهُ لا نستطيع وهو متسلط على نوع الانسان وعلى انواع الحيوان والنبات لحكمة اقتضاها الخالق فالسمك الكبير يأكل الصغير والحيوان يأكل النبات ويأكل بعضهُ بعضاً فمن يستطع ان يوقف مجرى الطبيعة

فصمتت وهي تفكر في هذا الموضوع الواسع الاطراف وانتقلت افكارها حالاً الى ابنها وابنتها في بلاد كوريا حيث ذهبا مع الجيش الياباني فتنهدت . وكانا قد فرغا من الطعام فقاما ومضى السر ادوارد الى مكتبتهِ وذهبت هي الى مخدعها

الفصل الرابع والعشرون

تغيُّر الشؤون

الخواجه لاڤي — اوحشتمونا يا حضرة الشيخ وطالت غيبتكم علينا

الشيخ احمد — نعم كنت غائباً في الصعيد ولم اعد الاّ امس وقد قرأت واناهناك عن النكبات العديدة التي اصابت اصحابنا كلهم هنا وفي منشوريا وعسى ان تنتهي على خير

الخواجه لاڤي — على خير ان شاء الله . ولكن من لكم من الاصحاب في منشوريا

الشيخ احمد — ليس اصحابي انا بل اصحابكم انتم . قال ذلك وتبسَّم وغمز بعينيهِ

الخواجه لاڤي — مكتوب عندنا في التوراة ان الامة التي تضطهدنا فالرب يجازيها

الشيخ احمد — هل تتركون المجازاة للرب او تساعدونهُ فيها

الخواجه لاڤي — نحن نفعل ما في يدنا مثال ذلك أننا لا نسهّل لعدونا عقد قرض واذا تيسَّر لنا ان نحرّك اعداءهُ عليهِ لا نتأخر لاننا نكون منفّذين لارادة الله

الشيخ احمد — واي نفع ينالكم من ذلك اي نفع ينالكم لو تمَّ الفوز لليابان على الروس وجمهوركم يسكن بلاد الروس لا بلاد اليابان

الخواجه لاڤي — اذا حدث ذلك فلا بدَّ ما تُصلَح حكومة روسيا ويتولاها اناس مسأولون عن اعمالهم وحينئذٍ نأمن على ارواحنا ويصير لنا المقام الاول فيها لان اليهود اقدر من غيرهم على الكسب وصاحب المال سلطان . انظر انكلترا وفرنسا والنمسا فان لنا المقام الاول فيها وانظر كيف صار حالنا في هذا القطر بعد ما استتبَّ الامن فيهِ

الشيخ احمد — ولكن يبلغني ان روسيا تجند الجنود منكم فهل ذلك صحيح وهل تحاربون معها عن طيب نفس

الخواجه لاڤي — أمَّا انها تجند الجنود منها فهذا صحيح واما ان رجالنا يحاربون معها قلباً وقالباً فهذا لا اظنهُ بل ان اكثر جنودها مثل اليهود يفعلون ما يأمرهم بهِ ضباطهم ولكنهم يكونون اول المنهزمين اذا نودي بالهزيمة وحقاً اني لا ادري كيف يستخلص الانسان عدوَّهُ ويعتمد عليهِ في الدفاع عن بلادهِ

الشيخ احمد — وما رأيك في مصير هذه الحرب وما رأي اخوانكم في انكلترا

الخواجه لاڤي — اتانا كتاب من اليابان من الخواجه هنري برون واظنك التقيت بهِ هنا في الشتاءِ الماضي يقول فيهِ ان اليابان مستعدّة لهذه الحرب استعداداً لا مثيل لهُ وان البلاد كلها قائمة تطلب الحرب ورجال الحربية كلهم قلب واحد من اكبر قائد الى اصغر جندي والناس على غاية الرصانة والنظر في العواقب . ويظهر ممَّا نطالعهُ في الجرائد الاوربية التي يعتمد عليها ان الفوز سيكون لليابان . وعلى كل حال نحن باذلون جهدنا حتى لا نسهّل لروسيا استدانة جنيه واحد من اوربا

الشيخ احمد — ولكنني قرأت في بعض الجرائد او المجلات ان في خزينة الحكومة الروسيه اموالاً وافرة تنفق منها على هذه الحرب ولو طالت سنين

الخواجه لاڤي — لا تصدق كل ما تقرأ نعم عندها نحو ستين او سبعين مليوناً ولكنها

لا تكفيها اكثر من سنة . أتعرف كم صرفت انكلترا على حرب الترنسفال صرفت اكثر من مئتي مليون جنيه

الشيخ احمد — ولكن ألا يخشى من نشوب حرب عمومية اذا قامت فرنسا لمساعدة روسيا

الخواجه لافي — لقد خفنا ذلك في الشهر الماضي ولكن حكمة انكلترا فضَّت هذا المشكل وما دام الامر في يد الماليين فلا خوف من انهم يسمحون بشيء يعطل اعمالهم ويخسرهم اموالهم . ولا وزير في اوربا الآن الاَّ ولهُ مصالح مالية يخاف عليها ويسعى في تكثير مكاسبها فالحروب البعيدة لا ضرر منها عليهِ بل منها ربح لهُ ولا سيما اذا كان لهُ اشتراك في المعامل التي تبني البوارج او تسبك المدافع او تصنع البنادق او تملك سفن النقل او كان عندهُ سندات من دين الدولة التي ينتظر ان يكون الفوز لها . وكل احد يسعى لمصلحتهِ والملوك انفسهم لا يأنفون الآن من الاشتراك في الاعمال التجارية التي من هذا القبيل ولا سيما بعد ان رأوا القوة للمال وان الواحد من رعاياهم يولد فقيراً لا يملك شيئاً ثم يصير اغنى منهم ويصير دخلهُ السنوي اضعاف المال المقطوع لهم . هذا ملك الانكليز راتبهُ السنوي نحو نصف مليون جنيه وبين رعيتهِ رجل لم يكن يملك شيئاً في صباهُ فصار دخلهُ السنوي الآن نحو خمسة ملايين من الجنيهات اي عشرة اضعاف ما يأخذهُ الملك من بلادهِ . وعلى الملوك نفقات كثيرة ولهم اولاد يجب عليهم ان يهتموا بمستقبلهم ولم تعد الاحوال كما كانت من قبل حين كان الملك يضع يدهُ على اموال ايٍّ كان من رعيتهِ بل صارت الارملة تداعي الملك على غرش يأخذهُ منها من غير حق ولذلك لا عجب اذا اشترك الملوك مع ارباب الاموال وراعوا مصالحهم . وقد بلغني عن ملك من الملوك انهُ اوصى برجل اعتقد فيهِ الصدق والامانة حتى نيطت بهِ اعمال ربح منها في سنة واحدة نحو مليونين من الجنيهات فهل يعقل ان هذا الرجل ينسى مولاهُ الذي هو سبب نعمتهِ أو لا يقدم لهُ هدية تساوي نصف ما ربحهُ . وهذا الامر اي مساعدة الملوك لاحد رعاياهم يحرّمهُ رجال السياسة قولاً ولكنهم يحللونهُ فعلاً وقد يكون منهُ شيء من الضرر ولكن ضررهُ لا يقابل بما كان يفعلهُ الملوك في الازمنة الغابرة فانهم كانوا يغزون البلدان ويستبيحون كلَّ ما فيها لاجل الكسب

يأخذون اموالها ويبيعون رجالها ونساءها عبيداً لكي يكتسبوا من ذلك واذا امكنك ان تحال وتشرح كلّ ماحدث في الدنيا من الحروب منذ مئة سنة الى الآن بل منذ اقدم ازمنة التاريخ الى الآن رأيت ان للمصالح المالية الشأن الاكبر فيهِ ولكن لنرجع الى سياحتك يا شيخ كيف وجدت الصعيد

الشيخ احمد — على غاية . الارض كلها بساط من الزبرجد بل من الزمرد لشدة اخضرار زرعها وقد شرع اهالي المديريات الوسطى في زرع القطن وستكون سنة خير ان شاء الله رغماً عن انخفاض النيل لان الخزان يسدُّ العجز ويزيد عليهِ وقد اذهلني ارتفاع اسعار الاطيان فان احد معارفي اشترى نحو خمس مئة فدان من شركة الدائرة السنية ولم يدفع حتى الآن الاّ نحو عشر ثمنها وقد أعطي ربحاً عشرة آلاف جنيه فلم يقبل ولا يبعد ان يعطى خمسة عشر الفاً او عشرين الفاً . ولو ابقت الشركة على اطيانها الى الآن لتضاعف ربحها منها

الخواجه لافي — اصبت وهذا كان غرضنا من الاول ولكنهم الزمونا ان نجزىء الاطيان ونبيعها وما كنا نظن ان الاسعار تبلغ هذا الحد ولو ظننا ذلك لكنا اشترينا نحن انفسنا وما تركنا البيعات الكبيرة . على ان هذا الارتفاع لا يستمرّ طويلاً الاّ اذا بقيت اسعار القطن مرتفعة فاذا هبطت كثيراً اضطرّ الناس ان يبيعوا الغلي بالرخيص ففي العام الماضي بلغ ثمن القطن المصري نحو ثمانية عشر مليون جنيه و بلغت صادرات القطر كلها نحو عشرين مليون جنيه فاذا هبط ثمن قنطار القطن جنيهاً فعاد الى جنيهين ونصف مثلاً وهذا غير مستحيل قلت قيمة الصادرات ستة ملايين جنيه فيخسرها القطر ولا يقدر ان يستعيض عنها بغيرها لان قيمة وارداتهِ اكثر من ستة عشر مليوناً من الجنيهات وعليهِ فوائد من ديونهِ وديون الحكومة نحو خمسة ملايين من الجنيهات فاذا جمعنا ثمن صادراتهِ وما ينفقهُ السيَّاح فيهِ سنوياً لم يزد المجموع على ما يجب عليهِ ان يدفعهُ ثمن وارداتهِ وفوائد ديونهِ

الشيخ احمد — فهل رأيك اذاً ان ثمن الاطيان سيهبط

الخواجه لافي — هذا يتوقف على ثمن القطن او على محصول اميركا فاذا بقي ثمن

القطن على حالهِ فالاسعار ترتفع ايضاً واذا هبط كثيراً فلا يبعد ان تهبط لان كثيرين يضطرون ان يبيعوا اطيانهم والمصيبة على المديون اما الذي ليس عليهِ دين فهو سلطان زمانهِ ولا خوف عليهِ لان ايراد الاطيان يكفي اصحابها مهما كان

الشيخ احمد — صدقت صدقت

ودخلت استير حينئذٍ فسلمت على الشيخ مصافحةً وسألتهُ عن سفرهِ وقالت انها آتية من بيت راغب باشا وان جرح حليمة يكاد يبرأ فقال الشيخ نعم وقد ذهبت الى هناك في الصباح وسألت عنها ورأيت حليم بك فقال ان الطبيب يطمنهم كثيراً عنها وان جودة صحتها وسلامة جسمها من الآفات ساعدتا على شفائها ولكنها لا تستطيع ان تحرك يدها حتى الآن وربما يبقى فيها شيء من اليبوسة . والظاهر ان نجم لدين ادّعى الجنون او اهلهُ ادعوا انهُ مجنون وطلبوا وضعهُ في مستشفى المجاذيب فاذا ثبت ذلك خلص من العقاب

استير — مجنون هذا ولد ردي خبيث اتى متعمداً قاصداً قتلها واخبر كثيرين بذلك وكانت لنا ساعة يا استاذ لا ارانا الله مثلها ومن الغريب ان الرجال كلهم وقفوا كالاصنام واؤكد لك انني لو لم ارَ انهُ يجب ان اهتم بحليمة وامها لكنت لحقتهُ بنفسي وكسرت رأسهُ

قالت ذلك واحمرّت وجنتاها وقرعت الارض بشمسيتها حتى كادت تكسرها . ثم دارت الى ابيها وكلمتهُ بالايطالية كلاماً لم يفهمهُ الشيخ ولكنهُ استدلَّ منهُ على امر هامّ ثم ودعت الشيخ وعادت الى مركبتها . وتكلم الشيخ مع الخواجه لاقي في بعض الاشغال الخصوصية ثم ودعهُ وانصرف

وجلس الخواجه لاقي بعد انصراف الشيخ احمد يفكر في ماقالتهُ لهُ ابنتهُ فان حليمة كانت تحب استير وقد زاد حبها لها بعد ما رأتهُ من تعلقها بها من حين رميت بالرصاص وكانت استير تعودها كل يوم وتحنو عليها حنو الوالدة على ابنتها حتى ان الاطباء والممرضات صاروا يرون انها اقدر منهم كلهم على تمريضها وتسليتها وانهاض قواها ولم يعد يهنأ لحليمة عيش الاّ واستير معها . وتعلقت بها ام حليمة وابوها فصارا

ينظران اليها كأكبر معزٍّ لابنتهما وكان حليم بك يدخل غرفة اختهِ مراراً كل يوم ويرى استير ويندهش من جمالها وطلاقة وجهها والذكاءِ البادي من عينيها ولا سيما حينما تكلمهُ بالعربية وتستشهد لهُ احياناً ببيت من الشعر وهي تفعل ذلك من غير دلٍّ كأنهُ امر اعتيادي فهام بها . ولما زارهم الشيخ احمد صباح ذلك اليوم خرج حليم معهُ واعرب لهُ عن حبهِ لاستير وسألهُ عن رأيهِ في ذلك فقال لهُ هذا الذي ظننتهُ من اول الامر وانت تخفي عني اما انا فلا اعرف فتاة اذكى منها عقلاً واقدر على ادارة البيوت ويظهر لي ان اباها يجري على طرق الافرنج ولا يمنع ان تكاشفها انت بما في نفسك

فقال هذا امر لا استطيعهُ ولا اكاد استطيع الكلام امامها

فقال الشيخ اذاً دع حليمة تفاتحها في ذلك ولو على سبيل التمني فتقف على افكارها

فقال هذا رأي حسن وعاد واخبر اختهُ بذلك وكلّم امهُ فلم تسرّ بهِ لانها كانت تريد ان تزوجهُ واحدة من نسيباتها ولانها استقبحت ان يتزوج يهودية مع حبها لاستير واكرامها لها . اما حليمة فرأت انهُ عين الصواب وبعد جدال طويل رضيت امهُ ان تترك الحكم في هذه المسألة لابيهِ فقام لساعتهِ ومضى واخبر اباهُ فرآهُ اميل من امهِ واستحسن رأي الشيخ احمد ولكنهُ رجح ان استير لا تقبل لانها متربية تربية افرنجية محضة . وعاد حليم وطلب من اختهِ ان تفاتح استير بذلك • فلما اتت استير لعيادتها بعد الظهر واستقرّ بها الجلوس تفرست حليمة في وجهها طويلاً ثم طلبت منها ان تقترب اليها وضمتها الى صدرها وقالت لها اه يا استير لو كنتِ تعلمين مقدار محبتي لكِ وليس محبتي انا وحدي بل محبة كل اهلي هل تعدينني ان تبقي في مصر هل تعدينني ان تبقي قريبة مني لكي اراكِ كل يوم آه لو كنتِ تقبلين رجائي ورجاء كل الذين يحبونكِ من اهلي وتكونين مكاني في هذا البيت انا أؤكد ان اخي يحبك كما احبكِ انا فهل يرضيكِ ذلك قولي لي هل يمكننا ان نرجو ذلك منكِ

فتبسمت استير وقالت لها ألا ترين اني آتي كل يوم واراكِ ولكن بعد ان تتزوجي ربما لا يريد زوجكِ ان ازوركِ كل يوم

حليمة — لماذا غيرتِ الموضوع لماذا لا تجيبينني صريحاً على سؤالي الاول

فصمتت استير ثم تبسمت ثانية وقالت لها مالنا ولهذا الموضوع الآن سنتكلم فيهِ في وقت آخر ثم قبلتها وغيرت الحديث وودعتها بعد حين وانصرفت على جاري عادتها . ورأت ان لا بدّ لها من ان تخبر اباها بخلاصة ما توقع حالاً لان ابن عمها كان مدعوًّا للعشاءِ عندهم تلك الليلة وكان ابوها وامها يلجّان عليها لكي تقترن بهِ وقد دعياهُ ليحضر قبيل الغروب ويخرج معها ومع امها للنزهة ويأخذ الجواب منهم تلك الليلة . وشاع على السنة المعارف والجيران انهُ خطبها وسيقترن بها بعد قليل ولم يبلغ ذلك بيت راغب باشا لانشغال بالهم بابنتهم . ولما اخبرت اباها بما قالتهُ حليمة قال لها افعلي حسب ما يرشدكِ قلبكِ اما حليم فسيرتهُ على احسن ما يكون . فزادها ذلك قلقاً لانها كانت تفضّل ان يكون ابوها مساعداً لها في الاختيار لا ان يلقي الحمل كلهُ عليها ولم تكن تعتدّ برأي امها كثيراً مع احترامها لها

وجاء موسى في الوقت المعين وخرجت استير وامها معهُ للنزهة في مركبتهما الكبيرة واقاموا الى ما بعد الغروب ثم عادتا بهِ الى البيت الذي كان نازلاً فيهِ لكي يلبس للسهرة ويأتي للعشاءِ وكانت الاحاديث عادية ولم يتكلم موسى مع استير على انفراد . وحضر وقت العشاءِ وجلست استير الى جانبهِ على المائدة ولم يكن طلق اللسان قويّ البداهة فكه الحديث حتى يجتذب النساء بطلاقة لسانهِ وفكاهة حديثهِ ولكنهُ كان كثير المطالعة واسع الخبرة عارفاً بالاحوال المالية غير قليل الالمام بالمعارف التاريخية والطبيعية واتت معهُ السيدة روز ابنة اخت لاقي وهي نصف اي عمرها نحو اربعين سنة قتل خطيبها في الاسكندرية في بدءِ الحوادث العرابية فحزنت عليهِ حزناً مفرطاً وابت التزوج بعدهُ مع انها جميلة المنظر وعلى ثروة طائلة وحاول ذووها صرفها عن هذا العزم فلم تنصرف وكانت طلقة اللسان اذا حضرت في مجلس فيكون اكثر الحديث لها ومعها ومتى قيل في مجامعهم ستي روز عرف الكل انها هي المرادة دون غيرها . وكانت جالسة عن يمين مدام لاقي امام الخواجه موسى واستير فنظرت اليهما وقالت مَن رتب مجالسنا على المائدة على هذه الصورة فقد احسن الترتيب لانهُ لو جلس المسيو موسى امام مدام وازل استير لضاع عليهِ العشاء وشبع من النظر

فقالت استير اذاً سيضيع عليهِ العشاء على كل حال

روز — هذا كلام لا يسلك علينا . ما قولك يا مسيو

موسى — ان الانسان يستطيع ان يمتع حاستين في وقت واحد النظر والذوق

فسرَّت مدام لاڤي بجوابهِ وقالت اذاً ما عدت اخاف ان يذهب تعبي في تدبير العشاءِ سدًى

روز — و بترتيب المائدة ايضاً

مدام لاڤي — ليس لي فضل في ذلك بل الفضل كلهُ لاستير

روز — هذا اليق شيء بالمداموازل من اين هذا الورد ما اجمل منظرهُ وما اطيب رائحتهُ

استير — لم يكن الورد كثيراً هذه السنة حسب العادة لان تأخر البرد اضرَّ بهِ

روز — اين البرد في مصر البرد في بلاد الانكليز كيف وجدت الطقس عندنا يا مسيو موسى

موسى — لا يمكن ان يكون اجمل من ذلك الآن اما يوم وصولي فكان البرد شديداً مثلما يكون في بلاد الانكليز

الخواجه لاڤي — اظن انهُ سيشتدُّ الحر غداً وقد ابتدأت ايام الخماسين

يوسف — قرأت اليوم ان درجة الحرارة في الخرطوم خمس وار بعون

موسى — خمس وار بعون هذا لا يطاق فكيف يعيش الناس هناك

الخواجه لاڤي — الحر شديد ولكن الهواء جاف جدًّا وقد اخبرني الشيخ احمد اليوم ان درجة الحرارة بلغت في اصوان في الاسبوع الماضي ٤٢ ومع ذلك كانت محتملة جدًّا لشدة جفاف الهواءِ وكيفما كان الحال لا ننكران هذه البلاد حارَّة جدًّا

موسى — انا لم انس حرها ولا اصدق متى اعود الى بلاد الانكليز فاني اتعب من الحرّ جدًّا واظن ان مدموازل استير مثلي

استير — اما انا فلا اتعب من الحر قدر ما اتعب من البرد وافضل مصر وحرارتها على لندن و بردها

روز — ايه ايه ما هذا يا مدموازل اتفضلين مصر على لندن اسمعْ يا مسيو موسى

ام استير — الشتاء في مصر والصيف في اوربا في بلاد الانكليز او غيرها

روز — هذا عدل ومدام لاقي حكمت بالعدل

يوسف — ذهبت اليوم لاودع احد اصدقائي فوجدت القطار مملوءً حتى اضطرت مصلحة سكة الحديد ان تقيم قطاراً آخر بعد الاكسبرس واظن ان اللوكندات تفرغ في هذين اليومين

الخواجه لاقي — كان عدد السياح هذه السنة كثيراً اكثر مما كان في السنين الماضية

مدام لاقي — ولكن اللوكندات ما وزعت علينا ربحاً حتى الآن

يوسف — ستوزع عشرة في المئة

الخواجه لاقي — لا اظن ولكنها توزع ثمانية في المئة

روز — براڤو

استير — الظاهر ان عندك اسهماً كثيرة منها

روز — كان عندي واشتريت الفي سهم من اول الفصل لما رأيت كثرة السياح

استير — ماذا تعملين لنا من الربح

روز — مثلما عمل لنا ابوك من اطيان الصعيد والشركة الجديدة

يوسف — ألم يعطك من اسهم التأسيس

روز — اعطاني نعم اعطاني ولكن من الجمل اذنهُ كما يقول اولاد العرب

الخواجه لاقي — اذاً انتِ حاقدة علينا يا ستي روز

روز — انا لا احقد على احد ولكن اللوم على خالتي

مدام لاقي — كتب اسمكِ في رأس القائمة ومن يستطيع ان ينسى روز

روز — مرسي مرسي

موسى — ما هي هذه الشركة الجديدة اظن اني لم اسمع عنها

فاخذ الخواجه لاقي يشرحها لهُ وكان كلامهم باللغة الفرنسوية تتخللهُ عبارات عربية ولم يكادوا يتمون الطعام حتى دخل الخادم وبيده كتاب للخواجه لاقي قال انهُ

من بيت واصف بك ففضهُ الخواجه لاقي واذا هو من بهية تطلب فيهِ منهُ ان يحضر حالاً ويرى اباها لان الخطر قد اشتد عليهِ فقام لساعتهِ وذهب الى بيت واصف بك وودّت استير ان تذهب معهُ وترى بهية لكنها راعت ضيفيهم واضطرّت الى البقاء في البيت

واجتمعت زين الدار بقدم خير بعدئذٍ فقالت لها

شفت الخواجا موسى ويّا ستى استير والست الكبيرة طالعين للنزهة صار حاجة

قدم خير — لا ابن عمهم وجاي من برّا ولكن شايفه لك انهُ ما عادش نصيب للخواجا عزرا

زين الدار في حاجه جديده

قدم خير — البارح كان الابوكاتو احمد باي عندنا وسمعهُ عبدو لما دخل القهوة يقول انهم بيدخلوا الخواجا عزرا في القضية و بيحكموا عليهِ

زين الدار — اي قضية

قدم خير — قضية الطلياني

زين الدار — بيحكموا عليهِ عمل ايه ومالوا ومال الطلياني

قدم خير — اهو اللي سمعتو بس لا تقوليش حاجه عن لساني . ولكن ستي استير مش قد كدا وانا شايفه لك ان الخواجا موسى داري ان ستي استير ما تملوش كثير ولكن أهو بدها ترضي أمها والسلام

زين الدار — و بتقلك ايه لما تعريضليها بذكر سيدي عزرا

قدم خير — لسّاها على حالها لو شفت منها ادنى ميل كنت اقلّ لك

زين الدار — سيدي عزرا مشيع الك هالخاتم أهو دهب وقلبه فيروز

قدم خير — قولي اني بخدمو بعينيّ تعالي لي باكر حتى اقل لك جرى ايه

وعادت زين الدار واخبرت عزرا بما سمعتهُ من قدم خير فزاد انشغال بالهِ وكان قد سمع من بعض اصدقائهِ ما يؤيد ذلك ولكنهُ لم يشأ ان يظهر امامها الاكتراث

لهذا الخبر بل تظاهر كأنهُ لا يهتم بهِ اما هي فلم يخفَ عليها ذلك لانها كانت تراقب وجههُ لما اخبرتهُ • والحيوان الاعجم يفهم ما يدور في خاطر الانسان من مراقبة وجههِ فلا عجب اذا فهمهُ الانسان

الفصل الخامس والعشرون

دار الحرب

الناس والواحد منهم تشبعهُ كسرة من الخبز او حفنة من الارز مع قليل من الزيت والدهن وشيء من اثمار الارض و بقولها و يستر عريهُ قليل من القطن والصوف . وهو اذا عمل الارض واستثمرها ورعى المواشي واحتلبها وصاد السمك والطير نال منها مايقوم بمعيشتهِ ومعيشة زوجتهِ واولادهِ وزاد معهُ ما يكفي نفقةً للباحثين عن نواميس الكون وقوى العقل واسباب الامراض والآفات والذين يبهجون العين و يطربون الاذن ويبسطون النفس وينعشون العواطف والاميال — نشأت منهم فئة لا تقنع بما قُسم لها ممَّا يكفيها و يغنيها بل تراها دائماً في طمع وجشع لا تروى ولا تشبع

كالحوت لا يرويهِ شيء يلهمهُ   يصبح ظمآناً وفي البحر فمهُ

وهي ترى الحياة الدنيا دار غربة والمرء فيها على سفر والقليل يشبعهُ كالكثير . والصحة والمرض والراحة والتعب والسرور والكدر لا تتوقف على كثرة المال وقلتهِ . ومع ذلك لاهمَّ لها الاَّ تسخير الناس وايقاع بعضهم في بعض لاخذ ما في ايديهم ولو استلحم بعضهم بعضاً ونهكت قواهم من التعب ويبست السنتهم من الظماء وتقطَّعت اوصالهم من الجراح ونزفت الدماء من عروقهم وذاقوا الموت اشكالاً والواناً

وهذه الفئة قديمة في الدنيا لم يخلُ منها عصر من عصور التاريخ قام منها الملك والكاهن والقائد والوزير وتكاد تنحصر الآن في ارباب الاموال والذين على شاكلتهم من كل منتفع بضرر غيرهِ ولو ملكاً عظيم الشأن • فقد صُمَّت آذانهم عن عويل اليتيم والارملة ووقرت عن نوح الثاكل وانين الجريح فلا تسمع الاَّ رنة الدينار وصوت المنادي بارتفاع الاسعار . فبينا ترى الزوجة تقتّر على نفسها واولادها لكي ترسل الى

زوجها في ساحة القتال شيئاً ينعش فؤادهُ من مأكل او مشرب . والطبيب يمشي تحت الرصاص ليجد جريحاً يضمد جراحهُ . والممرضة تسهر الليل ولا همَّ لها الاَّ تخفيف آلام الجرحى وتغميض عيون القتلى . والامَّة كلها شاخصة العيون فاغرة الافواه مفتوحة الآذان تنتظر خبراً من دار الحرب يذهب ببعض كربتها . ترى ارباب الاموال والذين ينتفعون من الحروب بعمل آلاتها والتزام الميرة والاسلحة لها لا يهمهم سوى ملء جيوبهم من النضار الذي يبعث بهِ الارواح بيع السماح

نشبت هذه الحرب بين الروس واليابان والسبب الظاهر الذي يذكرهُ الخصمان ويفاخران بهِ ان الواحدة تطلب منفذاً لتجارتها في اقاصي المشرق ولو لم يكن لها هناك تجارة تذكر والثانية تخشى ان تناظرها الاولى وتضيق خناقها وتمنع شعبها عن المهاجرة الى بلاد قريبة منها ولا بدَّ لها من الارتزاق فيها . والسبب الباطن بل سبب الاسباب ان خزائن الماليين في اوربا فاضت بالنضار وفي بلاد الروس مئة وثلاثون مليوناً من النفوس وفي اليابان وكوريا ومنشوريا نحو سبعين مليوناً وكلهم ديونهم العمومية قليلة ويستطيعون ان يعطوا من عرق جبينهم اكثر مما يعطون الآن فعلى مَ لا يستدينون الاموال من أولئك الاغنياء بالربا الفاحش وتتقيد دولهم بدفع رباها السنين الطوال والاموال التي يستدينونها تحرق باروداً وتغرّق بوارج ولو ذهبت معها المهج وذابت بها النفوس

نسير بالقارئ الآن الى اربع عواصم وهي لندن وبطرسبرج وطوكيو والقاهرة ونسمع ما يقال فيها مما يتعلق بموضوع روايتنا

لندن

جلس كبار الماليين الثلاثة في الغرفة الفاخرة الاثاث والرياش التي تدفئها انابيب الهواء السخن في اوقات البرد وتبردها المراوح الكهربائية في اوقات الحر وتتصل بها اسلاك التلغراف والتلفون ممدودة الى اكثر العواصم الاوربية والاميركية . ووضع احدهم وهو لورد بنشيلد رجْلاً فوق اخرى وادار كرسيهُ قليلاً وانحنى الى الوراء وهو ينظر الى السقف وينفخ الدخان من فيهِ ثم قال فازت اليابان برّاً وبحراً فان الضربة

الاولى اضعفت الاسطول الروسي الذي في الشرق الاقصى وهو اكثر من نصف الاساطيل الروسية كلها فصار اضعف من الاسطول الياباني واذا تساوى الفريقان في العلم والمهارة والحماسة (وهذا بعيد على ما علمتهُ من الواقفين على حقائق الامور لان اليابانيين يفوقون الروسيين في كل ذلك) اذا تساوى الفريقان فالاسطول الياباني صار اقوى من الاسطول الروسي فان التقى الخصمان في عرض البحر كما لا بدَّ من ان يلتقيا يوماً فالفوز للاسطول الياباني · وجاء غرق البارجة بتروباولسك التي غرقت في ١٣ الماضي (ابريل) وغرق فيها الاميرال ميكاروف قائد الاسطول كلهِ ومحيي الحماسة في صدور رجالهِ ضربة قاضية على الروس لانها اضعفتهم ماديًّا وادبيًّا . والظاهر انهم ليسوا في البر انجح منهم في البحر لان الجنرال كروكي هزم جناح الجيش الروسي الايسر على ضفاف نهر يالو

فالتفت اليهِ المالي الثاني وقال هل يظن اصحابنا ان الحرب تنتهي قريباً

لورد بنشيلد — كلاَّ ولا ينتظر الآن انها تنتهي في سنة من الزمان وحرب مثل هذه يجب ان تدوم سنةً او سنتين نعم انهُ يستهلك في السنة الواحدة الآن قدر ما كان يستهلك في عشر سنوات ولكن المنتفعين من الحروب صاروا كثاراً فلا يصل النفع الى كلٍّ منهم الاَّ اذا كثر مقدارهُ جدًّا ألا ترى ان هؤلاء الاميركيين يتعاملون بالملايين كما نتعامل نحن بالالوف فلا بدَّ من ان تكبر اللقمة لكي تشبع الجميع

الثالث — كم تبلغ نفقات كل من الخصمين قبل انتهاء القتال على ما تظن

لورد بنشيلد — يظهر لي قياساً على حرب الترنسفال وحرب فرنسا وبروسيا ان نفقات كلٍّ من المتحاربين ستبلغ مئة مليون جنيه ان لم تزد عليها ثم لا بدَّ للدولة الغالبة من ان تأخذ غرامة من الدولة المغلوبة فاذا فرضنا انها مئة مليون جنيه ان لم تكن مئتين فلا تنتهي الحرب وتضع اوزارها ما لم ينفق فيها وعليها ثلثمئة مليون من الجنيهات نصفها من بلاد المتحاربين ونصفها دين على الفريقين ولا ندينهم اياهُ باقل من خمسة اوستة في المئة ونربح بصعود الاسعار وهبوطها ما دامت الحرب سجالاً ثم نبقي من سنداتها في ايدينا قدر ما نشاء . وسيربح كل اصحاب المعامل والبواخر والتجار والملتزمين لان

الاموال التي تنفق توزّع عليهم . وخيرات الارض كثيرة في بلاد الروس وكوريا ومنشوريا واليابان فيستخرجها اهل الزراعة والصناعة ولا يعطون اصحاب الديون الاّ جانباً صغيراً من ربحهم فان المئة والخمسين مليوناً من الجنيهات لا يزيد رباها على عشرة ملايين في السنة مهما كان فاحشاً وهي اذا وزعناها على مئتي مليون سكان روسيا ومنشوريا وكوريا واليابان لم يلحق النفس منهم سوى شلن واحد

الثالث — ليس هذا بالشيء الذي يذكر وما منهم الا وهو يحرق تبغاً او افيوناً باضعاف اضعاف ذلك

الثاني — اذاً نحن متفقون على ان نمدَّ اليابان بما تحتاج اليهِ من المال

الاول — نعم ولكن لا يحسن بنا ان نفعل ذلك مع الروس الآن لانهُ لا بدَّ لنا من اضعاف روسيا بايّة واسطة كانت حتى لا تقوى على اليابان وحتى تضطر اخيراً الى عقد الصلح ودفع الغرامة فنقرضها الغرامة عن طيب نفس بعد ان نأخذ عليها الضمانات الكافية

الثالث — هل منعنُا المال عنها الآن يكفي لاضعافها وجعلها تطلب الصلح

الاول — لا اظن لان جيراننا الفرنسويين قد يغترون بمواعيدها ويمدونها بالمال او تلجأ هي الى المطل والتقهقر البطيء وترك اليابانيين في قفار سيبيريا القاحلة فلا بدَّ لنا من واسطة فعَّالة الواسطة القديمة المعروفة التي الجأنا بها فرنسا الى طلب الصلح من المانيا وهي الثورة الداخلية وهذه امرها جارٍ على ما يرام فان أجراءنا منتشرون في كل مكان ليحرّضوا عليها ولم ننفق عليهم حتى الآن الاّ جزءاً مما ربحناهُ وهب اننا انفقنا عليهم كل ما ربحناهُ فالربح الواصل يكفينا. نعم لا بدَّ من الثورة الداخلية بحجة طلب الدستور او بأية حجة كانت حتى تضطر الحكومة الى عقد الصلح بالشروط التي تشترط عليها

الثاني — اذاً لا بدَّ من الانتظار الى ما بعد استفحال الثورة

الاول — نعم والى ما بعد سقوط بورت ارثر واندحار الجيوش في منشوريا والتغلب على الاسطول الروسي كلهِ وقد يقتضي ذلك كلهُ سنة اخرى من الآن ولكن ما هي السنة وما هي السنوات في حياة الامم

وجلس السر ادورد برون وزوجتهُ في مكتبهِ وقرأا كتابين واردين عليهما من ولديهما من دار الحرب فان التلغرافات كانت ترد منهما تباعاً ولا سيما من هنري ولكن لايذكر فيها الاَّ اخبار موجزة واما هذان الكتابان ففيهما تفاصيل لاتحتملها الرسائل البرقية

كان هنري قد انضمَّ الى الجنرال كروكي كمكاتب حربي وسارت دورا مع جمعية الصليب الاحمر لتمريض الجرحى فكتبا يصفان ما لقياهُ في كوريا

قال هنري وصفتُ لكم في كتابي السابق ما لقيتهُ في اليابان من الحفاوة والاكرام واني سأتشرف بمقابلة الامبراطور وقد حدث ذلك يوم سفري ولما ذكر السفير اسمي واسمك يا ابي واسم لندن نيوز كرَّر الامبراطور اسمي ورحَّب بي وسألني كيف وجدتُ بلاد اليابان ورجالي طيب الاقامة فيها وقال انهُ مديون لنا وللأمة الانكليزية عموماً . وظهر لي من حديثهِ انهُ عارف بمشترى الطرَّادين . ولم تطل مدة المقابلة الاَّ خمس دقائق لكثرة الاشغال والمهام ولما ودعت جلالتهُ قال لي انهُ لا ينسى اسمي واسم ابي فقال لهُ السفير انني سائر الى دار القتال فوقف حينئذٍ مفكراً وهو ينظر اليَّ تارةً والى السفير اخرى كأنهُ استغرب ذلك ثم قال سنوصي ناظر الحربية اذاً لكي يعتني بك اعتناء خاصاً وعسى ان لا نسمع منك وعنك الاَّ كل ما يسرُّ ونحن واثقون بالنصر لاننا اصحاب الحق الذي لا نزاع فيهِ والحق يقوّي اصحابهُ ويشدّد عزائمهم والبغي مرتعهُ وخيم ولكن ليس من السهل ان يقيم الانسان على بساط الراحة مثلي واولادهُ كلهم في ساحة القتال . ثم شدّ يدي وخرجت وانا شاعر كأني فارقت اباً شفوقاً والحقّ ان رعيتهُ كلها تنظر اليهِ كما تنظر الى ابيها بل الى معبودها . والكلام الاخير الذي كلمني بهِ عن قيام الانسان على بساط الراحة واولادهُ في ساحة القتال كررهُ او كرَّر مثلهُ باللغة اليابانية واظن انهُ ترنَّم بشعر نظمهُ حديثاً لانهُ من الشعراء المعدودين بل هو ابلغ شاعر في بلاد اليابان والناس يحفظون اشعارهُ ويترنمون بها واكثرها يدلُّ على حبهِ لرعيتهِ وكرههِ لكل ما يسوءها وسهرهِ عليها سهر الوالد على اولادهِ

وتشرفت دورا بمقابلة الامبراطورة ولابدَّ من ان تصف لكم ما لقيتهُ منها ثم سافرنا كلانا في سفينة حربية الى كوريا ودخلنا سيول العاصمة وشاهدنا قصر الامبراطور وقد

جمع من ضروب الزخارف والسخائف ما يكلّ القلم عن وصفهِ ولا ادري لماذا يحب هؤلاءِ المشارقة تقليد الغربيين في ما لا يحسنون اتقانهُ ولا تقليدهُ وعندهم من فنون الصناعة الخاصة بهم ما يحقّ لكل امة ان تفاخر بهِ حتى اليابانيين تجد في غرفهم آنية وامتعة فرنسوية او انكليزية مما نحسبهُ تحت الوسط والى جانبها امتعة يابانية نفتخر لو رأينا شيئاً منها في اكبر متاحفنا . ولم اتشرف بمقابلة امبراطور كوريا ولكنني رأيتهُ عن بعدٍ

وسرت مع الجيش الى ان بلغنا الحدود الفاصلة بين كوريا ومنشوريا وقد اخبرتكم تلغرافيًّا بالمناوشات القليلة التي وقعت في اثناءِ الطريق ولا اقدر ان اصف لكم مقدار اعتناءِ القواد والضباط بالجنود وسهرهم على راحتهم . وانا اجتمع مراراً بمندوبنا الحربي وهو يقول لي ان نظام الجيش تام وبسالتهُ تفوق الوصف ويظهر ان ادارة المخابرات عندهم بلغت غاية ما وراءها غاية فانها رسمت للجيش خرائط يرون فيها كل طريق وشعب ونهر وجدول وينبوع ومرتفع ومنخفض فضلاً عن المدن والقرى والمزارع • وادارة اللوازمات والتسهيلات لم تترك شيئاً مما يحتاج الجيش اليهِ . ولا ضابط الا وفي يدهِ نظَّارة يرى بها عن بعد وعلى ذراعهِ ساعة وحكّ ليعرف الوقت والجهات ومع كل جندي تذاكر يكتب في التذكرة منها كلمتين ويضعها في صندوق البريد فيرسلها الى اهلهِ • وطعامهم ساذج ولكنهُ كافٍ ومغذٍ • والغريب من امرهم وامر ضباطهم انهم لا يسكرون ابداً وقلما يشربون شيئاً من المسكر واظن انهُ لو لم نكن بينهم ما كانوا يذوقون مسكراً ولكنهم يحسبون الشرب من مجاملتنا فيشربون معنا قليلاً من الوسكي او من الشبانيا

وكتاب هنري طويل واكثرهُ على هذا النسق • اما كتاب دورا فمختصر لانها اصيبت بزكام شديد وهي في بلاد كوريا وكتبت كتاباً مسهباً عن بلاد اليابان قبل مغادرتها لها . وقد رأت من ويلات الحرب في من مرَّضتهم من جرحى الروس واليابانيين ما جعلها تحنق على الذين ساعدوا في اثارة هذه الحرب او لهم اقل مشاركة فيها ولم تكن تبرّ ر اباها من ذلك ولو لم تكن تودّ البقاء بالقرب من اخيها لتركت التمريض والمرضى وعادت الى بلادها . وقد غاظها من الجرحى اليابانيين انهم كانوا يظهرون

الاشمئزاز كلما دنت منهم او دنا منهم غيرها من الممرضات الاوربيات ولا سيما لما علمت انهم يفعلون ذلك انفةً لانهم يدَّعون ان للاوربيين رائحة كريهة . اما الجرحى الروسيون فكانوا على غاية الوداعة ورأت في نفسها ميلاً اليهم اكثر من ميلها الى اليابانيين وسمعت ضابطاً منهم يتكلم الانكليزية فاخبرها انهم مسوقون الى هذه الحرب على غير رضاهم وان اكثر اخوانهِ يجهلون مقدرة اليابانيين واما هو فلا يجهلها ولكنهُ صغير لا يسمع احد قولهُ . وختمت كتابها بتطمين والديها عنها وعن اخيها وبحثّ ابيها على بذل الجهد في ما يقرّب عقد الصلح حجباً للدماءِ ودفعاً لهذه الويلات

لما اتمّت لادي برَوْن قراءة الكتابين التفتت الى زوجها وقالت لهُ ما ظنك يا ادورد هل تطول هذه الحرب وهل يُسفك فيها كثير من الدماءِ

فقال هذا هو المرجَّح عند الذين يوثق بعلمهم . ويُقال ان السنة تنقضي ولا تنقضي الحرب لان روسيا لا تسلّم اذا انكسرت ولا تسلّم اذا انتصرت

فقالت وهل تستطيع اليابان ان تستمر على تعبية الجنود ومداومة القتال . فقال نعم تستطيع ذلك على ما يظهر واصدقاؤها يساعدونها بالمال ان لم يستطيعوا ان يساعدوها بالرجال

فقالت بئس العمل وبئس المساعدة تساعد الناس حتى يقتل بعضهم بعضاً

فقال لقد قلت لكِ مراراً يا ادث ان سلامة امبراطوريتنا تتوقف على اضعافنا الروس لان انظارهم طامحة الى الهند وقد اهتمَّ القائد العام بتقوية الجيش الهندي وتسهيل طرق النقل والمواصلات ولكنهُ مهما قوّاهُ ومهما سهل لهُ الانضمام يبقى دون الجيش الذي يسهل على روسيا ان تضرب الهند بهِ . واذا استطاعت روسيا ان توقد نار الثورة في تلك البلاد فجيشنا لا يكفي لاخمادها فكيف نلتقي به ثلثمئة الف او اربع مئة الف من الجنود الذين تستطيع ان ترسلهم الى الهند . فحياتنا وموتنا كامّة عظيمة يتوقفان على هذه الحرب

فقالت الظاهر انك تنسى ان ثبوت اقدامنا في بلاد الهند يتوقف على حسن ادارتنا لها فاذا احسنَّا ادارتها وعاملنا الهنود كاخوان لنا كأننا واياهم رعية ملك واحد فلا يثورون

علينا كما لا يثور بعضنا على بعض ويستحيل ان يتوخوا ابدال حكمنا بحكم الروس كما يستحيل ان يفكر اهالي ادنبرج مثلاً في ابدال حكم الانكليز بحكم غيرهم . واما اذا كنا نمتهنهم ولا نعاملهم بالانصاف ولا نساويهم بنا فانهم يثورون علينا ولو ضربنا حولهم نطاقاً من الحديد . وسيكونون اقرب الى الثورة بعد فوز اليابان منهم الآن لاننا طالما حاولنا اقناعهم بمعاملتنا لهم ان الشرقي دون الغربي ولا يمكنهُ ان يحكم نفسهُ بنفسهِ ويفلح فاذا فازت اليابان على دولة الروس العظيمة امحّى كل ما حاولنا ترسيخهُ في اذهانهم عن ضعفهم وترفعنا عليهم ورسخ فيهم اننا نحن علة تأخرهم عن مجاراة اليابانيين وتمكنت العداوة لنا من نفوسهم . وسترى انهم هم واهالي الصين يشرعون من الآن في اقتباس طرق اليابانيين لكي يقووا مثلهم وقد نفلح في منعنا السلاح عنهم من البحر ولكن لا بدَّ من ان يصل اليهم عن طريق روسيا باية واسطة كانت فلا سلامة لنا في الهند الاَّ اذا ساوينا الهنود بانفسنا وحينئذٍ تصير بلاد الهند مثل كندا واستراليا ولا تبقى كما هي الآن

فضحك زوجها وقال انسيتِ ما قال بسمارك

فقالت كلاَّ لم انسَ ما قالهُ عدو النساءِ ولا ادري كيف سكتم عنهُ وزمامكم كان في يد امرأة . وانا وانت على طرفي نقيض في هذا الموضوع وقد لا استطيع اقناعك كما لا تستطيع اقناعي ولكن ارجو ان توافقني على ارجاع ولدينا فاني ارى من كتاب دورا انها غير مسرورة ولعل صحتها ليست على ما يرام ولم نربِّ ابننا ليكون ضابطاً ولا قائد جيش وليس من الحكمة ان نغرّر بحياتهِ لمصلحة مالية فان كان ذهابهُ لغاية سياسية فقد قضاها ومكاتبة الجريدة امر يستطيعهُ كل احد ولذلك ارى من الحكمة بل من الواجب ان نرسل اليهما تلغرافاً ليحضرا حالاً

فقال سكّني روعكِ فانني اظن انهما يستاءان جدًّا اذا طلبنا منهما الرجوع الآن

فقالت نطلب منهما الرجوع ولا نلح بل نترك لهما التصرُّف المطلق كأن نقول لهما اننا نفضل رجوعكما سريعاً

فقال ان تلغرافاً مثل هذا يقلقهما ويقلق غيرهما لان ادارة المخابرات اليابانية

لا بدَّ وان تطلع عليهِ

و بعد بحث طويل ارسلا اليهما تلغرافاً يقولان فيهِ اننا نود رجوعكما في اول فرصة ممكنة

في بطرس برج

سرجيوس — هل قرأتم التلغراف الذي ورد قبل الظهر

فلادمير — التلغراف الذي نشرتهُ نظارة الحربية . من يصدّق تلغرافاتها

سرجيوس — هذا التلغراف لم تنشرهُ حتى الآن ولكن لا بدَّ لها من نشرهِ اليوم لان القيصر لا بدّ وان يأمر بجناز عن نفوس الغرقى

اولغا — اي غرقى

سرجيوس — الاميرال الاميرال ميكاروف وكل مَن في بارجتهِ بترو باوالسك . غرقت البارجة بلغم مستهُ وهي راجعة الى بورت ارثر من مطاردة اليابانيين . مست لغماً من الغامنا فانفجر واغرقها بمن فيها ولكن نجا الغراندوق سرل فلا بدَّ من ان تكون الصلاة للترحيم على الغرقى وللشكر على نجاة الغراندوق او نبدأ بالشكر على نجاتهِ ثم بالترحيم على المئات الذين غرقوا

اولغا — اصحيح ما تقول هل قرأت التلغراف بنفسك

سرجيوس — نعم صحيح ونحن مهما كانت مقاصدنا لا يسعنا الاّ الحزن على ما جرى لان الذين غرقوا اخواننا ولا ذنب لهم حتى يذهبوا ضحية سوء التدبير وقد اجتمعت بمير امس فاكد لي ان هذه الحرب لا تنتهي ما دامت البلاد تبني البوارج وترسل الفيالق وان هذه افضل فرصة لنا لمطالبة القيصر بالدستور فاذا سمح لنا بحكومة نيابيَّة فالحكومة تضطرهُ الى ابطال الحرب حالاً او الى عقد الصلح قبلما يتسع الخرق على الراقع ومن رأي مير اننا اذا شرعنا في التهييج من الآن لا نستطيع ان نتم عملنا وننال بغيتنا قبل سنة من الزمان

اولغا — الكلام سهل ولكن العمل صعب

فلادمير — ومن اين المال . فان صندوقنا يكاد يفرغ

سرجيوس — قال مير اننا اذا شرعنا في العمل الآن فهو يضع تحت امرنا مئة الف روبل ومتى نفدت يضع غيرها

اولغا — لم يصدق معنا في المرة الماضية فقُتل اخي الكسي وارسلت هيلانة الى سيبيريا

فلادمير — ليس اللوم عليهِ فقد سلَّم اليَّ اكثر من ستين الف روبل ولكن الدنيا قامت علينا حينئذٍ

اولغا — لم تقم الدنيا علينا ولا قام احد ولكن اتتهُ الاوامر من الذين يدفعون المال ليكفَّ عن الدفع فسافر الى كارلسباد بحجة التداوي وتركنا نحرق اصابعنا

فلادمير — كيفما كان الحال في الماضي فالفرصة الحاضرة لا تفوّت ولا احد يلومنا الآن على ما نفعل لان الغرض منهُ النفع العام

بطرس — وهل يتوخى مَير ما منهُ نفع عام . اليكم عن الغرور والتغرير فان قومهُ لا يطلبون الاّ نفع انفسهم ولو خربت الدنيا

سرجيوس — اصبت ولكن يتفق احياناً كثيرة ان ينفع الانسان غيرهُ وهو يطلب نفع نفسهِ

بطرس — انا معك في هذا أما القيام بثورة جديدة فلا فائدة منهُ ما لم نضرم نارها في كل المدن الكبيرة

سرجيوس — ما دامت البلاد مستعدة لهذه الثورة فهي تنتشر فيها من نفسها ولا يُطلب منا الاّ ان نصبَّ الزيت عليها

اولغا — هل وُضعت الخطة التي يجب السير عليها

فلادمير — قبل وضع الخطة يجب ان نعرف الى اي حدٍّ يتصل استعداد مَير لدفع المال

سرجيوس — رأيت منهُ اندفاعاً شديداً هذه النوبة ولا استغرب اذا كان يعطينا مليون روبل

اولغا — مليون روبل هذا لا يمكن لانه لا يملك اكثر من ذلك

فلادمير — اذا اراد وكان لهُ ولاخوانهِ مصلحة فلا يكثر عليهم أن يدفعوا

عشرة ملايين

بطرس — كيفما كانت الحال فالوقت الحاضر لا يوافق لتحريك الثورة لان الامة كلها مجروحة ومغتاظة ولكن متى سكن ألمها قليلاً وطُلبت منها اموال جديدة وجنود جديدة فحينئذٍ نجد من يسمع كلامنا

فوافق الباقون على هذا الرأي وعلى بقاء المخابرة مع ميَر وعلى ان الغرض نفع البلاد لا غير

في طوكيو

اجتمع مجلس النظار وتليت عليهم الاخبار التلغرافية من الاميرالية وقواد الجيوش البرية فقال الجنرال الكونت تارو كتسورا رئيس النظار لم يكن فوزنا حتى الآن اقل مما انتظرنا وقد احسن الاميرال طوغو بوضع الالغام في مدخل البوغاز وهي فكرة صائبة ولو قيل لهُ كم تؤمل منها ما كان امَّل اكثر مما نال لان غرق الاميرال ميكاروف على هذه الصورة لابدّ وان يضعف عزائم الروس

فقال الدكتور يوزورو كوبوتا ناظر المعارف ألم تبدِ روسيا اقل ميل حتى الآن الى عقد الصلح فأجابهُ ناظر الخارجية ولا ينتظر منها ذلك لا سيما وان اسطولها لا يزال قويًّا . وقال الجنرال مساتاكي ناظر الحربية وزد على ذلك ان بورت ارثر محصنة اقوى تحصين واذا استطعنا فتحها في شهرين او ثلاثة فيكون السعد خادماً لنا اكثر مما ننتظر وعندي في قلم المخابرات ادلةٌ قوية على ان فتحها يكاد يكون ضرباً من المحال اذا لم يقع الشقاق بين قوّاد حاميتها او لم نوفّق الى سحق اسطولها ثم نأتيها بمدافع الحصار ونقطع سكة الحديد عنها . واماكن الجيوش البرية حصينة جدًّا فان الروس مستعدون لهذه الحرب من حيث الحصون والمدافع وما اشبه اكثر مما هم مستعدون من حيث عدد الجنود

وقال ناظر المالية لابدَّ لنا من قرض آخر قريباً ولا صعوبة في عقدهِ على ما يبلغني .

فقال ناظر المعارف لقد خصصنا لهذه الحرب الاموال المتوفرة عندنا وهي نحو ٤٠ مليون ين وكل ما يزيد من احتكار التبغ وهو نحو ٦٠ مليون ين واستدنَّا في اوائل

فبراير مئة مليون ين فهل اذا استدنا مئة مليون اخرى تكفينا الى نهاية الحرب

فقال ناظر البحرية ان هذا الامر لا يعلمهُ الاَّ علاَّم الغيوب لان الفواعل في الحرب كثيرة جدًّا كما لا يخفى على حضرة الناظر واكثرها غير خاضع لارادتنا ولكننا باذلون غاية جهدنا في انجاز عملنا بأسرع ما يمكن

رئيس النظار — لا شبهة في ان رجالنا كلهم قاموا بما يجب عليهم لامبراطورهم وأمتهم . ولما ذكر لفظة امبراطور نهض النظار كلهم وقوفاً ثم جلسوا

فقال ناظر الخارجية اصبت وكل سفرائنا يكتبون اليَّ عن اعجاب الدول الاوربية بما فعلناهُ حتى الآن

و بعد محاورة قليلة في هذا الشأن قرَّ قرارهم على عقد القرض بأقل ما يمكن من الربا وفوَّضوا الى ناظر المالية عقدهُ بعد مصادقة مجلس النواب

القاهرة

استير — ابوكِ احسن جدًّا فقومي نخرج الى النزهة

بهية — نعم احسن والحمد لله ويا حبذا لو خرجت أمي و بقيت انا عندهُ لانها لم تخرج من البيت منذ عشرة ايام

استير — قولي لها فاني أودها مثل أمي تماماً واظن ان كل احد يودها لانسها و بساطة قلبها

بهية — اصبتِ ويجب ان نشكر الله لان أمي وأمكِ قريبتان الى القلب جدًّا ولا ادري كيف تقدر البنت ان تفارق أمها

استير — آه ما هذا وهل يخطر ببالكِ ان تفارقي امك ومتى والى واين . أنا شاعرة بذلك ولكنكِ لم تخبريني حتى الآن . قومي وتعالي معي واخبريني وأنا أخبركِ شيئاً آخر

فقامت بهية وقالت لأمها ان استير آتية لتخرج معها الى النزهة وانها هي تفضل ان تبقى مع ابيها وتخرج أمها بدلاً منها . فتنهَّدت امها وقالت لها اخرجي انتِ لانك احوج مني الى النزهة وقد ارسلت هانم افندي حرَم راغب باشا تقول انها آتية لزيارتنا

فلا بدَّ من بقائي في البيت

فخرجت بهية مع استير ولم تكادا تركبان المركبة حتى قالت استير لبهية هل كتبتْ اليكِ مس برون . فاحمرَّت وجنتا بهية وقالت نعم كتبتْ . كتبتْ مكتوباً طويلاً ما امهرها في الكتابة

استير — وماذا قالت لك عن اخيها

فنظرت بهية اليها ثم اطرقت ولم تقل شيئاً

استير — اتخفين عني يا بهية

بهية — انظري في اي حال نحن امين لم يقم الآ منذ يومين وابي لم يزل على حالهِ وماذا اقول لكِ صدقيني اني كرهت الدنيا وكرهت الحياة

استير — سينتهي كل شيء على خير و يعود هنري بالسلامة . قالت ذلك باسمةً ثم ضمَّت استير اليها وقالت لها قولي لي ماذا تمَّ بينكما

بهية — لم يتم شيء ولم يقل كلمةً لابي ولا لامي وقد طلب ان يكاتبني فابيت والظاهر انهُ اخبر اختهُ وهي تكتب لي مع كل بريد وكان كلامها عمومياً الاَّ في كتابها الاخير فانها قالت لي ان هنري قلق جدًّا وانهُ يود ان يتمم شغلهُ ويعود باسرع ما يمكن . وتطلب مني ان اخبرها اين نحن عازمون على تمضية الصيف

استير — اهذا كل ما في مكتوبها

بهية — كلاَّ ولكن هنري نفسهُ اخذ مكتوبها وكتب لي حاشية فيه يقول فيها اني منعتهُ من ان يكتب لي ولكنهُ لا يظن ان هذا المنع يتناول ان يكتب لي حاشية في مكتوب اختهِ

استير — وماذا كتب اليكِ

بهية — كتب اليَّ ما جعلني ابكي ساعتين . قالت ذلك وهطلت الدموع من عينيها فضمتها استير الى صدرها وجعلت تقبلها وتقول لها يجب ان تشكري ربكِ لان ابي يقول ان هذا الشاب من احسن الشبان الذين رآهم وابوهُ من الاغنياء اهل الوجاهة وسيرث مقام ابيهِ لانهُ بكرهُ فتصيرين لادي برون

بهية — ولكن اين نحن وهو في ساحة القتال

استير — اذاً هذا هو الذي شغل بالكِ وابكاكِ ولماذا لا تكتبين اليهِ ليرجع حالاً

بهية — قال انهُ سيرجع قريباً ولكنهُ ختم الحاشية التي كتبها اليَّ بقولهِ ان الحالة لا تخلو من الخطر على حياتهِ لانهُ عازم ان يزور معسكر الروس قبل رجوعهِ ولان الحميات منتشرة هناك الآن وقال انهُ ان رجع سالماً فهو لي ان قبلتهُ والاَّ فسلامتهُ وعدمها على حدٍّ سوى بالنسبة اليهِ . وقد عقَّبت دورا على حاشية اخيها فقالت انهُ دائم التفكير فيَّ وانهُ اخذ صورتي منها وهي معهُ دائماً • ومع ذلك اشعر يا استير كأنَّ بلاطةً على صدري فلقد صدق من قال ان المصائب لا تأتي فرادى • لقد اخبرتكِ كل شيء فهاتي اخبريني انتِ فان في وجهكِ خبراً • هل ودَّعكِ امين قبل ذهابهِ الى الاسكندرية وهل ما يقال عن ابن عمكِ صحيح

استير — نعم مرَّ امين علينا وودعني وقد تغير كثيراً • وموسى اجبناهُ بالرفض لاني لا اميل اليهِ . والحق اقول لكِ اني لا اميل الى احد . احزري من طلبني ايضاً طلبني حليم بك . هو شاب طيب جدًّا ولا بأس بهِ ولكن اتستسهلين ان تتزوج الواحدة رجلاً لا من شعبها ولا من ملتها . نعم ان كثيرات يفعلن ذلك ولكن تكون الواحدة منهن مع زوجها كأنها غريبة عنهُ او تضطر الى تغيير عاداتها ومشاربها لكي توافق عادتهِ وعادات قومهِ ومشاربهم وهذه ليست المعيشة الزوجية التي الفناها في بيوتنا ولا هي المعيشة التي يجب ان تكون ولا اقول ذلك بالنسبة اليكِ والى المستر برون بل بالنسبة اليَّ اذا اقترنت بابن راغب باشا

بهية — ولماذا لا يكون قولكِ بالنسبة اليَّ والى هنري فان عادات قومهِ واطوارهم ابعد عنا من عادات بيت راغب باشا عنكم • ألا تظنين ان ذلك من جملة الاسباب التي تقلق بالي ولكنني لا اعلم كيف اتغلَّب عليها وتزول من فكري احياناً كثيرة واظن ان هذا ينطبق على قولهم في العربي عين الحب عمياء (لانهما كانتا تتكلمان باللغة الفرنسوية على جاري عادتهما)

استير — هذا هو الصواب ولو كنت احب حليماً لا غضيت عن المصاعب التي

ارها الآن

بهية — لقد كنت احلم وامني نفسي بانكِ تكونين لامين وامين يودك كثيراً ولكنهُ من حين علم مقدار الخسارة التي لحقت اباهُ بسببه ضعفت عزائمهُ وصغر في عيني نفسهِ . لعن الله البورصة فانها تميت نفس الشريف وتضعف عزيمتهُ

استير — ان خسارتهُ كبيرة ولكنها طفيفة بالنسبة الى ثروة ابيك وقد دفعها ابوكِ كلها ولم يقل شيئاً

بهية — لم يدفعها ابي بل دفعها ابوكِ عنهُ وحسبها علينا ولكن الا تظنين انها أثرت في ابي حتى اضعفت صحتهُ وهي وسقطة امين كانتا سبب مرضهِ لا من حيث الخسارة نفسها بل من حيث نوعها فانهُ لو اشتغل شغلاً قانونياً يرضاهُ ابي ثم خسر بهِ ضعفي ما خسرهُ الآن ما كان تألم من ذلك قدر ما تألم الآن ويخاف ابي ان يبقى امين متعلقاً بشغل البورصة ولكن لا اظن انهُ يكون كذلك لاني اراهُ في اشد الندامة على ما فعل وهو يقول ان عزرا غشهُ وانهُ يستحيل ان تكون خسارتهُ بلغت هذا الحد . او لا تريدين ان اقول شيئاً ضد عزرا

استير — قولي ماشئتِ فاني اعلم خبثهُ واخاف ان يكون قد فعل ما فعل بأمين لكي يبعدني عنهُ ولكن لا بدَّ من ان ينال جزاءهُ او كما يقول المثل العربي على الباغي تدور الدوائر

بهية — أنا شاعرة بشيء من ذلك فاذاً لا فكر لكِ في عزرا ولا موسى ولا حليم وسترين من امين غير ما تظنين بعد ان ينسى هذه الورطة التي وقع فيها . وكلمة منك تنعش فؤادهُ وتشدد عزيمتهُ

فلم تقل استير شيئاً ووصلتا حينئذٍ الى موقف المركبات في سكة الاهرام وسلمتا على كثيرات من اللواتي رأتاهن هناك ثم عادتا ومرَّتا على بستان الحيوانات ودخلتاهُ ومشتا فيهِ ولم تعودا الى الموضوع الاول الا بعد رجوعهما حينما ودعت استير بهية فان بهية قالت لها ماذا اقول لامين حين اكتب اليهِ . فقالت استير سلمي عليه وقولي لهُ ان يعتني بصحتهِ ولا يبعد ان ننزل نحن الى الرمل ايضاً بعد نحو عشرة ايام وسنتكلم في هذا الموضوع في فرصة أخرى ثم تعانقتا وقالت بهية لاستير تعالي ادخلي معي فاني

اظن ان أمّ حليمة عندنا وهذه مركبتها

فقالت استير قد فات الوقت الآن والظاهر ان حليمة قامت حتى صار يسهل على امها ان تفارقيامع انهُ بلغني امس انها نكست فادخلي الآن وسازورك غداً فتخبرينني بكل ما تقولهُ لكِ

ودخلت بهية وسلمت على ام حليمة فاعتنقتها هذه عنها وعن ابنتها وقالت لها ان ابنتها عادت الى سريرها ويقول الطبيب انهُ يخشى من ان شظية من العظم بقيت في خاصرتها وانه ربما يضطرّ ان يعمل لها عملية أخرى لان الحمى عاودتها من أول امس .

فسألتها مدام واصف بك عن نجم الدين وما فعلوا بهِ . فقالت ان أهله ادّعوا انهُ مجنون لكي ينجوهُ من العقاب وهو مسجون الآن وجاء محامٍ ايطالي مشهور يقال انهُ درس عند عالم ايطالي يدّعي ان المجرمين كلهم مجانين فألّف رسالة يزعم فيها ان نجم الدين مجنون وان حليمة سبب جنونهِ فكانهُ يلقي اللوم علينا .أرأيتِ خبص هؤلاء المحامين . اما الباشا فيقول ان لا بدّ من تأديبهِ حتى يكون عبرةً لغيره . و بعدحديث من هذا القبيل قامت وودّعت ودَعت بهية لتأتي من الصباح وترى حليمة

الفصل السادس والعشرون

بين الحاضرة والآخرة

— قلت لكِ يا هانم لا يخلّص ستي حليمة الا الزار ما لي ومال الحكما أهو بقا لهم شهرين يعالجوا فيها عملوا ايه

— أتظنين يا فاطمه انهُ يمكننا ان نعمل الزار هنا في السراي من غير مايدرى الباشا

— لا ما يمكنشي لان الزار بدُّو أربع وعشرين ساعه ودق وزيطه ولكن انا كلمت شيخة الزار حتى نعملوا في بيتي لستي حليمه والشيخه تجي الليلة وتبخر ستي حليمه وتكتفي هنا بالبخور والليله فرح في بيت حقي باشا وان راح الباشا لهناك ما يرجعش قبل نصف الليل ونحن ساعة واحدة تكفينا و بالكثير ساعتين

— فجلست أم حليمة تفكر في هذا الامر وهي تدخّن سيكارة دقيقة ثم نهضت

ودخلت غرفة حليمة وجسَّت نبضها وجبينها وجلست الى جانب سريرها وفاتحتها بموضوع الزار . وكانت قوى حليمة قد نهكت من العملية الاخيرة وتواصل الحمى وضعفت ارادتها جدًّا فالامر الذي كانت ترفضهُ اولاً رفضاً باتاً ضعفت عن رفضهِ الآن فقالت لامها افعلي ما بدالكِ اما انا فلا استطيع المشي ولا الوقوف

فقالت لها امها ان فاطمة تقول انهم هم يعملون الزار في بيتها و يكتفون هنا بتبخيرك

فتململت حليمة وقالت لامها ان تخبر اباها واخاها على الاقل ان لم تشأ ان تخبر الطبيب . وكانت تتكلم بالتركية بصوت متقطع ولما رأت ان امها بقيت صامتة ولم تتكلم قالت لها ان تفعل ما تشاء بشرط ان لا يجبروها على القيام والمشي ولا يرفعوا اصواتهم كثيراً . وخرجت امها وتداولت مع فاطمة مدة وقرّ القرار على اخبار شيخة الزار لتحضر تلك الليلة وتعمل ابسط ما يمكن ان يعمل

وكانت افكار حليمة سريعة التنقُّل من موضوع الى موضوع فراجعت ماضي حياتها من حين كانت طفلة وتردَّد في بالها ما حفظتهُ غيباً من الآيات والاشعار العربية والتركية والفرنسوية واحاديثها مع امها وابيها واخيها لان راغب باشا لم يكن يهمل الكلام مع اولادهِ وقص القصص عليهم . وكررت ايضاً ما كانت تسمعهُ من معلمتها الفرنسوية عن السماءِ وجهنم والثواب والعقاب فقالت الى اين امضي بعد الموت وحاولت ان تنظر الى ما وراء القبر فلم ترَ الاّ ظلاماً دامساً ثم قالت ان كل المعلمين والمهذبين يأمروننا بعمل الصلاح وانا لم اضرّ احداً ولا قصدت ضرر احد فالى اين اذهب بعد الموت وكيف يكون حال امي بعدي لا بدَّ من انها تنساني كما نسيت اختي توحيدة كم بكت عليها وكم ناحت نعم انهُ مضى على ذلك خمس سنوات الآن ولو بقيت توحيدة لكانت صبيَّة . كان عمرها تسع سنوات لما ماتت . يا حبيبتي كانت تحبني اكثر من كل احد وقد فارقتني منذ خمس سنوات . فراق طويل جدًّا ولكنني لا انساها ابداً وسأذهب اليها نعم سأذهب اليها سريعاً وهي الآن في انتظاري . ما اعظم سروري بها حين اراها . اظنها صارت طولي الآن ولكن هل يطول الجسم بعد الموت وهل ينمو كما تنمو اجسام الاحياء . ان اجسام المصريين القدماء التي في الانتكخانة لم تزل على حالها الكبير

كبير والصغير صغير حتى الطفل لم يزل طفلاً وقد بقيت محفوظة لانها محنطة ولو دفنت في الارض كما ندفن نحن لا نحلَّت وصارت تراباً فاين التقي بكِ يا توحيدة ياعزيزتي بعد ان صرتِ تراباً ورماداً وهل اصير انا تراباً مثلكِ اصير تراباً ولا يبقى شيء من جسمي وشعري . كان لي جسم اما الان فصرت جلداً وعظماً وسيبلى كلهُ . ما افرغ هذه الحياة التي نهايتها الموت والبلى . مَن ارى بعد الموت ومَن اعرف ومَن انتظر ومَن ينتظرني . لم يعلّمني ابي شيئاً ولا علّمتني أمي عمّا يكون بعد الموت . نعم ان المداموازل كانت تقول لي اننا نجتمع في السماء ونرتل مع الابرار ونمجد الله ولكن كيف نرتل للهِ وكيف نمجدهُ ونحن من غير اجسام . آه يا أمي ماهذا الصداع . كيف نمجدهُ من غير اجسام . الفم يبلى واللسان يبلى فكيف نتكلم ولا لسان لنا ولا فم ولكن ها أنا أتكلم الآن أفكر فكراً ولا أحرك لساني ولا فمي . آه نعم نعم نستطيع ان نتكلم من غير لسان نتكلم بالفكر وهذا الفكر يبقى ولا يموت فان الجسم ينام في الليل والفكر يبقى فقد يبقى الفكر حيًّا بعد موت الجسم . قد يكون ذلك صحيحاً وقد لا يكون يا حبذا لو أتى الشيخ احمد الى هنا فانه يعلم كل شيء وكنت اسألهُ وحليم يعلم ايضاً فسأسأله متى حضر . أين هو الآن . مسكين حليم كنت أريد ان يقترن باستير . هل ارى توحيدة بعد الموت نعم اراها بدون جسمي اراها هوذا أنا اراها الآن اراها بعين العقل ولكن هل يبقى العقل من غير جسد ان كان عقلي يبقى فعقلها يبقى فلماذا لا تكلمني مطلقاً . حلمت بها مرتين او ثلاثاً في السنة الاولى ثم لم اعد احلم بها . اين انت يا توحيدة يا حبيبتي كلميني . نعم سأراكِ ولا اعلم كيف اراكِ ولكنني سأراكِ . آه يا ربي ما هذا الصداع آه يا أمي يا رأسي .

ثم فتحت عينيها فرات أمها واقفة تنظر اليها والممرضة تروّح لها بمروحة فتبسمت لها وقالت لأمها اتعلمين مع مَن كنت اتكلم الآن . كنت اتكلم مع توحيدة كنت افتكر فيها وقد رأيتها وكلمتها ولكنها لم تكلمني . فجالت الدموع في عيني أمها وادارت وجهها ومشت الى مقعد جلست عليهِ وقد تشاءمت من ذلك ودخل راغب باشا حينئذٍ ورآها على تلك الحال فأوجس شرًّا ودنا من ابنتهِ وقبّل جبينها فتبسمت وقالت لهُ اين

حليم فقد مضى من الصباح وما عدت اراهُ . فأجابها انهُ سيأتي الآن وقد ذهب لمساعدة بيت حقي باشا في مهام العرس لان سنيّة ستتأهل هذه الليلة وهي وأمها تسلمان عليكِ وقد اسفنا جدًّا لانكِ لا تستطيعين ان تحضري الزفّة

ودار الى حيث تضع الممرضة قائمة الحرارة والنبض فنظر فيها وجسّ نبض حليمة ومسح العرق عن جبينها ثم ادنى كرسيًّا من سريرها وجلس قرب رأسها . وقامت أمها وخرجت وهي لا تكاد تستطيع الوقوف لشدة ما حلَّ بها ومضت الى غرفتها وقد تذكرت الجرح القديم وكأنها رأت ان حليمة ستتبع أختها ففاضت الدموع من عينيها واستسلمت للبكاء والنوح ونظرها الجواري كذلك فخفن من الدنوّ منها لان مهابتها كانت شديدة في نفوسهنّ

واتى الطبيب حينئذٍ واكثر من وضع اكياس الثلج على رأس حليمة نحو ساعة فاستراحت كثيراً واطمأن بال ذويها . وأتت شيخة الزار في المساء وبخرتها فلم تقلقها وارادت الممرضة ان تمنعها اولاً ثم لما علمت ان ليس مرادها سوى اطلاق البخور وظنت انهُ فرض ديني فكفّت عن منعها لا سيما وانها كانت تعلم ان اطلاق البخور يفيد ولا يضر لانهُ مميت المكروبات ومطهر للفساد . وقد تكفّلت الشيخة انها تصنع الزار في بيت آخر ومع ذلك تصل الفائدة منهُ الى حليمة على خلاف العادة المتبعة لان حليمة ابت ان يعمل الزار في غرفتها ولم تكن امها تجرأ على عملهِ ولا كانت واثقة ان منهُ فائدة

ومرَّت فاطمة على بيوت عشر من النساءِ واخبرتهنّ ان شيخة الزار عازمة ان تعمل الزار في بيتها من اجل حليمة بنت راغب باشا فاعترضنَ عليها وقلنَ انهُ لا ينفع ما لم تركب حليمة نفسها على خروف الزار فقالت فاطمة بل ينفع وانها هي تقوم مقامها وقد اكَّدت لها الشيخة انهُ ينفع كما لو كانت حليمة نفسها الراكبة اذا وضعت في بالها ان الزار عُمل لاجلها . وان ام حليمة اعطتها مئة جنيه لتعمل الزار بها . فقمن من الصباح التالي واخذت كل واحدة منهنّ ملابسها الغريبة التي تلبسها وقت زفة الزار الواحدة لباس رجل صعيدي والاخرى لباس مغربي والاخرى لباس سوداني وهلمَّ جرًّا وأتين الى بيت فاطمة واتت الشيخة فأعطتها فاطمة أجرة عملها عشرة جنيهات

واعطتها مال المخالفة لئلا يهتدي البوليس اليها فيكتبها في المخالفات ووزعت على كل من الباقيات خمسة جنيهات خمسة جنيهات ثم لبسن ثياب الزار الغريبة واتين بخروف ألبسنهُ شالاً من الكشمير أتت به فاطمة من بيت راغب باشا واوقدن الشموع واطلقن البخور وسألن الشيخ الذي على فاطمة عما يريد ان تلبس فأخرجت لسانها من فيها وقالت انها تريد ان تلبس جلد نمر وعشرين عقداً من الفضة والخرز المذهب وكانت قد اعدَّت ذلك فألبسنها اياهُ وابتدأت الزفة بنقر الدفوف والاكثار من اطلاق البخور والغناء والزئاط واركبن فاطمة على الخروف وطفن بها في جوانب الغرفة نحو ساعتين من الزمان ثم ذبحن الخروف وغسلن ايديهن بدمهِ ومسحن بهِ وجوههنَّ واخذهُ طبَّاخ فسلخهُ وطبخهُ لهنَّ فأكلنَ منهُ الظهر والمساء وشربن السوبيا وهي نقاعة الارز ومسحوق القرفة وبقين في غناء ورقص ونقر على الدفوف واطلاق للبخور الليل كلهُ الى ان طلع الصباح وقد نهكت قواهنَّ وارتمينَ على الارض لا يستطعنَ الحراكَ والشيخة تنادي الشيخ الحالَّ على فاطمة وتأمرهُ بتركها وهو يجيب احياناً بالتهكم عليها واحياناً بالانقياد لها

هذا ما كان في بيت فاطمة واما حليمة فأصبحت وقد ارتفعت حرارتها درجة عما كانت في الصباح السابق فقلقت الممرضة واستدعت الطبيب فوقف يهز رأسهُ واستدعى جمعية الاطباء والجراحين فحكموا بوجوب العملية لنزع شظية العظم وما يمكن ان يكون حولها من الصديد

الفصل السابع والعشرون

تقرير برودي

كلكتَّا في ... لم اكتب قبل الآن لانني لما وصلت الى يوكاهاما نزلت في مركبة قاصداً الغراند هوتل فسارت بي المركبة الى دار المحافظة بدلاً من المسير الى الهوتل ولم اشعر الاَّ وانا بين نفر من الحراس فساروا بي الى سجن مظلم وتركوني فيهِ .

وعبثاً كنت انادي واقول اني رجل انكليزي واطلب ان يُرسَل جوازي الى قنصلي وبُحّ صوتي وانا انادي واستغيث ولا مجيب ولا مغيث . و بعد ساعتين من الزمان جاءني ضابط يعرف الانكليزية وقال لي ان ولاة الامر اكتشفوا انني جاسوس لروسيا من حين كنت في البحر الاحمر وكل المكاتيب التي كتبتها من ذلك الحين محفوظة الآن في قلم المخابرات وهم غير عازمين ان يفعلوا بي شرًّا وانما يبقونني في هذا السجن الى ان تنتهي الحرب و يعقد الصلح وحينئذٍ يطلقون سبيلي . وطلب اليَّ ان اقبل مصيبتي بالصبر لانني انا الجاني على نفسي . قال ذلك وخرج واقفل الباب وراءهُ

ولا تسألوا عما حلَّ بي حينئذٍ لان الحق قهّار . ولم آسف على نفسي بل اسفت لان خدمتي ضاعت وتعبي ذهب سدًى ولولا مرض حلَّ بي من شدَّة البرد في ذلك السجن ومن سخافة الطعام لكنت الآن لا ازال فيهِ لا اسمع غير رسف قيود المسجونين . ولم اعد ارى ذلك الضابط الاّ مرتين وفي المرة الثانية انست بهِ وتوددت اليهِ واعترفت لهُ بذنبي بعد ان اعطيتهُ الاشارة الماسونية وعرفت انهُ من الاخوة . ثم سألتهُ كيف عرفوا انني جاسوس فضحك وقال الامر سهل فان خدام السفينة يغيرون الورق النشاش على مائدة الكتابة مرتين كل يوم و يدققون نظرهم في ما ينطبع عليهِ وقت تنشيف الكتابة بهِ فيكتشفون اموراً كثيرة والظاهر انهم اكتشفوا من كتابتك انك جاسوس للروس فصادروا مكاتيبك واطلعوا على ما فيها فعرفوا حقيقة امرك ولو كانت بالروسية لان قلم المخابرات عندنا يعرف كل اللغات الاوربية

فسألتهُ عما اذا كانت نجاتي ممكنة واني اعدهم بالسفر حالاً . فوعدني انهُ يبذل جهدهُ في ذلك ثم لم اعد اراهُ والظاهر انهُ دعي للحرب والاّ لرأيتهُ او سمعت عنهُ لانني ابديت لهُ اشارة الضيق ولا يسعهُ حينئذٍ الاّ اغاثتي . ثم مرضت ونقلت الى مستشفى السجن ووجدت ان طبيب المستشفى من الاخوة ويتكلم الانكليزية والالمانية وقد درس في المانيا فسألني عن امري فاخبرتهُ . ولما نقهت سعى في خلاصي فوضعوني في سفينة آتية الى كلكتا بعد ان اقسمت لمدير قلم المخابرات انني لا اعود الى بلاد اليابان ابداً . واعادوا رسمي وقياسي واعادوا ايضاً رسم انامِلي اي دهنوا انامِلي

بالحبر وطبعوها في كتاب عندهم ثم اعطوني جواز السفر

وانا الآن في كلكتا ولم اجسر ان ارسل اليكم تلغرافاً لئلا يعلم لدى رجال الحكومة هنا واخاف ان يكونوا عارفين بي وان تكون حكومة اليابان قد اخبرت حكومة الهند بكل ما توقَّع لاني ارى اثنين يقتفيان خطواتي كيفما سرت . وهذا الكتاب مرسل ضمن كتاب لامي ولا ارى موجباً للانتظار هنا لانني لا استطيع ان آتي عملاً ولذلك سأعود الى انكلترا في الاسبوع القادم

وقد تحدَّثت مع الطبيب مليًّا وفهمت منهُ ان استعداد اليابان يفوق التصوُّر وانها ضربت الاسطول الروسي في بورت آثر واتلفت جانباً كبيراً منهُ ودخلت بلاد كوريا وامتلكتها وقطعت نهر يالو ولا بدَّ من ان تكون هذه الاخبار قد وصلتكم كلها بالتلغراف في حينها . واجتهدت لاعلم منهُ عن مقدار المساعدة التي نالتها اليابان منا فوجدت انها كلها مالية وادبية . اما المستر برون فقوبل بمزيد الاحتفاء في السفينة اليابانية التي ركبناها من السويس وقد اخبرتكم عن كل ما سمعتهُ منهُ ومن اختهِ بالتفصيل وعن كل ما سمعتهُ من اليابانيين ولكنني علمت بعد ذلك ان كتبي صودرت كلها فلم يصل اليكم شيء منها ولا داعي الآن لذكر شيء مما ذكرتهُ فيها لان الحرب قد نشبت ولم يبقَ محل للحذر والتوقي وساكون عندكم بعد وصول هذا الكتاب اليكم باسبوع على الاكثر

استلمت مئة جنيه من المسيو نيقولافتش واودعكم الآن الى اللقاءِ

القرض الثاني

السر هنري برون — ربما اتأخر يا ادث الى ما بعد وقت العشاءِ لاننا نبحث الآن في عقد قرض آخر لليابان

زوجتهُ — بلغني اننا نمنع البوارج الروسية من اخذ الفحم من اساكلنا الى اساكل غيرنا فاخبرني بالله عليك يا هنري ما الفرق بين مساعدة الروس بالفحم ومساعدة اليابان بالمال الذي يشترى بهِ الفحم والبارود والديناميت وكل لوازم الحرب كيف نحرّم على غيرنا مساعدة احد الفريقين بالفحم ونحن نساعد الفريق الآخر بالمال

السر هنري — لا يمكنني ان اقول سوى ان ان الدول متفقة على أن الفحم من المواد الممنوعة والمال ليس من المواد الممنوعة

زوجتهُ — ايُّ انسان لهُ عقل يمنع الخاص ويترك العام الذي يشمل ذلك الخاص ولماذا لا نعدل نحن من قبَل انفسنا فان المراد بمنع الفحم او البارود هو ان لا يُساعد احد المتحاربين على الآخر . واي مساعدة اقوى من المساعدة المالية فاذا كانت دول اوربا تكره الحرب حقيقة وتود ابطالها فسبيلها ان تمنع المساعدة المالية عن الفريقين فيضطرا الى ابطال الحرب

السر هنري — اذا فعلنا ذلك كان الفوز لروسيا لان خزائنها اغنى من خزائن اليابان

زوجته — واذا لم نفعل ذلك كان الفوز لليابان لاننا نعقد لهم القرض بعد القرض ولا نعقد قرضاً للروس

السر هنري — وهذا هو المراد لان مصلحتنا تقوم بفوز اليابان على الروس

زوجتهُ — اذا كان الامر كذلك فلماذا لم نجاهر به من اول الامر ونقل لروسيا انكِ ان حاربتِ اليابان فنحن نساعدها عليكِ فتحجم روسيا حينئذ عن الحرب وننال بغيتنا من غير سفك الدماء وتيتيم الاطفال

السر هنري — اذا فعلنا ذلك قامت فرنسا وانتصرت لروسيا وصارت الحرب عمومية بدلاً من ان تكون محصورة بين دولتين

زوجتهُ — لا يخلو أن تكون روسيا محقة او غير محقة واذا كانت محقة او غير محقة فلا يمكن ان يخفى ذلك على اناس لهم عقول فاذا الَّفوا مجلساً يرى مطالب الفريقين ويحكم أيهما المحق ويقضي لهُ بحقهِ واذا ابى الفريق الآخر اتحدت الدول كلها واكرهتهُ على القبول فاذا رأى ان الدول كلها متفقة اضطرَّ ان يذعن لها واذا كان الرجال لا يستطيعون ان يؤلفوا مجلساً مثل هذا فالنساء يؤلفنهُ لهم ولكن ما لنا والهزل الآن لماذا لم نؤيد مؤتمر السلم ولم نقرَّ على وجوب التحكيم في كل المسائل

السر هنري — اذا جرى التحكيم بطلت الحروب واذا بطلت الحروب بطل الصيد في الماء العكر فقلَّ البيع من الجرائد وأقفلت معامل البارود ومسابك المدافع ولم تعد

الدول تستدين الاموال من ارباب الاموال ولا عاد احد يكسب من الالتزام

زوجتهُ — قل لي ذلك هذا هو المحرك الاول للحرب والاّ فما فائدة فلاّح روسيا من بورت ارثر وما يهمهُ سواء كانت للروس او للصين او لليابان . وما فائدة الفلاّح الياباني من هذه الحرب بل ما هي فائدة التسعة والثلاثين مليوناً من الشعب الانكليزي من الحروب التي اشتبكنا فيها او ساعدنا غيرنا عليها . المعدّن لا تكاد أجرتهُ تكفيهِ وتكفي زوجتهُ واولادهُ والعامل لا تزاد بنسة واحدة في أجرتهِ ما لم يجاهر بالاعتصاب وقتاً بعد آخر وكل الذين يستفيدون من الحروب لا يبلغون مليون نفس من الاربعين مليوناً هؤلاء يبنون القصور ويقتنون اليخوت ويركبون المركبات والاوتوموبيلات وينفق الواحد منهم على نفسهِ ما يكفي لمعيشة الف نفس فيقاسي تسعة اعشارنا اشدَّ المشاق لكي يعيش العشر الآخر بالرفاهة والترف

السر هنري — حرام عليكِ يا ادث ألا ترين ان اغنياءنا وامراءنا يشاركون عامة الجند في تجشم المشاق ويقتحمون المخاطر . اين ولدانا الآن . ألم نرسلها الى دار الحرب في مصلحة وطنية

زوجتهُ — أصحيح ذلك يا هنري ألا يذهب ابن الامير الى الحرب كما يذهب الى صيد الاسود لاجل الفخر والشهرة ولكي يعود ويتقلد رتبة عالية او وساماً فاخراً ولولا حب اقتحام المخاطر ما رأيت احداً يخاطر بنفسهِ لمصلحة غيرهِ ثم ان الذين يكتسبون المكاسب الكبرى من الحروب لا يتقلدون سلاحاً ولا يسيرون فيها خطوة وجمهورنا مسخرٌ لغيرهِ

يلتفت السر هنري الى الساعة ويقول لابدّ من ذهابي الآن وسنعود الى الكلام في هذا الموضوع بعد رجوعي ان شئتِ . ثم يقبّل وجنتيها ويذهب ويدور الحديث في نادي الصحافة على طلب اليابان قرضاً جديداً وعلى كيفية مساعدتها في الجرائد بالكتابة والترغيب حتى يغطى القرض مراراً عديدة . ويعرض على كل جريدة المبلغ الذي يحق لها ان تكتتب بهِ وتأخذ فرقهُ . وحسب السر هنري انه اذا ارتفع السعر واحداً في المئة فقط بلغ ربحهُ من هذا الاكتتاب خمسة آلاف جنيه فصادق على الخطة التي اقرُّوا

عليها . ثم قال احد الحضور ان الحرب لا تضع اوزارها ما لم تطلب روسيا الصلح وهي لا تطلبهُ ما لم تحدث فيها ثورة داخلية او شبه ثورة حتى ترى نفسها مدفوعة الى طلب الصلح لكي يتسنى لها الاهتمام بداخليتها . وطلب من اصحاب الجرائد ان يساعدوهُ بكتاباتهم ويوعزوا الى مكاتبيهم ليرموا الى هذا الغرض وقال لهم ان الشركات التلغرافية وعدتنا بالمساعدة . ونحن لا نتوخى ضرراً لروسيا بل نفيدها بتنبيهِ شعبها الى طلب الاصلاح . فضحك بعض الحضور من كلامهِ وقال غيرهم اننا نسير حسب دواعي الحال ولا نتقيَّد بشيء . وانفضَّ المجلس وعاد السر هنري برون وهو يفكر في فائدة الحرب للذين يستطيعون ان ينتفعوا منها ماليًّا ثم خطر على بالهِ كلام زوجتهِ وقال من اين تأتيني هذه الخمسة آلاف جنيه أليس من عرق الفلاحين وحاول طرد هذا الفكر من ذهنهِ فلم يستطع

الفصل الثامن والعشرون

التهييج

عزرا — لقد اخبرتك ياحنين افندي واقعة الحال كما هي وانت وشأنك بعد الآن وغاية ما اطلبهُ اخراجي من هذه القضية بأي وجهٍ كان

حنين المحامي — لا بدَّ لنا من استخدام الرأي العام وتهييج الجرائد فكم تدفع

عزرا — أدفع لمن . الجرائد الكبيرة لا تشترى على ما اظن والجرائد الصغيرة لا يقرأها احد فكيف نهيجها ومع مَن وعلى مَن

حنين — هذا شغلي وليس شغلك

عزرا — اتعابك انقضى امرها ثلثمئة جنيه معجلة وثلثمة مؤجلة اما الجرائد فأنت وشأنك فيها . كم تظن انه يلزم ان نصرف عليها

حنين — قل ستمائة جنيه

عزرا — ستمائة جنيه يا سلام

حنين — أتستكثر ستمائة جنيه وتخرج من هذه القضية ولا تعرض دفاترك على المحكمة

عزرا — دفاتري . ومَن قال ان دفاتري تعرض على المحكمة . حسابات الناس نصف زبوناتي لا يريدون ان يُعرَف عنهم انهم يشتغلون في البورصة . اكثرهم من مستخدمي الحكومة الممنوعين من الشغل فيها . خذ ستمائة جنيه . خذ سبعمائة جنيه وخلصني من هذه الورطة

حنين — اتفقنا ستمائة جنيه ارسل لي ثلاثمائة منها الآن

عزرا — حاضر. أهو تشك بثلاثمائة جنيه لحامله . ثم طلب منهُ وصلاً بهذا المبلغ فأبى ان يعطيهُ وصلاً وبعد جدال طويل ارتضى عزرا ان يذهب من غير وصل لكنهُ سألهُ ان يبسط لهُ الطريقة التي يستخدمها لاثارة الجرائد والرأي العام معه وكيف يحمل القضاة على قراءتها . فضحك المحامي وقال لهُ ليس المراد ان أثيرها معك بل ان أثيرها عليك وهذا ليس شغلك بل شغلي فكن مطمئن البال

ولما خرج عزرا نادى المحامي اثنين من الكتّاب يعتمد عليهما في هذه الشؤون وأملى عليهما اربع مقالات لتنشر في جريدتين عربيتين وجريدتين افرنجيتين وكأنها بلسان الخواجه لاڤي يتشكى فيها من القضاة وانحيازهم الى عزرا لانهم من زبائنهِ المشتغلين عندهُ في البورصة ولذلك انحازوا اليهِ ويتهددهم بأن يرفع امرهم الى المقامات العليا . فصدرت تلك الجرائد مملوءةً بالتهديد للقضاة فابتاع حنين افندي اعداداً منها وارسلها الى كل واحدٍ من القضاة والى مستشار الحقانية والنائب العمومي ووكيلهِ . فلما اطّلعوا عليها لم يشكّوا في انها كتبت بايعاز الخواجه لاڤي والمحامي عنهُ . وبعد يومين نشرت جرائد أخرى مقالات من نوعها كلها تهديد ووعيد ومضمونها ان الخواجه لاڤي مطّلع على كل ما يجري سرًّا وعلى كل المساعي التي استعملها الخواجه عزرا لاستمالة القضاة اليهِ حتى عزموا على تبرئتهِ وتغريم الخواجه لاڤي لانهم استكثروا ثروتهُ ولم يروا ما ينتظر منهُ . وكان الكلام مضمّناً لا يُمسَك والجرائد التي صرّحت اكثر من غيرها اجنبية لا يسري عليها قانون المطبوعات . وطاف اصدقاء حنين افندي في دواوين الحكومة ينبهون الناس الى تلك المقالات ويقولون ان الخواجه لاڤي قوّم الدنيا على القضاة والمحاكم

واجتمع احمد بك المحامي عن الخواجه لاڤي باحد القضاة وكان من خلّص اصدقائهِ وقد درسا علم الحقوق معاً وكانا في فرقة واحدة فرأى منهُ نفوراً على غير ما كان ينتظر فاستغرب ذلك وسألهُ عن السبب فقال أتسألني عن السبب بعد ان ملأتم الدنا تهييصاً

فلم يفهم احمد بك مرادهُ لانهُ لم يكن قد اطّلع على ما كتبتهُ تلك الجرائد ولان الجرائد المعتبرة التي كان يطالعها لم تكتب شيئاً من ذلك فقال لهُ افصح لي اين التهييص ومن ملأ الدنيا بهِ

القاضي — أعليَّ يا احمد بك اعمل معروفاً ولا تكلمني في هذا الموضوع

فظن احمد بك انهُ امتنع عن مكالمتهِ لئلا يؤثر كلامهُ فيهِ وان الخواجه لاڤي استعمل ما لهُ من النفوذ لدى ولاة الامر وشكا القضاة قبل ان يرى منهم شيئاً يخالف مصلحتهُ فلامهُ في نفسهِ ولم يبدِ لصديقهِ القاضي شيئاً من ذلك بل غيّر الموضوع وتكلم معهُ في شؤون أخرى ثم ودّعهُ وسار الى مكتب الخواجه لاڤي وانفرد بهِ وسألهُ عما فعل من أمر التهييج على القضاة فاكد لهُ الخواجه لاڤي أنهُ لم يكلم أحداً في هذا الموضوع . فعاد الى مكتبهِ منشغل البال ونادى واحداً من كتابهِ وسألهُ عما يقال عن قضية الخواجه لاڤي فقال الكاتب ان البلد مطبولة بها والناس يقولون ان الخواجه لاڤي استحضر توصية من الملك وان المستشار تأكد ان القضاة منحازون الى عزرا لانهم يشتغلون عندهُ في البورصة واسماءهم في دفاترهِ ولذلك لا يمكن ان يطلبوا احضارها الى المحكمة . فقال لهُ وما سبب هذه الاشاعات فقال مقالات كثيرة نشرت في بعض الجرائد فقال لهُ عليَّ بها

وجعل احمد بك يقرأ فاتضح لهُ حالاً ان حنين المحامي عن عزرا هو مصدر تلك المقالات وتلك الاشاعات اراد بها ان يغيظ القضاة من الخواجه لاڤي بتظاهرهِ بالدفاع عنهُ والتحامل على عزرا فقال في نفسهِ يا لها من حيلة شيطانية ولا بدَّ لي من السعي في ابطال التأثير السيء الذي أثرتهُ فدق التلفون واستدعى الخواجه لاڤي اليه وأطلعهُ على ما اكتشفهُ فوقف مبهوتاً وقال لهُ صار عمري خمساً وخمسين سنة ولم اسمع في حياتي كلها

بحيلةٍ شيطانيةٍ مثل هذه فما العمل

احمد بك — يظهر لي ان القضاة كلهم مغتاظون منا اشدَّ الغيظ ويستحيل ان لا يؤثر فيهم غيظهم لان سلطة الاهواء اقوى من سلطة العقل في اكثر الناس ولذلك لا استغرب انهم يبرئون عزرا غيظاً منك

الخواجه لاڤي — هب انهم برَّأوهُ فهذا لا يضرني ولكن ماذا يفعلون بي

احمد بك - يحكمون على السائق بالاشغال الشاقة وعليك بالحق المدني ويخرج عزرا بريئاً وهو الفاعل المتعمد الذي دبَّر هذه المكيدة من اوّلها الى آخرها . لا لا هذا لا يكون اذا لم يكن عندك واسطة لاظهار الحق فأنا اظهرهُ

فصافحهُ الخواجه لاڤي وقال لهُ افعل ما بدا لك بشرط ان لا تزيد المصاريف

فضحك احمد بك وقال لهُ طمن بالك وصرَّ على اموالك

الفصل التاسع والعشرون

النقه

بهية — انا آتية من عندها الآن العملية نجحت وقد توفقوا بجرَّاح من اكبر جراحي فرنسا كان مارًّا في القطر المصري فاستدعاهُ طبيبها لمساعدتهم في العملية

استير — كم اعطوهُ يا ترى فان اجور الجراحين المشهورين غالية جدًّا

بهية — سمعت انهُ طلب عشرين الف فرنك فاخذها دعهِ يأخذ مئة الف مَن لا يدفع كل مالهِ لكي ينجي ابنتهُ من الموت واي ابنة هل تجدين كثيرات مثل حليمة

استير — صدقتِ لا اعرف ابنةً اجمل منهـا ولا الطف ولا اقرب الى القلب ولكنها صارت الآن كالخيال لم أرَها اليوم ولكنني رأيتهـا اول امس ومع كل المها لا تتشكَّى وقد قالت لي انها تود ان تموت وتذهب الى اختها ولا تودُّ لئلاَّ يحزن والداها عليها . ما هو هذا الموت يا بهية كيف نفارق الذين نحبهم وهل نجتمع ثانية بعد الموت واين نجتمع . التوراة لا تقول لنـا شيئاً وهي الكتاب الوحيد الذي يُعتمد عليه عندنا أما انتم فعندكم كتب اخرى لكنَّ العلماء الباحثين في هذا الموضوع يقولون انهـم لا

يعلمون شيئاً علم اليقين وقد سألت الامام احمد عن رأيهِ وهو عالم كبير فقال انهُ لا يعلم عن هذا الامر اكثر مما اعلمهُ أنا ولكنهُ لا يقدر أن يتصور ان خالق هذه الاجسام وهذه الارواح خلقها لتعيش سنين قليلة ثم تفنى فكأنهُ بنَّاءٌ يبني القصور الفخيمة ثمَّ يخربها ليتسلى ببنائها وخرابها وهذا امر لايصدقهُ عقل . فقلت له ولكننا اذا رأينا القصور تبنى وتخرب أمام عيوننا فكيف لا نصدق ما نراه . اين اجدادنا واجدادهم وكل الذين عاشوا في الدنيا من اول وجود الانسان فيها الى الآن . ألم يموتوا وتبلى اجسامهم وتصير تراباً قصورٌ تبنى وتخرب أمام عيوننا . اما الامام احمد فيقول ان لاجسام كلاشيء بالنسبة الى الارواح وان النفوس تبقى ولو صارت الاجسام تراباً ورماداً وقد قالت لي حليمة انها رأت أختها وكلمتها ولكنها لم ترَ لها جسماً ولا صورة محدودةً

بهية نعم قالت لي ذلك وأنا اظنهُ من قبيل الاحلام التي نراها في الليل فكم من مرة نحلم بأناس قريبين او بعيدين عنا وهذا لا يستلزم انهم هم انفسهم يزوروننا في الليل . مثال ذلك انني حلمت بمس برون منذ يومين وكنت اتكلم معها كأنها واقفة امامي مع انها بعيدة عنا الوفاً من الاميال فلا يدل ذلك على ان نفسها تركت جسمها في بلاد اليابان وأتت وزارتني في الليل بل اني أنا افتكرت بالصورة المرسومة لهـا في ذهني وجعلت اتوسع في الفكر بالتذكر وائتلاف الافكار

استير — وهل حلمتِ بأخيها واين هو الان

فاحمرَّ وجه بهية ونظرت اليها نظر اللوم وقالت لها ما لنا ولهُ

استير — ماذا جرى هل كتب اليكِ شيئاً

بهية — كلاَّ ولكن قلبي يدلني على انهُ في ضيق شديد. كان آخر خبر منهُ ان أختهُ مريضة وهو ينتظر شفاءها حتى يرجع معها ولكنني اشعر بضيق في قلبي ولا اظن ان السنة تنتهي على خير فانظري ما اصاب اخي وابي وحليمة وما اصاب مركبة ابيكِ وخسارة امين في البورصة وهذه الامور كلها قد انتهت الاَّ مسألة حليمة وارجو أن تنتهي على خير ومع ذلك فنفسي صغيرة جدًّا واخشى من شر قريب يحلُّ بنا . ما نفع هذه الحياة اذا كنا لا نجد فيها غير التعب والألم

استير — أنا اعلم سبب ما تشعرين بهِ وكيف تحاولين اخفاءهُ وهو لا يختفي . ان كان هنري قد سافر بعد ما كتب اليكم بأسبوع او اسبوعين فانهُ يكون ههنا في اواخر هذا الشهر وحينئذٍ يزول كل ما تشعرين بهِ الآن من الغم وصغر النفس وتكون حليمة قد ملكت صحتها فتزول كل المشاغل معاً

بهية — أتظنين يا استير ان حليمة تشفى لا اظن فانها صارت كالخلال جلداً وعظماً أين شعرها الذهبي فقد قصّوهُ ليضعوا الثلج على رأسها . اين تلألؤ عينيها . اين ذلك الوجه الصبيح وذلك الجسم الممتلئ . كنت لا اشبع من النظر اليها قد فارقها كل ذلك الاَّ بشاشة وجهها . وهي نفسها لا تظن انها تشفى ولا يهمها امر شفائها . اذا فقدناها يا استير فمن يقوم مقامها

فجالت الدموع في عيني استير وهذا نادر وكادت تقول لبهية انكِ انتِ تجدين من هنري ودورا خير بديل واما أنا فقلبي فارغ لم يدخلهُ احد لكنها كتمت ما يجول في بالها ولم تقل شيئاً وبعد هنيهةٍ تبسمت وقالت لبهية قومي نذهب الى النزهة فنجلو هذا الصدأ عن نفوسنا يا حبذا لو سمعتِ الشيخ احمد يعلل لكِ فعل النزهة في ازالة صداءِ الهموم من النفس

بهية — لماذا تلقبينهُ مرةً بالشيخ ومرةً بالاستاذ ومرةً بالامام

استير — هو شيخ وهذا لقبهُ ويلقَّب استاذاً للتعظيم واذا اردنا المبالغة في التعظيم قلنا اماماً والحق انهُ امام كبير عند قومهِ واظنهُ يعرف كل شيءٍ أو لهُ المام بكل العلوم كما يقولون

الفصل الثلاثون

الخطر الاصفر

السر هنري غراي — أقرأتَ يا سر ادورد ما كُتب امس عن الخطر الاصفر

السر ادورد برون — نعم قرأت ما كُتب امس وما قبلهُ بل قرأت اكثر ما كُتب في هذا الموضوع وعندي انهُ كلهُ اوهام في اوهام . ذرة من الحق في بحر من الباطل .

هذه اضاليل الروس يريدون ان يثيروا بها الرأي العام الاوربي علينا لانا حالفنا اليابانيين ووقفنا بينهم وبين دول اوربا لئلا تتعصب عليهم

السر هنري — مهما يكن غرض الروس والالمان فهو لا يغير الحقيقة ان كان لما يسمى بالخطر الاصفر حقيقة . وأنا لا ارى لماذا لا تكون لهُ حقيقة واقعية فان الصينيين ليسوا اضعف من اليابانيين ولا اقل منهم مهارةً ولا هم الآن ابعد عن العمران مما كان اليابانيون منذ ثلاثين او اربعين عاماً واليابانيون انفسهم يشهدون للصينيين انهم اسيادهم واساتذتهم . نعم انهم يكرهونهم ولكن كرههم لهم مثل كره الضعيف للقوي اذا كانا متجاورين . وهذه الامور قلما كان يختلف فيها احد من كل الذين كتبوا عن الصينيين واليابانيين منذ ثلثمئة سنة الى الآن ولا سيما بعد ان نظَّم غوردون بعض الجيش الصيني وشهد لهُ . ولم يقم احد يرتاب فيها الاّ في هذه الايام بعد ما تغلّبت اليابان على الصين في الحروب الماضية والذين ارتابوا لم يدَّعوا ان اليابانيين ارقى من الصينيين بالفطرة بل قالوا ان اليابانيين اتَّفق انهم اقتبسوا اساليب الاوربيين في تنظيم الجيوش واستخدام البوارج ففازوا على الصينيين في المكان الذي حاربوهم فيهِ . واذا كان الصينيون كاليابانيين في استعدادهم الفطري فلا بدَّ من ان يقووا مثلهم اذا اخذوا اخذهم وتربّوا تربيتهم وتأهبوا تأهبهم . ثم تأتي مسألة العدد وغنى الارض الطبيعي أما من حيث العدد فأهالي الصين اكثر من اهالي اوربا كلهم وأما من حيث غنى الارض الطبيعي فلا اغنى من بلاد الصين فهي من اخصب الاراضي الزراعية واكثرها معادن من الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص والحديد والفحم الحجري والحجارة الكريمة على انواعها . وانهارها كبيرة تسير فيها السفن ويكثر فيها السمك فهي من كل وجه صالحة لتقدُّم سكانها مثل احسن الممالك الاوربية فلماذا لا يرتقي اهلها اذا اخذوا أخذ اليابانيين وساروا في خطتهم العلمية والحربية . واذا ارتقوا ارتقاءهم واتحدوا معهم لم يمكنَّا ان نقف امامهم في آسيا وقد لا نستطيع ان نقف امامهم في اوربا نفسها اذا هاجمونا فيها

وكان السر هنري غراى يتكلم بتأنٍّ على جاري عادتهِ وهو كهل طويل القامة

كث اللحية ابيض الوجه برّاق العينين فصيح المنطق مشهور باصالة الرأي بين اقرانهِ فقال لهُ السر ادورد برون ان كان للخطر الاصفر وجود في الحقيقة فلا يمكن ظهورهُ في عشر سنوات ولا في عشرين سنة لان حكومة الصين مبنيـة على الفساد والرشوة من أولها الى آخرها ولا يكفي ان تكون الامة مستعدة للارتقاءِ بل لا بدّ لها من قائد يقودها ومرشد يرشدها . وعندي انهُ لو لم توفَّق اليابان بأمبراطورها الحالي لكانت الآن مثل غيرها من ممالك الشرق الصغيرة ولكن امبراطورها هو الذي جمع كلمة شعبها وسار بهِ في هذا الطريق . والصين على ما تعلم ليست كذلك والذين يوجسون شرًّا من تقدمها لا يتعذر عليهم ان يمنعوا اتصال مُلكها الى امبراطور حازم كامبراطور اليابان

السر هنري غراي — آه هذه مسألة أخرى وأنا اعلم ان كثيرين يستحلّون هذا المنكر ولكن نحن الانكليز لا نستحلهُ

السر ادورد — لا اعلم ولكن ما معنى الجهاد وتنازع البقاء ان كنت ادع خصمي يقوى عليّ ويأكلني ولا اتغدّاهُ قبلما يتعشاني . وأنا اعلم ما يدور في خاطرك الآن وهو ان الديانة المسيحية والآداب المسيحية تنهانا عن ذلك وتأمرنا بأن نفعل بالغير كما نريد ان يفعل الغير بنا . ولكن ان كانت الديانة والآداب تأمرنا بشيءٍ والطبيعة نفسها تأمرنا بضده فحكم الطبيعة هو الغالب اخيراً . ولا اوضح من هذا الحكم بين احكام الطبيعة ونواميسها وهو ان كل نفس مدفوعة الى الجهاد والتغلب على الغير بالقوة او بالحيلة او بهما كليهما وأنا وانت على طرفي نقيض من هذا القبيل ولكنني واثق بصدق وطنيتك وبأنك لا تشايع اولئك الخونة الذين تحملهم اوهامهم على التنديد بالحكومة ولو رأيت فتوراً في جريدتك منذ الشهر الماضي

السر هنري — اظنك تشير الى انتقادي الاخبار المبالغ فيها عن الثورات والقلاقل في بلاد الروس فأنا لا استحلّ نشر مثل هذه الاخبار على علاّتها ولو كنت لا اعلم حقيقتها لكان لي عذر أما وأنا عالم مصادرها ومقاصدها فيستحيل عليّ ان اوافقكم على نشرها كما هي واظن انهُ كان يجب عليّ ان أكذبها تكذيباً . ولولا اعتقادي ان فيها ذرة من الحق لكذّبتها حتماً . واستغرابي من السر كمبل كار أشدّ من استغرابي منك

لانهُ يدّعي الدفاع عن مصالح المشرق والمشارقة ولكنهُ اشدّ الناس وطأة على الروس

ودخل السر كمبل حينئذٍ فقال لهُ السر ادورد ماهي اخبارك الآن فقال : يظهر ان الثورة ستعمّ بلاد الروس كلها ولا سبيل لنا لتوقيف هذه الحرب وجعل الروس يطلبون الصلح الاّ اذا ثار الروسيون على حكومتهم

فقال له السر هنري أتستحلّ ذلك . فقال لماذا لا نستحلهُ مَن لا يستحلّ توقيف الحرب ودفع ويلاتها واصلاح الحكومة الروسية بتنبيه شعبها الى طلب حقوقهِ

السر هنري — انا لا اسألك عن الغاية بل عن الوسيلة هل تستحل اثارة الثورة في البلاد لكي تنتج عنها نتائج حميدة . ومن يستطيع أن يحتم ان نتائج الثورة تكون حميدة ولماذا لا تقول انها لا تقف عند حد الدستور بل تتجاوزهُ الى الفوضى ولماذا لا تقول انهُ اذا صارت بلاد الروس نيابية في الاحوال الحاضرة فشعبها يستمرّ على الحرب الى ما شاء الله ولا نعود نجد احداً نخاطبهُ في امر الصلح . لا ياسر كمبل انا لست من رأيك في ذلك ويقيني انك لست على الصواب

واجتمع حولهم حينئذٍ اناس كثيرون وانقسموا فرقاً فرقاً يتباحثون ويتناظرون . وكان اليوم شديد الحر على خلاف العادة في شهر اكتوبر ومشى السر كمبل كارمع السر ادورد برون وسألهُ عن ابنهِ وابنتهِ فقال انهما عادا من مواقع الحرب لانحراف ألمّ بصحة دورا ومرّا على اليابان فزاد الانحراف في صحة دورا واضطرا ان يبقيا هناك مدة ولكنهما سافرا منذ ايام واظن انهما يصلان الى مصر في اواسط الشهر المقبل ويظهر لي ان هنري سيصير من حزبك

السر كمبل — من حزبي اي حزب

السر ادورد — من حزب المشارقة هو لم يكتب شيئاً في هذا الموضوع ولكن دورا اشارت الى ذلك في مكاتيبها بل صرّحت بهِ وقد اضطرّ ان اذهب انا ولادي برون الى مصر

السر كمل — ماذا أاميرية يابانية او صينيّة او هندية . لقد كان هنري دائماً يميل الى التصورات الشرقية مثل امهِ

السر ادورد — لا يابانية ولا صينية ولا هندية بل فتاة من بنات فرعون ومن نسل الفراعنة

السر كمبل — من نسل الفراعنة حسناً حسناً هذا هو الشعر بعينهِ

السر ادورد — لكن الامر لم يزل سرًّا ولم نكاشف بهِ احداً وانت اول شخص اخبرتهُ بهِ لانني لا ازال استبعدهُ جداً . وهنري نفسهُ لم يصرّح بفكرهِ

السر كمبل — اتخاف ان اذهب وانشرهُ في « المشرق » . ما هو رأي مس برون فيهِ فاني اعتمد على رأيها قرأت المقالات التي نشرتها بامضاء D في لندن نيوز وهي منها حتماً وقد وصفت فيها المستشفيات النقالة وصفاً لم اقرأ ابلغ منهُ . واتذكر الآن انني قرأت لها مقالة عن مصر وصفت فيها بيت احد الباشاوات وابنتهُ أهذه هي الفتاة السعيدة التي أختلبت قلب هنري

السر ادورد — كلاّ فان الباشاوات ليسوا من نسل الفراعنة ويندر ان يكون منهم من هو من نسل المصريين ولكن الفتاة التي احبها هنري قبطية فهي من نسل المصريين الاقدمين ويظهر من وصف دورا لها انها بديعة الجمال طويلة القامة هيفاء القد تشبه صورة مصرية خيالية موجودة في بيتنا

السر كمبل — ربما اذهب معكم الى مصر فان مصر صارت لنا الآن بعد الاتفاق الاخير مع فرنسا فصار يسهل علينا ان نزورها كل سنة

السر ادورد — لقد اعجب كل احد بهذا الاتفاق على مصر الاَّ لادي برون فانها تظن اننا غبنَّا فرنسا اخذنا منها اكثر مما اعطيناها . وقد قالت صريحاً اننا اخذنا اللحم واعطيناها العظم وهي مستغربة كيف رضيت فرنسا بمراكش لا سيما وان المانيا ستكون لها في المرصاد هناك . لا تزال تحنُّ الى وطنها والدم لا يصير ماء ويخال لي ان هذا الميل في هنري الى المشارقة موروث من امهِ لان الدم الفرنسوي يميل الى اهل المشرق

وتصافحا وعاد السر ادورد الى بيتهِ فوجد زوجتهُ في انتظارهِ فقالت لهُ وصل تلغراف من هنري ودورا من الهند وسيكونان في مصر في اوائل نوفمبر فيجب ان نصمم على السفر

الفصل الحادي والثلاثون

المرافعة

رشيد بك — لا تكلمني يا احمد بك في هذا الموضوع فانك تعرف اني ان ابديت لك رأيي التزمت ان انسحب من الجلسة ولكنني انصح لكم ان تبطلوا هذا التهييج في الجرائد

احمد بك — اي تهييج واية جرائد فانت تعلم ان الخواجه لاقي لا يكاد يعرف ان يكتب اسمهُ بالعربية واما أنا فاظن انك تجلُّني عن ان استنجد بالجرائد في مسألة لم نترافع فيها حتى الآن ولست والحمد لله قاصراً عن المرافعة واقامة الحجج حتى التجئ الى اثارة الرأي العام

رشيد بك — قاصراً او غير قاصر فهذه واقعة الحال ولم تكتفوا بالكتابة والتهييج بل ارسلتم الينا اعداد الجرائد التي كتبتم فيها حتى تطلعونا على تهييجكم للرأي العام وانتصاركم بهِ على القضاءِ هذا عدا مكاتيب التهديد والوعيد . نعم ان اليهود اغنياء ولكن لا يليق بهم ان يستخدموا غناهم لتهييج البلاد وارجو من فضلك ان تعذرني عن الخوض في هذا الموضوع

لما سمع احمد بك ذلك منهُ لم يسعهُ الاَّ السكوت لانهُ رأى ان القضاة على رأي واحد ونهض بعد قليل وودَّع وانصرف وكان ميعاد المرافعة في اليوم التالي فهرع الى ادارة احدى الجرائد وكتب فيها رسالة تبرَّأ فيها من كل ما نشر في الجرائد الاخرى دفاعاً عن الخواجه لاقي . وكان يتردَّد في المساء على احد الملاعب الذي يتردَّد عليهِ كبراء القوم فذهب اليهِ تلك الليلة على جاري عادتهِ والتقى فيهِ برجل من كبار رجال الحكومة وكان من خلّص اصدقائهِ فأعرض عنهُ بوجهٍ باسر فاستغرب منهُ ذلك لانهُ لم يرَ منهُ هذا الاعراض قبلاً واوجس شرًّا وسألهُ ما الخبر فقال لهُ أالى هذا الحد يا احمد بك تتهمنا نحن والقضاة بالانحياز الى رجل سمسار وتزعم انا شركاؤهُ في المضاربة . هب اننا نضارب يا اخي أفيليق بك ان تشهّرنا في الجرائد هذا

التشهير . هوذا كلنا نجتمع في هذا المكان وليس منا من هو افضل من الآخر فان كنتُ اخرج من هنا وأندد بك لانك تأتي اليه فماذا تقول عني ومع ذلك فاني أؤكد لك انني لا اعرف صورة عزرا هذا ولا رايتهُ قط ولا اعرف اين مكتبهُ ولم اضارب بقنطار قطن عن يدهِ وكل اصدقائك مغتاظون منكم

فوقع هذا الكلام كالصاعقة على احمد بك وجعل يقسم لهُ الايمان المغلظة انهُ لم يكتب كلمـةً في هذا الموضوع ولا في غيرهِ وقال لهُ ولو لم اسمع هذا الكلام من سواك لاستغربتهُ منك تمام الاستغراب ولكنني سمعتهُ اليوم وامس وكذبت هذه الاشاعة اليوم في الجريدة الفلانية

وكانا يتكلمان بصوتٍ منخفض لئلا يسمع احدٌ ما دار بينهما من الكلام . ولما راى احمد بك ان صديقهُ لم يصدق كلامهُ اغتاظ منـهُ وخرج مغضباً ونام تلك الليلة مبلبل البال مضطرب الافكار وقام في الصباح للمرافعة وكان من الخطباء المعدودين

وجلس الخواجه لاقي في الصباح مع عائلتهِ ليشرب فنجان الشاي واللبن على جاري عادتهِ وكان قلقاً مضطرب البال وعرفت استير ما يجول في خاطرهِ لانها شديدة الفراسة ماهرة في قراءة افكار ابيها . فقالت لهُ لماذا نقلوا المرافعات من عند القناصل الى المحاكم الاهلية

فقال لانهم ظنوا انها صارت كفوءًا لتؤتمن على ارواحنا

فقالت وهل تظن انها ليست كفوءًا لذلك

فقال اني لا اكاد اعرف احداً من قضاتها معرفة تامة ولكن ان كانوا يتأثرون من كتابة الجرائد و يعلقون عليها هذا الشأن كما بلغني عنهم وكما يشكون جهاراً فليس ذلك مما يمدح فيهم . ونحن حققنا واضح كالصبح رجل رمى بنفسهِ عمداً امام مركبتنا وقد فعل ذلك باغراءِ رجل آخر وقصد المغري الانتقام منا وقصد المغرى ان ينصب علينا مقابل ما يصلهُ من الاذية ولا لوم علينا ولا على السائس ولكن اللوم كل اللوم على المغرى والمغري وكلاهما فعل ما فعل عن سوء قصد متعمداً الاضرار بنا فان رأت المحكمة ذلك جليًا كما نراهُ نحن و برأتنا وحكمت على الجاني الاصلي فتكون قد عدلت

في حكمها واذا بقيت معتقدة انني رشوت الجرائد حتى كتبت ضد عزرا واتهمت رجال الحكومة بمشاركته والتشيع لهُ واستنتجت من ذلك اني مجرم فحكمت على السائس بالسجن وتركت للمحكمة المختلطة الحكم علينا بالحق المدني فهي بلا شك مخطئة ومهما كان لها من العذر في خطاءها فهو لا يبررها من الخطاء ولا يقوي ثقتنا بها . والتماس الاعذار للمحاكم بان اصحاب الحق لم يؤيدوا حقهم التأييد الكافي امامها لا يبررها الاّ اذا كانت غير قادرة ان تكتشف الحق بنفسها لان ليس الغرض من المحاكم ان تحكم بان حجة زيد اقوى من حجة عمرو كما يفعل اهل الجدل بل ان تكتشف الحق وتبينهُ . بالامس رفع رجل دعواهُ الى المحكمة المختلطة على رجل آخر انهُ استدان منهُ مالاً ولم يوفهِ اياهُ . وقال المدعى عليهِ انهُ اوفاهُ المال ولكن المدعي حفظ السند عندهُ مدعياً انهُ لم يكن لهُ وصول اليه حينئذٍ واعطاهُ بدلاً منهُ وصلاً بالمبلغ وان الوصل ضاع منهُ . فالذي يأخذ بالظواهر يقول ان المدعى عليهِ لم يستطع ان يثبت براءتهُ وهو ملوم لانهُ اوفى الدين من غير ان يسترجع السند ان كان قد اوفاهُ حقيقةً وما دام السند في يد الدائن فهو صاحب الحق . لكن المحكمة لم تكتفِ بهذه الظواهر بل عرفت بالبحث ان المدعى عليهِ فلاّح بسيط وكل القرائن تدل على انهُ صادق المعاملة واما المدعي فالسوابق تدل على انهُ غير مستقيم فتكلفت البحث في دفاترهِ فوجدت منها انهُ استوفى الدين فبرأت المدعى عليهِ واحالت المدعي الى محكمة الجنايات اي انها لم تكتفِ بحجج الخصمين بل بحثت بنفسها عن الحقيقة حتى وجدتها

فقالت استير و بماذا يمكن ان يحكموا علينا

قال انهم يحكمون على السائق بالاشغال الشاقة لانهُ قتل غير متعمد و يحكمون علينا بالتعويض المدني بعد ثبوت الجناية وقد يحكمون بكل ما يطلبهُ الخصم وهو عشرون الف جنيه فتكمل معنا هذه السنة خسائر في القنصليد والدين الروسي م بهذه الغرامة

فقالت ولكن المحاكم المختلطة لا تأخذ بالظواهر كما قلت فترى الحق ولا تحكم علينا بشيء

فقال قد يكون ذلك ولكن من يعتني بعائلة السائس مدة سجنهِ ألا نلزم بها نحن

اكراماً لعيني اخيكِ حتى لا يركب الآن مثل اولاد الباشوات

فقالت كيف يكون الحال لو برّأتنا المحكمة المختلطة ألا يصير تضارب بين الحكمين المحكمة الاهلية تحكم بالادانة والمختلطة بالتبرئة

فقال نعم يصير ولكن احمد بك يقول ان المحكمة نفسها تحكم اليوم بالادانة وغداً بالتبرئة في مسألتين متشابهتين تمام المشابهة بل أعرف ما هو اغرب من ذلك فان احد اصدقائي كان لهُ قضية مدنيـة فحكمت المحكمة الابتدائية ضدهُ فاستأنف فحكمت محكمة الاستئناف لهُ . وسمعتهُ بالامس يتكلم مع احد قضاة الاستئناف فقال لهُ القاضي اشكر الصدفة التي جعلت قضيتك في جلسةٍ لست فيها أنا لانها لو أتت أمامي لحكمت عليك لا لك . فأنتِ ترين ان القضاة يحكمون حسبما يتراءى لهم لا حسب الحق المجرَّد كأنهُ لا يوجد ما يسمى حقًّا مجرداً . ولا تنسي ان الفواعل الخارجية تفعل بالقضاة كما تفعل بغيرهم من الناس لانهـم لم يخرجوا عن كونهم بشراً . وقد بلغني أن خصومنا استخدموا ذلك الآن فكتبوا في الجرائد كتابةً تظهر كأنها منا وفيها يتهددون القضاة بافشاءِ اسرارهم ان هم حكموا لعزرا ولم يكتفوا بذلك بل كتبوا الى القضاة انفسهم مكاتيب من غير امضاء يتهدَّدونهم فيها بمثل ذلك وأنتِ تعلمين ان هذا الامر لم يخطر ببالي قط ولا أنا مجنون حتى افعلهُ لانني اعلم انهُ يعود عليَّ بالضرر ومع ذلك صدَّق حضرات القضاة اننا نحن الكاتبون لتلك المكاتيب واننا نحن نقصد اثارة الرأي العام عليهم وعلى الحكومة بما لنا من الصولة وجاراهم رجال الحكومة في هذا التصديق

فقالت أوَ تظن يا ابي انهُ يمكن لرجال يشغلون مناصب عالية ان يصدقوا هذه الخزعبلات

فقال ألم اقل لكِ انهم صدقوا وعاتبونا هم ورجال الادارة ايضاً

فقالت اذاً نحن النساء اقدر منكم على اكتشاف الحقائق فانك حالما قلت لي عن الكتابة في الجرائد ادركت انها فعل خصم لا فعل صديق وانها حيلة شيطانية ولكنها صبيانية لا تخفى ولا بدَّ من ان يستفيد يوسف من هذه الحادثة

فقال عسى ان يكون ذلك لانهُ اذا مال الى الاقتصاد وكره الظهور الفارغ احسب انني ربحت ربحاً وافراً من هذه الحادثة ولو كلفتني خمسين الف جنيه

ودخل يوسف حينئذٍ لانهُ يتأخر عادةً في نومهِ وقيامهِ فقالت لهُ استير اليوم المرافعة ألا تذهب وتحضرها . فنظر اليها كأنهُ لم يفهم ماتقول ثم قال اي مرافعة

فقال ابوها دعيهِ في احلامهِ فانهُ لا يزال نائماً .

فتبسم يوسف حينئذٍ وقال نعم نعم مسألة السائق والرجل الطلياني ان ابي يظن ان كل اللوم عليَّ كأن لا احد يركب مركبات ملاَّكة غيرنا او كأني انا قلت للسائق ان يقتل الرجل

فقالت لهُ صه وكُلْ البيض قبلما يبرد . ونهض الخواجه لاڤي وذهب الى غرفة زوجتهِ لانها كانت مصابة بزكام شديد فرأى زكامها اخذ يخف ونزل ومضى الى مكتبهِ

وجرت المرافعة ذلك اليوم وجيء بالسائق ووضع في قفص المجرمين وافاض وكيل النيابة في شرح التهمة واسهب في وصف ما بلغهُ اهل الترف والبذخ من التفاني في اقتناءِ الجياد لمركباتهم وتوصيتهم السيَّاق بسوقها السوق العنيف حتى تسبق غيرها . وقال ان مركبة من مركباتهم كادت تدوسهُ مرةً مع شدة حذرهِ ومركبة اخرى كادت تكسر مركبتهُ في نوبة أخرى وانهُ لا يعجب من ان مركباتهم تقتل رجلاً او اثنين في السنة ولكنهُ يعجب من انها لا تقتل رجلاً او اثنين كل يوم وليس اللوم على المارَّة لان الانسان يندهش اذا رأى مركبة كبيرة مقبلة عليهِ بغتةً وخيلها تنهب الارض نهباً فلا يستطيع ان يهرب من طريقها وقد يحاول الهرب منها فيهرب اليها لشدَّة اندهالهِ بل اللوم على اصحاب المركبات لانهم لا يسوقونها السوق العنيف اغتناماً للوقت كيف لا وهم يسوقونها كذلك في النزهة بل افتخاراً وبطراً وما من شيء يردعهم عن هذا الغرور والبطر الا سيف العدل . ثم مثَّل لهم رجلاً مسكيناً سائراً في طريقهِ مهتماً بالسعي لعيالهِ رأى مركبة عن بعد فحسب انهُ يقطع الطريق من جانب الى جانب قبلما تصل اليهِ ولم يظن انها آتية بسرعة البرق فلم يكد يصل الى وسط الشارع حتى دهمتهُ وخيلها بطرانة لان خيول الاغنياء كثيرة لا يشدونهـا الى المركبات الا مرة كل يومين او ثلاثة فداست قلبهُ واحشاءهُ ولم ترحم زوجتهُ واولادهُ وكان صاحب المركبة وابنهُ جالسين فيهـا وعوضاً عن ان ينزلا ويرفعا الرجل من تحت حوافر خيلهما وينادبا لهُ

جرّاحاً يضمد جروحهُ امر السائق ان يدير المركبة و يفرَّ بهما لكي لا يكتشف احد فعلتهما الشنعاء ولو حدثت في رائعة النهار وفي اكثر شوارع العاصمة ازدحاماً لكن يد العدل اطول من ان يفر منها جانٍ اما المجنيُّ عليهِ فكانت جراحهُ مميتةً فلم يعش الاَّ بضعة ايام ثم مات على اثرها بشهادة الاطباءِ الذين عالجوهُ وشهادتهم مع اوراق القضية فلم يبقَ الاَّ الحكم على الجاني المتعمد تأديباً لهُ وعبرة لغيرهِ واني اترك الى المحكمة تقدير العقاب لان الجناية كبرى والقتل عمد ولو تأخرت الوفاة

ولما لم يكن مطالب بالحق المدني لان المطالبة بهِ انما تكون في المحكمة المختلطة قام احمد بك مدافعاً عن السائق وقدّم قضية فرعية وهي ادخال الخواجه عزرا السمسار في الدعوى كمغرٍ للمجني عليهِ لكي يرتكب الجناية في نفسهِ

فتباحث القضاة في طلبهِ لحظة ورفضوهُ وطلبوا منهُ السير في المرافعة فقال «ان من الجرائم ما يرتكب عمداً يرتكبهُ الجاني من تلقاءِ نفسهِ لغرض يقصدهُ او مغنم يكسبهُ ومنها ما يرتكب باغراءِ مغرٍ يحرّضهُ على ارتكاب الجناية ولا يندر ان يكون الجاني هو المجنيُّ عليهِ اي ان ينتحر الانسان انتحاراً كأن يتجرّع سماً ناقعاً او يلقي نفسهُ في البحر او يطير دماغهُ برصاصة اذا ضاقت الدنيا في عينيهِ وسئم الحياة او استثقل كربها ولكن يندر جداً ان يفعل الجاني ذلك لكي يتهم غيرهُ بالجناية و يجرَّ الى نفسهِ مغنماً من وراءِ ذلك

« رجل ضاقت الدنيا في وجههِ ولم يعد دخلهُ يكفي للقيام بعائلتهِ اما لقلة الاعمال او لسوءِ التدبير او لانهُ مولع بالسكر فينفق على الكاس في يوم ما يكتسبهُ في اسبوع كاكثر فقراءِ الاوربيين الذي لفظتهم بلادهم الينا ولا سيما الذين من طائفة المدعي علينا . رجل مثل هذا لا يكثر عليهِ ان يحتال حيلة تريحهُ من التعب والكدح وهي ان يقف امام مركبة سائرة فيها رجل من كبار الاغنياءِ فتلطمهُ وترميهُ وقد تجرحهُ في يدهِ او ساقهِ وربما جرح نفسهُ قبل ذلك ثم يدعي انها هي جرحتهُ فيشفق عليهِ صاحب المركبة و يعطيه مبلغاً من المال او يضطر الى ذلك اضطراراً بحكم القضاءِ

« وهذا الامر كثير الحدوث وقد حكمت المحاكم في قضيتين من هذا النوع في العام الماضي فبرأت صاحب المركبة والزمت المدعي بالمصاريف . وقضيتنا من هذا القبيل من

وجه ومن قبيل آخر من وجه آخر وهو ان لدينا ادلة قاطعة على ان المجني عليهِ والحق ان يسمى بالجاني على نفسهِ انما فعل ما فعل باغراءِ مغرٍ وقد اودعت بين اوراق القضية شكوانا على رجل اسمهُ عزرا اغرى الجاني على نفسهِ بارتكاب هذه الجناية لاسباب عائلية لا داعي لبسطها واني اطلب من المحكمة تحقيق هذه القضية الفرعية لانها مرتبطة بقضيتنا ارتباطاً لا انفكاك لهُ حتى اذا ثبتت لنا دعوانا برأتنا من كل ما نسب الينا وحكمت على الفاعل الحقيقي بما يستحقهُ »

وقامت المحكمة للمداولة فقضت نصف ساعة ثم عادت وحكمت على السائق بالسجن تسع سنوات والاشغال الشاقة . فاحاط بهِ الحرس واخذوهُ الى السجن وزوجتهُ واولادهُ يعولون وراءهُ

الفصل الثاني والثلاثون

سرقتان

امين بك — سرقتان في ليلة واحدة سرقتان كبيرتان جداً يا استاذ لم نسمع بمثل هذا قط ولا سمع بهِ غيرنا . ما قولك في ذلك

الشيخ احمد — اي السرقتان وعند مَن ومتى

امين بك — اتاني كتاب من بهية الآن تقول فيهِ ان بنك الخواجه لاقي سُرِق في الليل الماضي دخلهُ اللصوص وفتحوا خزانة الحديد وسرقوا كل ما فيها من النقود والاوراق المالية والسندات . ويقدَّر المسروق بثلثمئة الف جنيه ووجدت ابواب البنك مقفلة على عادتها وكذلك باب الخزانة . ويؤكد الخواجه لاقي انهُ قفل بابها بيدهِ في المساءِ وهي كبيرة جدًّا يستحيل كسرها والظاهر ان اللصوص فتحوها بمفاتيح مثل مفاتيحها واخذوا كل ما فيها . ولم يكن فيها من النقود سوى خمسين او ستين جنيهاً ولكن كان فيها من اوراق البنك المصري نحو مئة الف جنيه ومن سندات الموحد واسهم البنك الاهلي والبنك الزراعي والعقاري والدائرة العادية والمؤسسة ما قيمتهُ مئتا الف جنيه . والذي سرقها سرق معها الدفتر الذي فيهِ نمرها ايضاً فصار يتعذَّر الاعلان عنها في

الجرائد . وهنا الغفلة فما الفائدة من كتابة نمرها في دفتر ووضعهِ معها • واخذوا ايضاً الحجج والرهنيات ولم يتركوا شيئاً والضرر من اخذ الحجج والرهنيات قليل لان الخواجه لاڤي يستطيع ان يستخرج غيرها من المحكمة المختلطة

وكان امين يتكلم ولحية الشيخ احمد ترتجف وامتقع وجههُ وزايلهُ الدم فظهر لونهُ ترابياً وصمت هنيهة ثم قال ألم يهتدوا الى شيءٍ من آثار اللصوص أوَ لم يكن في البنك خفير يخفرهُ

امين بك — قالت لي بهية في كتابها انهُ كان في البنك خفيران من البرابرة وقد انكرا انهما رأيا احداً دخل البنك ولا شبهة في انهما كانا نائمين او متواطئين مع اللصوص . وليس الغرابة في ذلك بل الغرابة ان بنك الخواجه عزرا السمسار سُرِق ايضاً في الليلة نفسها وأخذ اللصوص كل امواله ودفاترهِ ولم يبقوا لهُ شيئاً والظاهر انهم متواطئون هم واللصوص الذين دخلوا بنك الخواجه لاڤي على تنظيف المكانين . ويقال انهُ كان عند الخواجه عزرا اسهم وسندات ونقود بقيمة تسعين ألف جنيه بعضها لهُ وبعضها لزبائنهِ وقد وُجد باب خزانتهِ مكسوراً أي ان اللصوص ثقبوا الخزانة بمثقاب عند القفل وفتحوها . ومصر قائمة قاعدة لهذا الخبر

الشيخ احمد - رأيت وكيل الداخلية منذ ساعة فلم يقل لي شيئاً . ثم ماذا ذكرت لك عن الاجراءات التي اتخذوها

امين بك — لا شيء ولكن المسألة كبيرة جداً كما ترى فيها اربعمائة ألف جنيه لم اسمع بسرقة مثلها في حياتي . وسأعود الى مصر غداً او بعد غدٍ لان هواء الرمل لم يوافقني كما كنت انتظر ولا سيما بعد ما اشتدَّت الرطوبة في هذين اليومين

الشيخ احمد — اما أنا فاني راجع الى مصر بقطار الساعة السادسة

ثم فتح ساعتهُ وقال بعد ساعة وربع . أنا اعرف الخواجه لاڤي وأقدّرهُ بأكثر مما سُرق منهُ كثيراً وأما عزرا فمن هو أليس هو السمسار الذي اغراك بمشترى القطن

امين بك — لم يُغرني عزرا بل رجل اسمهُ برسوم ولكن عزرا غشني واغتنم فرصة سقوطي ومرضي وتصرَّف بالقطن كما يشاء فحمَّلنا خسارة كبيرة جداً أنت تعلم كيف

كان تأثيرها في ابي وحتى الآن لا اقدر ان انساها ساعة واحدة ولولاها لملكت صحتي وكنت بألف خير من الله . ولكن ضاع كل ما يملكهُ الآن لانني لا اظن انهُ يمتلك شيئاً آخر هو وشريكاهُ فقد خسروا خسارةً كبيرةً في الشهر الماضي على ما بلغني لانهم لا يكتفون بالسمسرة وارباحها الوافرة في الصعود والنزول بل يشتغلون على حسابهم فخسروا عشرين او ثلاثين الف جنيه وخسروا نحو عشرة آلاف جنيه من تفليسة امين باشا على ما سمعت امس في البورصة . الذي تجمعهُ الريح تبددهُ العاصفة والمال الحرام يَذهب ويُذهب معهُ الحلال

الشيخ احمد — مال عزرا حرام صدَّقنا ولكن مال الخواجه لاقي ليس كذلك وعندهُ ودائع لغيرهِ وهي احلُّ من الحلال . والحق يقال اننا لا نعرف كل الاحكام التي يجري عليها نظام هذا الكون لان العلل كثيرة جدًّا فيتعذَّر علينا جمعها كلها لرد المعلولات اليها . وعلى كل حال انا مسافر الليلة فبماذا توصي

امين بك — السلام يا استاذ وسنلتقي في مصر بعد يومين ان شاء الله

ونادى الشيخ احمد خادم المنزل الذي كان نازلاً فيهِ ليهيئ لهُ امتعتهُ فيقوم في أول قطار الى محطة سيدي جابر حتى يدرك اكسبرس المساء

هذا ما جرى في رمل الاسكندرية اما في مصر فان الخواجه لاقي نزل الى مكتبهِ نحو الساعة السابعة صباحاً نزل هو وواصف بك ليدفع اليهِ مبلغاً من النقود فيرسلهُ بوسطة الصباح ولما فتح خزانة الحديد وجدها فارغة لا شيء فيها فارتجفت مفاصلهُ واصطكت ركبتاهُ واصفر وجههُ وانقطع صوتهُ وكان معهُ واصف بك وواحد من الكتَّاب فاتياهُ بكرسي فجلس واخذ العرق يتصبب من جبينهِ ثم حضر بقية الكتَّاب وضربوا التلفون الى حكمدار البوليس فحضر بنفسهِ هو وثلاثة من المعاونين ولم يكادوا يشرعون في التحقيق حتى جاءهم الخبر بالتلفون من المحافظة ان بنك الخواجه عزرا سُرق ايضاً فقام اليهِ الحكمدار ورأى ما فيهِ . وكان مع واصف بك خادمهُ فرأى ما حدث في البنكين وعاد الى البيت واخبرها رأى وكانت بهية تكتب الى اخيها فقصَّ عليها ما رأى وسمع فكتبتهُ في الكتاب وارسلتهُ باكسبرس الصباح فوصل قبلما وصلت

جرائد مصر الى الاسكندرية

اما الحكمدار فبحث ودقق وارسل من اخبر النيابة واستدعى اثنين من المعاونين الذين كانوا معهُ احدهما ايطالي والآخر مصري وقال لهما هذا يومكما وكل اعتمادي عليكما . ثم عاد الى المحافظة وارسل التلغرافات الى كل جهات القطر ولا سيما الى الاسكندرية وبورت سعيد والسويس . واسم المعاونين اسمعيل وبدرو وكان اسمعيل اكبر سنًّا من بدرو واوسع خبرةً ولكن بدرو كان اعلم منهُ باللصوص من اليونان والطليان الذين يترددون على القطر المصري ويُنفَون منهُ اليوم فيرجعون اليهِ غداً بعد ان يغيروا اسماءهم واشكالهم

ودخل اسمعيل افندي الى غرفةٍ ومعهُ الخواجه بدرو وقال لهُ اذهب الى بنك عزرا وخذ معك مصوّراً من مصوّري الشمس وصوّر خزانة الحديد من كل جهاتها وافتح بابها وصوّرها من الداخل وصوّر أيضاً باب الغرفة التي فيها الخزنة . فقال بدرو لماذا هذا التعب الفارغ فان النور في البنك حيث الخزانة ضعيف جدًّا لا يصوَّر بهِ شيء

فنظر اليهِ اسمعيل افندي وقال لهُ افعل ما اقولهُ لك وسأخبرك بمرادي في ما بعد . وكان مأموراً بان لايخالف لهُ امراً فذهب واحضر مصوراً فصور باب الغرفة وجدرانها وجوانب الخزانة وبابها وفعل اسمعيل افندي كذلك ببنك الخواجه لاقي واخذا زجاجات التصوير بعد تثبيت الصور عليها وجلسا مع سكرتير الخواجه لاقي وحدهُ وسألاهُ مسائل عديدة كتباها وكتبا اجوبتها ثم سألا كل واحد من الكتبة والفراشين والخفراءِ وفعلا كذلك بالخواجه عزرا وشريكيهِ وكتبتهِ وخدامهِ . فعلا ذلك كلهُ في يوم واحد واستحضرا ستة من رجال البوليس السري الذين يعتمدان عليهم واوصياهم بما يريدان واستحضرا ايضاً امرأتين من نساءِ البوليس السري واوصياهما بأمور اخرى . وجلس اسمعيل افندي في غرفتهِ في المحافظة يطالع التقارير الواردة اليهِ من جهات القطر ومن البوليس السري وهو لا يهتم الاّ بهاتين السرقتين وكان العمل كلهُ في يدهِ وبدرو يساعدهُ ويفعل ما يطلبهُ منهُ فالامور التي يدرك المراد منها يفعلها حالاً والتي لا يدرك مغزاها يعترض عليها ولكنهُ لا يلبث ان يفعلها حالما يأمرهُ بفعلها ولو لم

يفهم المراد منها لكن اسمعيل افندي لم يكن بالرئيس العاتي بل كثيراً ما كان يشرح مرادهُ لبدرو ولا يكتمهُ عنهُ الا اذا رأى ان الضرورة تقتضي ذلك

وفي اليوم الثالث وضع اثنين من البوليس السري حول بيت الخواجه عزرا يراقبان الداخلين اليهِ والخارجين منهُ نهاراً وليلاً ويتبعهُ واحد منهما اينما سار وكان امام باب بيتهِ رجل يبيع التبغ وهو من رجال البوليس السري ايضاً فلم يكن دكانهُ يخلو من واحد يراقبهُ ويراقب بيتهُ

وفي مساءِ ذلك اليوم جلس بدرو مع اسمعيل افندي وجعلا يراجعان الامور التي اكتشفاها والاستعلامات التي وصلا اليها فقال بدرو كل هذا فهمتهُ الاَّ الصور الفوتوغرافية فاني لا ارى لها معنى ولا فائدة

اسمعيل افندي — يظهر لي انك اعترضت عليها من اول الامر ولا تريد ان تحول عن اعتراضك على جاري عادتك

بدرو — كلاَّ ليس الامر كذلك ولكنني بذلت جهدي لاجد لها معنى فلم اجد ولا نحن طبعناها على الورق بل ابقيناها على الزجاج ولو حاولنا طبعها ما ظهر فيها شيءٌ وقد رأيتك امس تنظر اليها بالمكرسكوب فتناولتها بعد خروجك ونظرت اليها بهِ فلم اجد فيها شيئاً

وكانا يتكلمان باللغة الايطالية لان بدرو يفهم العربية ولكنهُ لا يحسن التكلم بها واما اسمعيل افندي فيحسن الايطالية تكلماً وكتابةً وهو مثل اكثر الشرقيين في تعلم اللغات الاجنبية . فقال ألم ترَ في بعض الصور خطوطاً دقيقة

بدرو — كلاَّ لم أرَ شيئاً وهب اننا رأينا فيها خطوطاً فما فائدتها . فقال — سأخبرك بذلك في فرصة أخرى هل رأيت هذه الايام يني اكولبلو الذي نفيناهُ منذ اربعة اشهر

بدرو — يني اكولبلو يني اكولبلو أين رأيتهُ أين رأيتهُ يا ربي . رأيتهُ هنا في مصر او في المطرية امهلني الآن لاقول لك اين رأيتهُ نعم رأيتهُ في مصر اشتبهت بهِ اشتباهاً لان شعر يني اسود وهذا شعرهُ اشقر ولكن وجههُ لم يتغير الاَّ انهُ صار اسمن

مما كان نعم هذا يني بعينهِ أنفهُ وجبهتهُ وقامتهُ كل ذلك لم يتغير ولكن شعرهُ اشقر وقد كان اسود فاحماً فكيف صار اشقر

اسمعيل افندي — هذا امرٌ سهل فان الماء المسمى اكسيد الهيدروجين يغير لون الشعر ويصيرهُ اشقر . ولا شبهة في ان يني هنا فاذهب وابحث عنهُ حالاً وراقبهُ في حركاتهِ وسكناتهِ ودخولهِ وخروجهِ حتى تعرف كل مَن يتردَّد عليهِ ويكلمهُ واذا أريتهُ يحاول الخروج من مصر فاقبض عليهِ حالاً وخذ معك مرسي وعبد المجيد ولا تخبروا احداً مطلقاً ولا تدعوا احداً يعلم شيئاً من امرهِ

ثم قام وذهب الى بنك الخواجه عزرا وجعل يسألهُ بعض مسائل وهو يمزح تارةً ويجدُّ أخرى ثم قال لعزرا ترى ألم يكتب اللصوص شيئاً وهم هنا . فقال عزرا لا اظن ولكن لو كتبوا شيئاً فكيف نستدل عليهم من الكتابة فقال انهُ قد يمكن الاستدلال على الشخص من كتابتهِ احياناً كثيرة ولكنني لا اقصد ذلك وانما اقصد انهُ ربما تلوثت يدُ احدهم حبراً ولمس الورق بها فقد يمكن الاستدلال عليهِ من آثار اصابعهِ

عزرا — ماذا تقول أيمكن الاستدلال على الانسان من آثار اصابعهِ كيف ذلك . فقال اسمعيل افندي هكذا ولوَّث رأس سبابتهِ بالحبر ولمس بها ورقةً ففعل عزرا مثلهُ ولكن كان الحبر كثيراً فكان الاثر اسود طامساً . فقال لهُ اسمعيل افندي اكثرت الحبر فقللهُ . فقللهُ وطبع عدة طبعات على ورقة أخرى فرماها اسمعيل افندي وقال هذا لا ينفع اطبع هكذا ولوّث اصبعهُ وطبعهُ ففعل عزرا مثلهُ وقال وما فائدة ذلك فقال اسمعيل افندي يقال انهُ يمكن الاستدلال بهذه الآثار على الاشخاص . فضحك عزرا وقال كيف يمكن الاستدلال على الاشخاص وأنا ارى ان علامات اصبعك مثل علامات اصبعي تماماً . فقال اسمعيل افندي كذا يقولون وعلينا ان نجمع كل الاستدلالات حتى لا نقصر في شيء ولكن الاعتماد على تحقيق النيابة اكثر من الاعتماد على تحقيقنا . ثم سألهُ مسائل أخرى وكتب اجوبتهُ في مذكرتهِ وقام وانصرف

وكان اسمعيل افندي يحقق وحدهُ والنيابة تحقق وحدها فأقامت الدنيا واقعدتها . وكان جلُّ اعتمادها على تقريرٍ قدَّمهُ لها الشيخ احمد وهو ان بين الاوراق المالية التي

سرقت من خزانة الخواجه لاڤي اوراقاً لهُ من اسهم الدائرة السنية العادية والمؤسسة نمرها كذا وكذا . فأسرَّت بذلك الى البنوك وسماسرة الاوراق المالية وقبضت على الغفيرين اللذين في بنك الخواجه لاڤي واخذت اقرارهما مراراً واخذت اقرار الكتبة كلهم في البنكين ورجحت ان لاثنين من الكتبة في بنك الخواجه لاڤي اشتراكاً مع اللصوص فأمرت بالقبض عليهما وايداعهما السجن

الفصل الثالث والثلاثون

الفقر بعد الغنى

حُمل الخواجه لاڤي من مكتبهِ الى دارهِ وهو يكاد يغيب عن صوابهِ وعاونهُ اثنان من الكتّاب على صعود الدرجات القليلة امام باب بيتهِ . وأطلّت زوجتهُ من الطبقة العليا من البيت ورأت اثنين يسندانهِ في نزولهِ من المركبة فصرخت صرخة منكرة وأغمي عليها فبادرت استير اليها وسألت عما اصابها فأخبرها الخدم ان اباها دخل البيت واثنان يسندانهِ فلم توجس شرًّا بل بقيت تعتني بأمها ففكت ازرارها وجعلت تفرك يديها وتروح لها وأمرت احد الخدم ان يسرع ويحضر الطبيب

وكان الخبر قد شاع في العاصمة ان بنك الخواجه لاڤي سرق ولكن لم يجسر احد ان يوصلهُ الى اهل بيتهِ . وسمعهُ الطباخ في السوق لكنهُ كتمهُ ولم يخبر به الا الخدم . فلما رأوا سيدهم داخلاً على هذه الصورة لم يخفَ عليهم السبب اما استير فكانت تجهل ذلك وبعد قليل أصعد ابوها الى الطبقة العليا ولما رأى زوجتهُ مطروحةً مغمى عليها ارتمى على مقعد الى جانبها وقال بالعبرانية ليتبارك اسم الهِ اسرائيل . الرب اعطى والرب اخذ فليكن اسم الرب مباركاً

فاضطربت استير من هذا الكلام وظنت أولاً ان اخاها أصيب بمكروه ولكنها عادت فقالت انهُ لم يزل في البيت ودنت من ابيها وقبّلت وجههُ وقالت لهُ ماذا جرى يا ابي لا تخف فان أمي يصيبها الاغماء كثيراً وقد أغمي عليها مرتين في السنة الماضية

فقال لا بأس افركي يديها . لا اقدر ان أساعدكِ لاني خائر القوى الرب اعطى

والرب اخذ ولكن اموال الناس ما الحيلة ما العمل

فظنت انهُ خسر خسارة كبيرة في البورصة وقالت لهُ المال فدى الرجال والذي يكسب يخسر أتخاف ان نموت جوعاً خسرنا خسرنا اين همتك والى متى نبقى عبيداً للمال

فقال افركي يدي امك وروّحي لها روّحي لها انظري اظنها فتحت عينيها الآن أليس عندنا روح النشادر يا داود يا مريم يا لبيبة هاتوا حنجر روح النشادر ها هو فوق المغسلة في اوضة الست

فدخل الخادم واتى بهِ واعطاه لاستير ففتحتهُ وشممت امها فحرَّكت رأسها وفتحت عينيها ونظرت الى ما حولها فوقع نظرها على زوجها ثم حاولت النهوض فساعدتها استير حتى نهضت وجلست وقالت لزوجها ماذا جرى هل رأيتك في حلم ولماذا رجعت من المكتب ألم أرَ اثنين من الكتَّاب يسندانك وانت نازل من المركبة فماذا جرى لك

فقالت لها استير خذي راحتكِ الآن ما ذا جرى له الظاهر ان الاسهم هبطت نصف جنيه فظنَّ اننا سنموت جوعاً . فالتفتت أمها اليهِ وقالت لهُ قطعت قلوبنا أتنتظر ان تربح دائماً ولا تخسر . صدق فيك يوسف فانه يقول ان قلب ابي على مالهِ اذا خسر غرشاً طار عقلهُ معهُ

فقال قولي لهُ ليسدّ فاهُ أتعلمين ما اصابنا الآن صرنا على الارض

استير — صرنا على الارض يا ابي ما هذه المبالغات حتى تقطع قلب أمي آه لو تعلمتم العربية ورأيتم ما فيها من الحكمة . اسمع ما يقولون الدهر يومان يومٌ عليك ويوم لك فان كان عليك فلا تضجر وان كان معك فلا تبطر . وما قال شاعرهم

لقد علمتُ وما الاسراف من خلُقي　　أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
اسعى لهُ فيعنّيني تطلّبهُ　　وان قعدتُ أتاني لا يعنّيني
كم من فقيرٍ غنيّ النفس تعرفهُ　　ومن غنيٍّ فقير النفس مسكين

ثمَّ فسَّرت له ذلك بالفرنسوية فقال لقد اصاب فان الغنى هو غنى النفس ولكن هذه تسلية المفلس وأنتِ تظنين انني خسرت في البورصة وتحاولين ان تخفي عني . لو خسرتُ بالبورصة لكنت أسكت ولا اشكو الى احد ولا اشكو من احد لان

لومي على نفسي ولكن ليس الامر كذلك بل ان لصاً خبيثاً دخل بنكنا في الليل الفائت وسرق منهُ كل ما نملكهُ حتى الاموال الغير المودعة عندنا ولم يسرقوا بنكنا فقط بل سرقوا بنك عزرا ايضاً

لما سمعت استير ذلك فتحت فاها وجحظت عيناها غضباً عنها أما أمها فعاودها الاغماء وجعل الزبد يخرج من فيها وحضر الطبيب حينئذٍ ودخل مع يوسف ووجدهم على تلك الحال فلم يعلم مَن يكلم ولا مَن هو المريض الذي دعي لهُ واشار الخواجه لاڤي الى زوجتهِ فبادر الطبيب اليها وكان حنجر الامونيا لا يزال الى جانبها ففتحهُ وشمهُ فعطس ثم ادناهُ من انف مدام لاڤي وانتبهت استير الى نفسها وتجلدت ودنت من أمها وعادت تفرك يديها ثم سارت الى ابيها وقالت لهُ قلتَ انهم سرقوا بنك عزرا ايضاً فأنا لا أصدّق ولا بدَّ من حيلةٍ في الامر وسأكشف لك السرقة والسارق . مَن قال لك انهم سرقوا بنكهُ ومتى حدث ذلك

فقال لما كان حكمدار البوليس عندنا ينظر ما حدث نادوهُ من المحافظة بالتلفون وقالوا لهُ ليسرع الى بنك الخواجه عزرا لان اللصوص كسروا خزانة الحديد وسرقوا كل ما فيها البارحة في نفس الوقت الذي سرقوا فيهِ بنكنا

فجعلت تتفرَّس في ابيها ثم التفتت الى أمها فرأت انها اخذت روعها فقالت لابيها أنا ذاهبة الى البنك مع يوسف لأرى بعيني . أنا لا أصدّق الا ان في الامر حيلة

فقال لها ابوها اذهبي فأنتِ خيرٌ من ألف رجل

فأمسكت بيد اخيها ونزلت وهي تقول للخادم أسرع نادِ لنا مركبةً من الشارع ثم ركبت أوَّل مركبةٍ التقت بها وحثت السائق على الاسراع الى أن وصلت الى مكتب ابيها ودخلت مكان خزانة الحديد ورأت المصوّر يصوّرها فسألت وفحصت ودققت ثم ركبت مع اخيها وسارت الى مكتب الخواجه عزرا . فلما رآها اضطرب في أول الامر لكنهُ تجلد وسلم عليها وقال لها أرأيتِ ماحلَّ بنا أنا وابيكِ . فلم يخفَ عليها اضطرابهُ وقالت لهُ نعم كأنهُ على ميعاد . فلم يفهم مرادها . ودخلت ودققت نظرها في خزانة الحديد وسألت عزرا مسائل كثيرة كأنها مهتمة بأمرهِ كما هي مهتمة بأمر أبيها .

فسرّي عنهُ بعض الشيءِ وعاد يظهر عزة النفس بعد أن اظهر التذلل وقال لها الله كريم الرجال تجلب المال فقالت والذي اغتنى مثلك في سنةٍ لا يصعب عليهِ ان يستردّ غناهُ في سنة . و بقيت نحو نصف ساعة تكلمهُ في موضوع السرقة وهو على تمام الحذر منها لانه كان يشعر انها اقوى منهُ . وهذا شأن النفوس الصغيرة متى وقفت أمام النفوس الكبيرة . ثم سألت مَن مِن رجال البوليس الموكل بالبحث والتحقيق فقيل لها انهُ اسمعيل افندي وكان هناك حينئذٍ فسلمت عليهِ مصافحةً وقالت لهُ اننا نرجو اكتشاف غوامض هذه الجناية بمهارتك وانا واثقة انك لا تعجز عن اكتشافها. ووصل الشيخ احمد في المساءِ ومرَّ ببيت الخواجه لاقي فنهضت استير للقائهِ وعرفت من وجههِ انهُ عارف بما جرى فقالت لهُ كن مطمئن البال يا استاذ فان المال الحلال لا يضيع وان ضاع

فقد تقلب الايام حالاتِ اهلها وتعدو على اسد الدحال الثعالبُ

فقال لها لا فُضَّ فوكِ يا بنتاهُ ولكن المال والبنون لذة الحياة الدنيا

ولا رَفَعَ النفس الدنيئة كالغنى ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

الفصل الرابع والثلاثون

القرض الجديد

لورد بنشيلد — لقد نجحت مساعينا فوق ما كنا ننتظر فالفوز حليف اليابان برًّا وبحراً والاسواق المالية تتلقَّف سنداتها تلقفاً ولا بدَّ لنا من ان نبيع كل ما عندنا منها قبلما يعقد الصلح ثم نشتريها بعدهُ لان فوز اليابان في ميدان القتال لا يضمن لها الفوز في ميدان السياسة والروس على ما نعلم من الدهاءِ فلو كان خصمهم فيها رجلاً من ملتنا مثل لورد بيكنسفيلد لوطَّنا النفس على الغلبة في السياسة

ناثان — أوكان بيكنسفيلد اقدر من الروس وادهى

لورد بنشيلد — نعم كان كذلك ولقد سمعت عنهُ بالامس قصة رواها كاتبهُ الاول لورد روتن بعد ان حفظها في صدرهِ من عهد مؤتمر برلين قال . لما قرَّ القرار على عقد

المؤتمر كنتُ مريضاً من شدة ما قاسيت من عناءِ الاشغل وانا كاتب بيكنسفيلد وكان هو ايضاً منحرف المزاج فابى ان يذهب الى المؤتمر ما لم اذهب معهُ . ولما قال لي ذلك وقعت في حيرة ولا حيرة الضب لم اشأ ان اتركهُ ولا كنت قادراً على الذهاب معهُ . وبعد حديث طويل في هذا الشان قلت لهُ انني امضي واستشير طبيبي فان اذن لي في الذهاب ذهبت والاّ فلا . فمضيت واستشرت الطبيب وهو السر وليم غل ففحصني ملياً ثم قال لي اذهب كمشيرٍ للورد بيكنسفيلد ولكن لا تعمل عملاً آخر . ففعلت حسب امرهِ وذهبت ولم أصب بمكروه بل جادت صحتي على ضد ما قدَّرتُ كأنّ الاهتمام بما جرى في ذلك المؤتمر انعش قواي وفَعَل فِعْل المنبّه والمقوّي . ولما اخبرت لورد بيكنسفيلد انني ذاهب معهُ اشرت عليهِ ان لا نذهب مع لورد سلسبري وسائر رجال وزارة الخارجية بل نسبقهم ونمرُّ على بركسل ثم نذهب الى برلين وحدنا فعمل حسب مشورتي . وجاء لورد سلسبري برلين بقطار خاص ومعهُ اربعون موظفاً من نظارة الخارجية . ولم نكد نحن نصل الى برلين حتى ارسل البرنس بسمارك يطلب مقابلة لورد بيكنسفيلد . ولما اخبرتهُ بذلك قال قل للرسول انيانا اذهب واراهُ . وبعد نصف ساعة كنا في قصر ردزڤل حيث البرنس بسمارك فدخل بيكنسفيلد اليهِ وبقيت انا في حديقة القصر في انتظارهِ ثم سمعت واحداً يناديني باسمي فالتفت واذا انا بالكونت شوڤلوف سفير روسيا في لندن وكان صديقاً لي فقال ما شأنك هنا وكيف وصلت الى هذا المكان فقلت اني منتظر لورد بيكنسفيلد فقد اتى واختلى بالبرنس بسمارك . ولما قلت ذلك امتُقع كأنهُ كان آتياً لهذا الغرض فسبقهُ بيكنسفيلد اليهِ ولا شبهة في ان البرنس بسمارك عرف قدر بيكنسفيلد من تلك الساعة

وعقد المؤتمر وجرى في اعمالهِ وطلب الانكليز من الروس اربعة امور قالوا ان لا بدَّ منها فقال معتمدو الروس انها امور هامّة جدًّا لا يمكنهم ان يقبلوا بها ما لم يستشيروا القيصر ولا بدَّ لهم ان يبعثوا بها اليهِ مع رجل من اكبرهم مقاماً . فتأجلت جلسات المؤتمر ثلاثة ايام او اربعة الى ان يمضي الرسول ويعود

وفي صباح اليوم التالي دخل بيكنسفيلد غرفتي وقال لي ان الروس لا يقبلون بهذه

المطالب وقد صممت على ان نعود الى لندن باسرع ما يمكن حتى نصلها الاحد مساءً فانام واستريح ثم اقوم في الصباح واذهب الى قصر الملكة واعرض عليها نتيجة المؤتمر ثم نشهر الحرب على روسيا فدبّر ما يلزم لسفرنا حالاً . فاحضرت جداول السفر ونظرت فيها فوجدت انهُ يستحيل علينا ان نصل الى لندن يوم الاحد مساءً ما لم نستأجر قطاراً خاصًا يقوم بنا من كولون وللحال ارسلت تلغرافاً الى ناظر محطة كولون لكي يُعدّ لنا قطاراً خاصًا يكون في انتظارنا الساعة الفلانية

فادار ذلك التلغراف دفة السياسة لاني التقيت في اليوم التالي بالبرنس بسمارك وهو في مركبة مفتوحة فقال لي اين لورد بيكنسفيلد فقلت لهُ انهُ في النزل فقال هل يسهل عليّ ان اراهُ الآن . فقلت نعم . فاخرج ساعتهُ ونظر اليها ثم قال الآن الساعة الرابعة الاّ اثنتي عشرة دقيقة وانا مدعوٌّ لمقابلة مولاي الامبراطور الساعة الرابعة تماماً واحبُّ ان ارى لورد بيكنسفيلد فهل تستطيع ان تدخل علينا الساعة الرابعة الاّ خمس دقائق وتنبهني لكي لا يفوت الوقت عليّ . فقلت لهُ اني افعل وسرت معهُ الى النزل واريتهُ الغرفة التي فيها بيكنسفيلد . وفي الساعة الرابعة الاّ خمس دقائق تماماً قرعت الباب عليهما ودخلت وكانا يتكلمان عن عدم انتظام التبليط في الشارع المعروف بولهلم ستراس فاعتذرت اليهما وقلت للبرنس بسمارك ان الساعة قد صارت اربعاً الاّ خمس دقائق وخرجت . وفُتح الباب بعد دقيقتين وخرج البرنس بسمارك وصعد الى مركبتهِ ومضى لكي يصل الى القصر الساعة الرابعة تماماً . ودخلت انا واعتذرت الى لورد بيكنسفيلد عن دخولي عليهما فقال لا بأس بذلك وأنا اعلم انك لم تدخل لغير داعٍ ولكن حدث في هذه الفترة حادث في حد الغرابة فان البرنس بسمارك التفت اليّ بعد خروجك وقال « قلْ لي هل تصرُّ انكلترا على هذه الامور الاربعة وتحسبها بمثابة بلاغ اخير » فقلت « نعم » ولم يكن كلامنا في هذا الموضوع بل في مواضيع اخرى لا علاقة لها بهِ

وفي اليوم التالي اجتمع المؤتمر اجتماعهُ الاخير وطال الاجتماع ساعتين ثم فُتح الباب وخرج المعتمدون والروس في اولهم وبقي لورد بيكنسفيلد الى الآخر حسب عادتهِ فمسك بيدي وسرنا معاً ولم نبعد الاّ قليلاً حتى قال لي « لقد حدث امر لم اكن اتوقعهُ فان

روسيا سلَّمت بكل مطالبنا » . ثم علمنا ان تلغرافي فعل كل ذلك فان ناظر المحطة في كولون ارسل صورة منهُ الى بسمارك فرأى اننا عازمون على الحرب ان لم تسلّم روسيا بالامور الاربعة التي طلبناها . وكان القيصر قد امر معتمديهِ ان يسلموا بكل ما تطلبهُ انكلترا ولا يشتبكوا في حرب معها فلما رأى بسمارك من تلغرافي ومن الكلمة التي سمعها من بيكنسفيلد اننا مصرون على عزمنا اخبر معتمدي الروس بذلك فسلموا حالاً . اما المعتمد الذي ادَّعى انهُ ذهب لعرض الامر على القيصر فلم يذهب الاَّ الى كونتسبرج ولم يكن ذهابهُ الاّ خدعةً

هذا ما فعلهُ بيكنسفيلد فغلب الروس في ميدان السياسة ولكنهُ لم يُقدم عليهِ الاَّ وهو واثق ان تركيا تمدهُ بالرجال وان النمسا تحالفهُ على حرب الروس . وليس عند اليابانيين رجل يماثلهُ ولذلك لا اعجب اذا خرج الروس منصورين في ميدان السياسة بعد ان دُحروا في ميدان القتال ويجب ان ننتبه لذلك حتى اذا بدت لنا بارقة فوزهم السياسي اشترينا كل ما يمكن مشتراهُ من اوراقهم المالية لانهُ لا بد من ارتفاع اسعارها حالما يعقد الصلح

ناثان — وما الرأي الآن في هذا القرض الجديد الذي طلبتهُ اليابان

لورد بنشيلد — لا بأس بهِ ولا بدَّ من اكتتابنا فيهِ هنا وفي نيو يورك وبرلين . وسواءٌ اخذت اليابان غرامةً او لم تأخذ فان اسعار اوراقها تبقى مرتفعة الى قبيل عقد الصلح ولا سيما ما دامت جرائدنا وجرائد اميركا تطنب في مدحها . كم دفعنا ياموريس لجرائد اميركا

فتناول موريس دفتراً نظر فيهِ ثم قال بلغ المدفوع حتى الآن نحو تسعين الفاً يخرج منها تسعة وعشرون لجرائد باريس والبقية لجرائد اميركا وقد اشترينا نحو ثمانين في المئة من اسهم جريدة المساءِ ونصبنا هوغ على ادارة تحريرها

ناثان — هذه مبالغ زهيدة ولكن النفقات الكبيرة في روسيا . كم صار المدفوع حتى الآن

موريس — نحو مئة وثمانين الفاً ومير يطلب اموالاً أخرى

لورد بنشيلد — لا بدَّ من الانفاق ومَن لا يزرع لا يحصد . والخلاصة انهُ لا بد

من الاكتتاب بالقرض الياباني الجديد وحمل الروس على طلب الصلح والاستفادة من فوزهم سياسيًّا

ولم يكد يتم هذا الكلام حتى قُرِع التلفون ونعي لهُ ابن عمهِ البارون سلمون من قينًّا مات فجأةً وخلَّف من الاموال ما لا يقع تحت حصر حتى يقال ان ثلث المباني في تلك المدينة الفخيمة لهُ فأطرق هنيهةً وهو يقول في نفسهِ ماذا ينفع المال . ثم دارت المذاكرات بالتلفون في سبب الوفاة والوقت المعين للدفن . وقد اثَّر هذا الحادث في نفسهِ تأثيراً عميقاً فكان يجاوب ذويهِ في مذاكراتهم وصورة الموت مرسومة امام عينيهِ وكأنها تخاطبهُ بقول الشاعر

وما المال والاهلون الاَّ ودائعٌ　　ولا بدَّ يوماً أن تردَّ الودائعُ

وفتحت وصيَّة البارون سلمون بعد ايام فاذا هو قد اوصى بمليون جنيه لتبنى بها مستشفيات لمعالجة الفقراء فرحَّموا عليهِ وهم لا يدرون ان تلك الاموال مبتزة من دمائهم ودماءِ امثالهم ولكنهُ فعل خيراً من الذين يبتزون الاموال ثم يتركونها كلها لاولادهم لينفقوها في الملاذ والمحارم

الفصل الخامس والثلاثون

الرجوع من السفر

دورا — هذه سفن الغوَّاصين فنحن الآن امام عمان والبحرين من هنا يستخرجون اللؤلؤ النفيس انظر ما اصغر مراكبهم وما ارق حاشيتهم أرأيت افقر من هؤلاء المساكين وهم يستخرجون اثمن الجواهر ولكن لماذا أدنونا من جزيرة العرب الى هذا الحد

هنري — لقد كنت أفكر في ذلك الآن . نعم هؤلاءِ هم الغوَّاصون الذين تقلد اعناق ملكاتنا واميراتنا بجواهرهم يعيشون في الماءِ وتفترسهم كلاب البحر ولا يكتسبون الاَّ ما يسدُّ الرمق لكي تتحلى ربات الجمال وتتفاخر الغواني بالدرر الغوال ولكن اسمعي كيف يوقّعون غناءهم على حركات مجاذيفهم وقولي لي أهم أنعم بالاً أم نحن . لايكادون يتبلَّغون من العيش تبلغاً ونحن جمع لنا ابونا ثروة طائلة تكفينا وتكفي ألوفاً معنا وقد زاد

المبيع اليومي من اللندن نيوز بواسطة هذه الحرب حتى فاق على المليون وها أنا وانت لسنا اصح بدناً منهم ولا انعم بالاً ومجموع الساعات التي يسرُّ بها الواحد منا مدى عمره ليس اكثر من مجموع الساعات التي يسرُّ بها الواحد منهم ثم يأتي الموت ويساوي بيننا وبينهم فبماذا نفضلهم . انظري عضلات سواعدهم وصدورهم ما اكبرها وما اقواها لم أرَ بين تلامذة اكسفرد وكمبردج الذين نعدهم ابطال العصر اسبقهم في التجديف مَن عضلاتهُ اكبر من هذه العضلات او أشد منها توتراً . انظري لقد اوقفوا التجديف فقد هب النسيم البحري بعد ان سخنت اشعة الشمس اليابسة وهم يرفعون الشراع . ما اسرع حركاتهم رفعوهُ فامتلأ هواء ويكاد هذا الزورق يلحق بنا لكنهُ لا يريد الانفصال عن رفاقهِ . أبعدنا عنهم لا شيء يضاهي البخار

و بينما هما يتكلمان دنا القبطان منهما فقالت لهُ دورا أرأيت زوارق الغوّاصين فقال نعم رأيتها فاستغربت خروجها في مثل هذا الوقت وابعادها الى هـذا الحد لان زمن استخراج اللؤلؤ فات وهو من ابريل الى آخر سبتمبر ولكن المرض الذي اعتراهُ قلَّل ما استخرج منهُ هذا العـام فاضطرّ الملتزمون الى ان يصلوا الصيف بالخريف لكي يعوّضوا عمَّا نقص

وانقضى ذلك اليوم والسفينة تمخر في بحر رهو الى ان آذنت الشمس بالمغيب فتلبَّدت الغيوم وتكاثفت السحب حتى اظلم الجوُّ ثم بدا على وجه البحر نور مستطير وانتشر حتى بلغ الافق فذعر الركاب واجتمعوا على ظهر الباخرة وهم يظنون ان ناراً اضطرمت في ماءِ البحر فتهلل وجه القبطان وقال لدورا رأيت هذا النور مرة واحدة قبل الآن وهذه هي المرة الثانية وقد حار العلماء في تعليله واكثرهم على انهُ من الظواهر الكهربائية النادرة مثل الشفق القطبي

فقالت ان العلماء يحيلون على الكهربائية كل ما يجهلون سببهُ كأنها صارت علّة العلل

فقال ولا غرابة في ذلك بعد ان بيَّنوا لنا ان جواهر المادة نفسها دقائق من الكهربائية فاذا كانت المادة نفسها كهربائية فلا عجب اذا كانت ظواهرها كلها من نتائج الكهربائية

وسمع بعض الركاب كلامهُ فجعلوا يتساءلون ويتباحثون فيهِ فقال احدهم ان هذه الظاهرة من ظواهر الكهربائية وقال آخر انها من الشفق القطبي وقال غيرهُ ان مركوني كهرب ماء البحر ليرسل بهِ اشاراتهِ التلغرافية . وقالت احدى السيدات ان اليابانيين كهربوا البحر لينسفوا بوارج الروس واتصل الخبر بالخدم فذعروا وهرعوا الى ظهر السفينة فعلت الجلبة وشاط الطعام على النار واضطرَّ القبطان ان يأمر بتفرقهم ورجوعهم الى اماكنهم • وتدانت اذيال السحب فمادت البر والبحر وهطل الغيث مدراراً فزال النور المستطير وعصفت الرياح وتعالت الامواج فهرب الركاب الى غرف الجلوس وكان البارومتر قد انذر منذ يومين بنوءٍ شديد فاتجه القبطان شمالاً لكي لايداني جزيرة سقطرى واخفى ذلك عن الركَّاب لئلا يقلقوا على غير جدوى ومرَّت تلك الليلة وكانت شديدة عليهم كلهم لم يروا فيها نجماً ولا قمراً وطلع الصباح والسماء ملتحفة بالسحب وأشعة الشمس تحاول اختراقها فيمتصها البخار امتصاص الرمل للماءِ فأضيئت المصابيح الكهربائية واقام الركاب في اماكنهم يقرأون ويلعبون و يسمعون صوت نقط المطر تقرع كوى السفينة . ومرَّ يومان على هذه الصورة ثم زاد اضطراب البحر وقتام الجوّ ولم يكن الوسق كثيراً حتى يخففوهُ ولا كان خوف القبطان الاّ من الصخور المنتشرة حول جزيرة سقطرى فكان همهُ الاكبر اجتنابها وليس في الجزيرة منارٌ يهتدى بهِ فأقام على المرقب لعلهُ يرى البر فيستهدي لكن السحب كانت تحجب كل شيءٍ والدلائل كلها تدل على ان ذلك النوء واسع النطاق وقد يدوم يومين او ثلاثة فأسقط في يدهِ وجعل يطوف في السفينة يتفقد القوارب والعوّامات ويوصي البحارة بالسهر والتيقظ حتى اذا خافوا غرق السفينة أنزلوا النساء والاولاد والعجزة في القوارب وألبسوا الرجال أنطقة العوم . ورآهُ الركاب مضطرب البال فاجتمعوا حولهُ يسألونهُ فلم يخفِ عنهم انهم في خطر مبين وطلب منهم ان يستعدوا لملاقاتهِ

فعلت الضوضاء بين الركاب واسرع كلٌّ منهم الى امتعتهِ يحمل منها ما غلا ثمنهُ وخفَّ حملهُ واجتمعت العيال بعضها مع بعض وجثا اهل التقى منهم يتوسلون الى الحق سبحانهُ مثير العواصف ومسكن الرياح لكي يلطف بهم . وتذكّر الآباء اولادهم

والاولاد آباءهم والاخوة اخوتهم فعلت الحسرات وفاضت العبرات وقُطع الرجاء من النجاة . وامسكت دورا بأخيها وقالت لهُ ما قولك يا هنري نجونا من رصاص البنادق لكي نقع فريسة للاسماك وكيف يكون حال والدينا بعدنا . فنظر اليها ثم الى البحر ولم يحِرْ جواباً نظر اليها كمن سُدَّت عليهِ مذاهبهُ ورأى الموت امام عينيهِ ولكن الامل بالحياة قويٌّ في صدرهِ . ثم حاول التخفيف عنها فلم يطاوعهُ لسانهُ فقال لا بدَّ لهم من انزال القوارب الآن لاني رأيتهم وضعوا فيها الماء والزاد فانزلي في قارب منها وأنا اخذت عوَّامة حتى اذا امتلأت القوارب ولم تعد تسع احداً تبعتكم سباحة ولا اظن اننا بعيدون عن البر اكثر من ميلين او ثلاثة وقد اعتدت السباحة فلا يعسر عليَّ ان اسبح ستة اميال

وقبل ان يتم كلامهُ ارتجفت السفينة ارتجافاً عنيفاً وسُمع صوت شديد من قعرها لانها اصابت صخراً خرقها فأسرع البحارة الى الطلمبات واعملوها ثم رأوا ان الماء الداخل اليها يزيد على ما يستطيعون اخراجهُ منها فأمر القبطان بانزال القوارب وأن ينزل اليها النساء والاولاد وبعض القادرين على التجذيف . وتوسلت دورا الى اخيها لكي ينزل معها لانهُ من البارعين في التجذيف فردَّ مفضّلاً ان ينزل غيرهُ بدلاً منهُ وخلع ثيابهُ واستعدَّ للحاق بها سباحة فأمسكت بهِ ولم تشأ ان تتركهُ وحدهُ وبينما هي على هذه الحال دنا منها احد البحارة ورفعها بين يديهِ وناولها لآخر فوضعوها في القارب رغماً عنها ووقف القبطان والمسدّس في يدهِ لكي لا ينزل احد في قارب فوق ما يحتمل لئلا ينقلب بالركاب كلهم واذا حاول احد النزول في قارب بعد ان يمتلئ رماهُ بالرصاص. فامتلأت القوارب وسارت تتقاذفها الامواج ودورا وكثيرات مثلها ينادين اخواتهنَّ وازواجهنَّ مازجات الصياح بالنحيب والقوارب تعلو بهنَّ حتى تكاد تقف على مؤخرها ثم تسفل حتى يحجبها الموج عن الانظار . وكان البر قريباً كما ظن هنري ولم يكن الاَّ نصف ساعة او حواليها حتى تقشعت السحب ودنت القوارب من البر ورآها السكان الموكلون بحماية من يقع على جزيرتهم فاجتمعوا على الشاطئ والحبال في ايديهم ونزل بعضهم في البحر وجعلوا يرمون الحبال ليمسك بها مَن في القوارب فنجوا كلهم سوى

قارب انقلب بمن فيهِ قبلما ابعد عن السفينة فلم ينجُ منهم احد

وحالما وطئت رجل دورا البر تسلقت صخراً عالياً ووقفت على رأسهِ تستشرف البحر لعلها ترى السفينة او ترى اخاها اما السفينة فلم ترَها مع ان السحب كانت قد انقشعت لان الامواج ابتلعتها بعد مغادرتها لها بدقائق قليلة فزاد خفقان قلبها وشعرت كانهُ كاد ينفطر في جوفها وارتجفت ركبتاها لكن جَلَد النساءِ وقت الشدة اقوى من جَلَد الرجال وكان الامل يزيّن لها ان اخاها في البحر يسبح على مهل لانهُ من امهر الشبان في السباحة ثم يزاحمها اليأس فيضيق نفسها . وكانت حديدة البصر لم يتعب الدرس الكثير عينيها فرأت عن بعد شبحاً خُيّل لها انهُ اخوها . كان وجدانها يقول لها انهُ اخوها وعقلها يقول انهُ قطعة من اخشاب السفينة او واحد آخر من الركاب الذين بقوا فيها وهم نحو مئة نفس فان صحّ أن يكون الشبح اخاها مرةً صحّ ان يكون غيرهُ مئة مرة . وتضاربت هاتان القوتان العقل والوجدان لكن المرأة اخضع لوجدانها منها لعقلها والامل يجسّم الاماني فيجعلها حقائق فلبثت في مكانها وقلبها يخفق خفقان امواج البحر الى ان دنا ذلك الشبح منها ورأت معهُ ثلاثة او اربعة يسبحون ويغالبون الامواج فعرفت اخاها من قميصهِ الحمراءِ ومن ارشاد قلبها فلم تعد تشعر بقيامها على ذلك الشاهق بل شعرت كأنها جزءٌ من اخيها تصعد معهُ وتهبط الى ان دنا من صخور الشاطىءِ حيث تتنفث الامواج وترتدُّ على اعقابها مرغيةً مزبدةً فخافت ان تكون قواهُ قد خارت فنزلت عن الشاهق وجعلت تعدو على الصخور لملاقاتهِ وهي تقع وتقوم وشناغيب الصخور تدمي يديها وتمزق ثيابها وتبعها بعض الاهالي وبيدهم حبل طويل ووصل اخوها حينئذٍ الى تيّار بين صخرين كبيرين فجعل التيار يبعدهُ اكثر مما تدنيهِ ساعداهُ واهالي الجزيرة يشيرون اليهِ ليبعد عن التيار جنوباً وهو لا يسمع كلمتهم ولا يفهم اشاراتهم ومرّت على دورا بضع دقائق كأنها بضعة اعوام رأت الموت متجسماً امام عينيها وقد اتى ليخطف اخاها من بين يديها وهي ممسكة بهِ تقول كلانا حيٌّ او كلانا ميت وان اقبل ولديّ بدونهِ . وظلت تثب من صخر الى صخر ورشاش الامواج يلطم وجهها حاقداً حرداً ومخاوف الموت تتراءى امامها فلا تزيدها الاّ جراءةً وجلداً الى ان خارت قواها

وتقرحت قدماها فوقفت تحاول خلع ثيابها لترمي بنفسها الى البحر فوقعت لا تعي على شيء . وكان بعض اهالي الجزيرة قد وصلوا اليها فحملوها وعادوا بها الى البر وهي بين الموت والحياة

الفصل السادس والثلاثون

ثالثة الاثافي

خادم — مدام واصف بك مشيعه لك لتذهبي حالاً وتري ستي بهية

استير — ما لها أمس كانت عندي

الخادم — يقولوا انها عمّال تعيّط هي وامها

فقامت استير حالاً ووضعت برنيطة على رأسها ومشت الى بيت واصف بك ودخلت غرفة استير فوجدتها جالسة وعيناها تدمعان ولما رأت استير خنقتها العبرات وجعلت تشهق والقت رأسها على سريرها وكانت امها جالسة في جهة اخرى من الغرفة وهي تبكي ايضاً فحارت استير في امرها ودنت من مدام واصف بك اولاً واعتنقتها وقالت لها قولي لي ما الخبر . فاشارت الى جريدة مفتوحة امام بهية فاخذت استير الجريدة تنظر فيها حيث تكتب المناعي بين الخطين الاسودين فلم ترَ اسم احد تعرفهُ فانحنت وقبلت بهية وقالت لها قولي لي ما الخبر ومن مات من معارفنا . فقالت بهية بعد ان كفكفت دموعها انظري هذا التلغراف فانهُ يقول فيهِ ان الباخرة اكاديا غرقت عند ساحل سقطرى وغرق نحو مئة من ركابها آه يا استير ارسل هنري الينا تلغرافاً من بمباي يقول انهم مسافرون في هذه السفينة فخفق قلبي من ذلك الحين والانسان قلبهُ دليلهُ اندبي معي سوء حظي آه يا استير آه يا ربي ما هذه المصيبة . وجلست استير اليها واعتنقتها وجعلت الاثنتان تبكيان واستير تحاول تصبيرها بقولها ما ادرانا انهما ليسا بين الذين نجوا وهي لا تتصبر بل تقول الانسان قلبهُ دليلهُ

وذهب احد الخدم بالمركبة لمقابلة واصف بك وكان آتياً من الوجه القبلي وقد تأخر القطار عن ميعادهِ نحو ساعة فعاد بهِ الى البيت ولما دخلهُ استقبلهُ خادم آخر

واخبرهُ خبراً اوقفهُ مضطرباً ثم قال للخادم متى كان ذلك فقال لهُ منذ ساعة من الزمان والظاهر ان الست الكبيرة وستي بهية عرفتا قبلنا وهما تبكيان مع ستي استير في أوضة ستي بهية

فدخل غرفتهُ ونفض الغبار عنهُ وغسل وجههُ ودخل غرفة أبنتهِ فلما رأينهُ عدنَ الى البكاء فقال لهنَّ لا احدٌ يخالفكنَّ في انها تستحق ان يبكى عليها ولكن كانا نعلم انها استراحت من الألم وما كان يمكن ان تطول حياتها اكثر من ذلك

فنظرنَ اليهِ مبهوتات وقلنَ لهُ بلسان واحد مَن مَن تعني . وقالت استير حليمة حليمة قال أبي في الصباح انها تحت رحمة ربها آه يا حليمة يا أختي حليمة

واجتمع الحزنان فكانا اشدَّ مما تحتملهُ تلك القلوب حالة تصوُّرُها صعب والتعبير عنها اصعب ولا يدركها الاَّ مَن فقد حبيباً　تتمة القصة في الجزء التالي

الفصل السابع والثلاثون

من مرسيليا الى مصر

اليوم صحوٌ والبرد قارس والناس يمرون في الشوارع ذهاباً واياباً متلفعين متلثمين كأنهم في اواسط فصل الشتاء . وباعة السمك والمحار عابسون ممتقعون لم يصطادوا شيئاً في الليل الغابر لشدّة الانواءِ . وقد انحلَّ عقد الاعتصاب وعاد عمَّال الرصيف الى اعمالهم بعد ان عضهم الجوع فشحنوا السفن ونقموا على رؤسائهم الذين اغروهم باعتصاب لم يجنوا منهُ غير الضرر

ركب السر ادورد برون وزوجتهُ لادي برون سفينة من السفن الانكليزية الكبيرة التي تذهب الى الشرق الاقصى وفيها عدد عديد من الركاب اكثرهم من الانكليز الموظفين في مصر والهند استأجروا اماكنهم فيها من لندن ووافوها برًّا الى مرسيليا افتداءً للوقت وتخلُّصاً من انواءِ خليج بسكي . ولما ابعدت بهم السفينة عن البر نشر البحارة خيمة على ظهرها كالبيت المحكم وانتشر الركاب فيها زرافاتٍ ووحداناً وجلست لادي برون الى جانب زوجها ودار بينهما الحديث التالي

لادي برون — لم اتعب في حياتي كما تعبت الآن . يا حبذا لو أتينا بطريق جبل طارق

السر ادورد برون — المسافة من لندن الى مصر بطريق جبل طارق اثناعشر يوماً و بطريق مرسيليا ستة ايام وما ادرانا انهُ لا يكون نوءٌ في الاتلنتيكي كما يكون عادة في هذا الفصل من السنة ثم اني أنا كنت معكِ ولم اتعب

لادي برون — انتم الرجال تقوّون اجسامكم بالرياضة وتنسون اننا نحن النساء لم نكن نفعل ذلك فلا نستطيع تحمل المشاق مثلكم اما بناتنا فربينَ على غير ما ربينا نحن ولا اظن ان هنري اقوى على تجشّم المشاق من دورا . كم تظن اننا أبعدنا عن البر الآن يا ادورد

السر ادورد — لا اقلّ من اربعين ميلاً يا ادث لان السفينة تسير ثمانية عشر ميلاً في الساعة وقد مضى الآن اكثر من ساعتين من حين اقلعت بنا

لادي برون — ما اسرع ما يمضي الوقت مضت ساعتان كأنهما دقيقتان . أتظن يا ادورد اننا نلتقي بهنري ودورا في بورت سعيد

— كلاّ لانهما يدخلان القطر المصري بطريق السويس وسيسبقاننا الى مصر ببضعة ايام فنجدهما هناك . وقد اخبرتهما بالتلغراف ان ينزلا في هوتل سافوى حيث نزلا أولاً وحيث استأجرنا شقّةً للنزول فيها

ومرّ اليوم الاول والثاني والثالث من غير ان يحدث في الباخرة شيء غير عادي فقضى الركاب هذه الايام الثلاثة في الاكل والشرب واللعب والنوم والتفكه بالحديث . ولما مروا ببوغاز مسينا كان البحر هائجاً ولكن هيجانهُ لم يكن شديداً فلم يُصب بالدوار الاّ بعض الركاب . والسفينة كبيرة ووسقها كثير وكل ما فيها نظيف جدًّا والفحم الذي يوقد فيها قليل الرائحة القطرانية فساعد كل ذلك على اراحة ركابها ونجاتهم من الدوار لا سيما وان الرجفان الذي ترجفهُ بعض البواخر فيقلق الركاب لم يكن في هذه الباخرة . وفي صباح اليوم الرابع كانت لادي برون تقلّب الجرائد في غرفة القراءة فوجدت في جريدة مرسيليا الصادرة يوم سفرهم منها تلغرافاً من عدن منشوراً بحروف دقيقة في

مكان لا يستلفت النظر يقال فيهِ ان الباخرة اكاديا من بواخر الباسيفيكي غرقت عند ساحل سقطرى بمَن فيها . فلما وقع نظرها عليهِ ذهلت لحظة من الزمان كأنها في حلم ثم صرخت صرخةً منكرةً ووقعت الجريدة من يدها وكان زوجها يكتب الى جانبها فنهض اليها مذعوراً وقال ماذا ماذا فألقت رأسها على كتفهِ وهي تقول اولادنا اولادنا الباخرة التي كان فيها اولادنا الباخرة اكاديا غرقت بهما غرقت غرقت آه يا هنري يا دورا يا ولدينا يا ربي ما هذه البلية ما هذه المصيبة انظرْ انظرْ اقرأ غرقت غرقت كان قلبي يحدثني بذلك من حين ارسلناهما الى هذه الحرب المشومة لعن الله الطمع لعن الله المال نضحي انفسنا واولادنا لاجل مصلحة الامّة لكي تزيد الاموال في صناديق الاغنياء آه يا ربي ما هذه المصيبة . وجعلت تبكي وتنتحب . وتناول السر ادورد الجريدة ونظر فيها سريعاً الى ان وصل الى التلغراف المرسل من عدن فارتجفت يداهُ واصطكّت ركبتاهُ وانقطع عن الكلام . واجتمع الركاب حولها هذا يقول خسر في البورصة وهذا يقول احترقت ادارتهُ . وسمعت امرأةٌ كلام لادي برون فقالت للذين حولها ان اولادها غرقوا في البحر الظاهر انهم نزلوا ليسبحوا فغرقوا . واسرع بعض معارفها ليسألوها عن جلية الخبر فأشار السر ادورد الى التلغراف وقال بصوت خافت ان ولدينا كانا في هذه السفينة . فوقع كلامهُ كالصاعقة على جميع الذين سمعوهُ وجعلوا يتناجون في ما بينهم قائلين ما اعظم هذه المصيبة وما افدحها . وغلب الحزن على بعض النساء ولا سيما اللواتي لهنّ اولاد في الغربة وجعلت كلٌّ واحدة تفكّر في اولادها . ثم ان السر ادورد تجلد وقام وسأل القبطان عمَّا اذا كان يستطيع ان يدخل بهم مرفأ من المرافئ القريبة ليبحث عما حلّ بركاب اكاديا فقال ان اقرب مرفإٍ الينا مرفأ الاسكندرية ولكن مرورنا عليها يؤخر البريد ويضرُّ بالمسافرين عدا عما يلحق شركة البواخر من الخسارة . فقال السر ادورد اما خسارة الشركة فأنا أتحملها مهما كانت وأما البريد والركاب فلا سبيل لي الى ارضائهم وأطرق اطراق اليئس القانط . وادرك الركاب مرادهُ وكان بينهم رجل مقدام فأخذ ورقة وكتب فيها سطرين مفادها اننا نحن ركاب الباخرة الكسندرا نلتمس من قبطانها ان يمرّ بنا على الاسكندرية ويقف

بها ولو ساعتين من الزمان . ووقّع الورقة ودار بها على الركاب في الدرجة الاولى والثانية فوقّعوها مبتهجين وكان اذا توقف احدهم عن توقيعها يبسط لهُ الذين حوله واقعة الحال ورفعوا الورقة الى القبطان وتناولها السر ادورد وكتب تحتها انهُ يقوم بكل النفقات التي تترتّب على تغيير خطة الباخرة . فقبل القبطان طلبهُ ووجَّه الباخرة الى الاسكندرية فوصلتها في اليوم التالي

ولم يكد السر ادورد يصل الى البر حتى بعث بالتلغرافات الى عدن ولندن يسأل عما حلَّ بالباخرة اكاديا وعن اسماء الغرقى واسماء الناجين . وسارت لادي برون معهُ الى بيت التلغراف وجلست هناك تنتظر الجواب وهي غائصة في بحار اليأس تتصوّر ولديها تتقاذفهما الامواج وقد أمسك هنري بذراع دورا يحاول السباحة بيمينه ورفع رأسها فوق الماء بيساره فيصعد قلبها بصعودهما فوق الماء ويهبط بهبوطهما فيه ثم تتعالى اللجج وتغمرهما ويرغي البحر ويزبد حيث غاصا فيه فيغوص قلبها في صدرها وينقطع نفسها حتى تكاد تختنق ثم تلوح لها بارقة امل اذ ترى الزوارق مسرعة لانقاذ ولديها فتتنفس الصعداء وتشير بيديها وعينيها الى حيث غاصا في الماء وينقطع نفسها ثانيةً وتقف بين اليأس والرجاء وكأن حياتها معلقة بتلك الزوارق . وظلت على هذه الحال الى ان خارت قواها وكثر الفضول في دماغها فأغمي عليها وتاهت في فيافي البحران لا تعي على شيء

الفصل الثامن والثلاثون

كشف المخبإ

القاهرة قائمة قاعدة ولاحديث للناس ولا بحث للجرائد الآ في سرقة بنك الخواجه لاقي والخواجه عزرا . وقد ثقل الرزء على الخواجه لاقي فرزح تحتهُ مع ان ما سُرق له لا يوازي جزءا صغيراً من ثروته فكيفما التفتَّ اليه رأيته مبهوتاً يتمتم وينفض رأسهُ مرة بعد أخرى كأنهُ يحسب الاموال التي فقدها ويفكّر في الاساليب التي توصل الى استرجاعها ثم يرى انها عقيمة فيرفضها . وحذت زوجتهُ حذوهُ كأنها تشرّبت اخلاقهُ كلها من

هذا القبيل ورزح بها الهمُّ فكانت تقضي اكثر وقتها في سريرها. اما يوسف فلم يبالِ بما حدث ولا اقتصد في نفقاتهِ بل كان يقول لمن يكلمهُ في هذا الموضوع ان ابي يريد ان يترك لي مال روشيلد وانا لا اريد ان احمل حملاً عجز هو عن القيام بهِ . ولكنهُ لم يكن يجسر ان يكلم اباهُ في هذا الموضوع لان اباهُ كان ينتهرهُ ويزيد هماً وغماً فترك الامور تجري مجراها

واما استير فكانت كاللبوة الثاكل فلم تترك سبيلاً للبحث الا طرقتهُ لا حباً بالمال بل رغبةً في اكتشاف السارق . وتولَّت مقابلة المحامي ورئيس النيابة ورؤساء البوليس الى ان انتهت التحقيقات على ما تريد . وقبل ان ترفع القضية الى المحكمة جاء خبر غرق الباخرة التي كان فيها هنري واختهُ فاسودَّت الدنيا في عينيها وطار صوابها وصار شغلها الشاغل تعزية بهية

وقد تضاربت الاقوال في امر السرقتين وخاضت الجرائد فيهِ على خلاف عادتها وجعل بعضها يصدر نشرات اضافية في المساءِ او في الصباح لاذاعة ما ظهر من مخبآت المسألة اولايهام القراءِ ان آثار السرقة وجدت في اماكن بعيدة . وانتشر البوليس السري في احياءِ العاصمة وانحاءِ القطر وجعلت البنوك تفحص كل ورقة مالية تقدَّم لها واهتمت النيابة العمومية بالامر اهتماماً غير عادي لا سيما وان رئيسها الاول استعفى من منصبهِ او أوعز اليهِ ليستعفي منهُ . وشاع ان الحقانية اهتمت بمذكرة المحامي عن الخواجه لاقي في مسألة السائق والايطالي حيث قال فيها ان ليس الغرض من المحاكم ان تحكم بأن حجة زيد أقوى من حجة عمرو كما يفعل اهل الجدَل بل ان تكتشف الحق وتبينهُ . وحسبت ان ذلك مبدأ قانوني وآخذت القضاة بأنهم لم يهتموا بالبحث لاكتشاف الرجل الذي اغرى ذاك الايطالي بطرح نفسهِ امام المركبة . ولما قال لها احدهم انني كنتُ اعلم ان الرجل مغرًى بهذا الفعل ولكن المحامي لم يبين مَن اغراهُ بهِ وليس من شأني ان اقوم مقام المحامي في اظهار حق موكلهِ عنَّفتهُ تعنيفاً شديداً وخيَّرتهُ بعد ان يستعفي او يُحاكم فاختار المحاكمة اولاً ثم اختار الاستعفاء . ورسخ في الاذهان من ذلك الحين ان القضاء يطلب من القضاة ان يظهروا الحق ولو

عجز المحامون عن اظهارهِ

واتفق ان حدثت هذه الامور كلها في غضون التحقيق عن السرقتين فزاد الاهتمام بهما والقى البوليس القبض على ثلاثة ترجحت التهمة عليهم وعزرا في جملتهم . أُلقي القبض عليهم كلهم في ساعة واحدة وسيقوا الى السجن وضُرب اجل لمحاكمتهم بعد ستة ايام . ولما شاع ان عزرا في جملة المتهمين تضاربت الاقوال والظنون وظن الاكثرون ان النيابة مخطئة في عملها او انهُ يتعذّر عليها ان تثبت التهمة عليهِ وغصّت المحكمة وساحتها بالناس قبل المرافعة بساعتين وأُتي بالمتهمين ووضعوا في قفص المجرمين وذكر القاضي خلاصة التهمة وهي ان الخواجه عزرا تواطأ مع اثنين من اللصوص فقلدوا مفاتيح الخزانة التي في بنك الخواجه لاقي وسرقوا ما فيها ثم قصدوا اخفاء فعلتهم فكسروا خزانة الحديد التي في بنك الخواجه عزرا واخذوا كل ما فيها ولا سيما دفاترهُ وان المسروقات كلها وجدت في بيت الخواجه عزرا نفسهِ وظهر من فحص دفاترهِ انهُ لم يكتفِ بالسرقة ومشاركتهِ اللصوص بل زوَّر دفاترهُ في اماكن كثيرة فاختلس من الذين كانوا يشتغلون معهُ اموالاً طائلة

ثم وقف رئيس النيابة وجعل يبسط الأدلة التي اوصلتهم الى اكتشاف السرقتين والسارقين وكان اقواها آثار انامل عزرا على الخزانتين كما ظهرت في الصور الفوتوغرافية التي صوّرت الخزنتان بها بُعَيْدَ السرقة وأورد اقوال الثقات في ان آثار الانامل ادلُّ دليل على صاحبها لان شكل الخطوط التي في انامل الشخص الواحد لا يلتبس بشكل الخطوط التي في انامل غيرهِ . واستغرقت مرافعة رئيس النيابة نحو ساعتين فلم تبقَ شبهة عند احد ان اللصين المقبوض عليهما هما اللذان سرقا السرقتين وان عزرا شاركهما في ذلك لا سيما وقد وُجدت المسروقات كلها في بيتهِ اما شريكاهُ يهوذا وحاييم فكانا غائبين

وتكلّم بعدهُ المرافع عن اللصين فقال انهما أُغريا اغراءً اغراهما عزرا بذلك لغرض في نفسهِ لا بقصد السرقة واختلاس الاموال وطلب ان ترفق المحكمة بهما . ثم تكلّم حنين افندي مدافعاً عن عزرا فبسط الكلام على اماني الشبيبة وكيف

تحسّن للشبان عمل اعمال يتجنبونها لو قدّروا عواقبها وما ذلك عن قصدٍ سيءٍ بل عن خلل في قواهم العقلية سببهُ شدّة القوة الحيويّة فيهم وكثرة توارد الدم الى ادمغتهم فيحرف احكامهم ويحملهم على ارتكاب الموبقات وشأنهم في ذلك شأن المجانين الذين لا يطالَبون بما يفعلون . وافاض في هذا الموضوع واشار الى حب عزرا للسيدة استير واليأس الذي وقع فيهِ لما رآها تعرض عنهُ ازدراءً وتزيين الهوى لهُ ان يوقع اباها في ورطة ثم ينقذهُ منها لكي يكتسب رضاهُ ورضاها . واستشهد على صحة حجتهِ بأقوال كثيرة لمشاهير الاطباءِ وبأن عزرا احتفظ بكل ما اخذهُ من خزانة الخواجه لاڤي لم يفرط بغرش منهُ ثم طلب ان يعامل بالرحمة

اما احمد بك المطالِب بالحق المدني فلم يطلب سوى ان تردَّ الاموال وفوائظها ولم يعارض في طلب الرحمة المدَّعى عليهم

وقام القضاة للمداولة فتداولوا دقائق قليلةً ثم اصدروا حكمهم بنفي يني اكوليلو ورفيقهِ وبالسجن سنتين على عزرا وبردّ المسروقات الى اصحابها وبأن يدفع عزرا فائدة الاوراق المالية بمعدّل سبعة في المئة وسائر النفقات

وكان عزرا قد استدعى حنين افندي الى السجن قبل المرافعة بيوم وانفرد بهِ ساعةً من الزمان وعاد حنين افندي من عندهِ ومرَّ على مكتب احمد بك وسار بهِ الى بيت الخواجه لاڤي وقال مخاطباً الخواجه لاڤي ان عزرا ولدكم وابن امتكم قد زيَّن لهُ الغرور انهُ اهلٌ لأن يقترن بابنتكم حاسباً ان البنت مهما كان ابوها ترتضي بفتًى مثل اخيها ولا يقلُّ سعياً عن ابيها • وعزرا كما تعلم من اكثر شبان أمّتكم سعياً وقد كسب ثروةً طائلةً في سنتين من الزمان فلما رأى ان السيدة استير تنظر اليهِ شزراً وأن كل توددهِ اليها لم يجدهِ نفعاً طار صوابهُ وفعل فعل المجانين وأنا اقدر ان أثبت لك طبيًّا يا خواجه لاڤي ان الولد جُنَّ وما هذه اوّل مرة جُنَّ فيها العاشق ففعل فعل المجانين واتفق مع اللصوص على سرقة مكتبك لا طمعاً بالمال بل لكي يكتشف لك السرقة اخيراً ويقلدك منةً وظنَّ ان يضيف اموالهُ ايضاً الى المسروقات حتى يجد اموالك بحجة التفتيش عن اموالهِ فالقصد حسنٌ كما ترى ولكن فعلهُ في حدّ الحماقة لايفعلهُ الاَّ

المجنون فارحم شبابهُ وارحم ذويهِ ولا تقضِ عليه قضاءً مبرماً

فتأثر الخواجه لاڤي من هذا الكلام وقال لامانع عندي اذا كان احمد بك يرى وجهاً للعفو عنهُ ولكن لا بدّ من ان يردّ لي اموالي كلها مع فوائظها مدة شهر او اكثر

فقال حنين الاموال كلها في المحافظة وستسلمها اليك بعد الحكم

الخواجه لاڤي — والفوائظ

حنين افندي — أنا اتعهد لك بها على معدَّل خمسة في المئة كما تقدّرها المحكمة

الخواجه لاڤي — انت تعلم ان القطع غالٍ الآن والبنوك لا تسلّف الاّ بسبعةٍ في المئة فلا اقبل الاّ سبعة في المئة

فقال حنين افندي سبعة في المئة سبعة في المئة فقُل لاحمد بك ان لا يطالب بالحق المدني بل يؤيدنا في طلب الرحمة

فسُرَّ الخواجه لاڤي لانهُ لم يكن يشاء الانتقام من عزرا بل كان يشفق عليهِ وطلب من احمد بك ان يفعل كلَّ ما في وسعهِ لانقاذهِ ولما بلغهُ حكم المحكمة سُرّي عنهُ وودَّ لو أُطلق سبيلهُ وودَّت استير ان يكون عقاب عزرا اشدَّ ولكن سرورها باكتشاف اللصوص وحزنها على هنري وأختهِ صرفاها عن الاهتمام بأمرهِ ولا سيما بعد ان علمت انهُ فعل ما فعل حبًّا بها

الفصل التاسع والثلاثون

﴿ الخاتمـة ﴾

القمر بدرٌ والسماء صحوٌ وجوُّ القاهرة لا ضبابَ ولا غبارَ كأنهُ تهيأ لرصد الكواكب . وابو الهول يرقب النيل جارياً في مجراهُ ورمال الصحراءِ تتهيَّب حماهُ . والهرم الاكبر واقف كاسف البال كأنهُ مجرم يخشى العقاب لانهُ لم يمنع اللصوص من هتك حرمتهِ واختلاس وديعتهِ . ورعمسيس الكبير الذي ضاقت بهِ الدنيا بما رحبت احتواهُ صندوق صغير في المتحف الجديد وجلس بين آبائهِ واولادهِ وقد غارت عيناهُ والصق جلدهُ بعظمهِ

في تلك الليلة أنيرت دار واصف بك ونصب في حديقتها سرادق فخيم قُلعت لهُ الرياحين من خمائلها وأبدلت بالبسط الوثيرة ووضعت فيهِ الكراسي والمقاعد المذهبة وعلقت فيهِ الثريات الكبيرة وأبدلت شموعها بالكهربائية وتخلَّلت انوار الكهرباءِ اغصان الاشجار ونابت فيها مناب الاثمار ووقفت الموسيقى العسكرية امام البـاب الكبير تحيي المدعوين وجماعةً من جلة الشبان يستقبلونهم رجالاً ونساءً وهم من كل الامم القاطنة في القطر المصري والسيَّاح الذين يفدون اليهِ كلَّ شتاءٍ من الاقباط والعرب والشوام والاتراك والجراكسة والفرس واليونان والطليان والانكليز والفرنسويين والالمان ومن كل طبقات الناس من نظَّار الحكومة ومستشاريها وكبار الموظفين فيها ووكلاءِ الدول الاوربية وكبار ائمة الدين ورؤساءِ التجار ومديري الشركات وارباب الاملاك واصحاب الصحف . واكثرهم بالزي الافرنجي او التركي وبعضهم بالزي البلدي وكلهم بافخر ملابسهم ولا سيما النساء الاوربيات والاميركيات فانهنَّ كنَّ بحال المساءِ تتألق الجواهر في رؤوسهنَّ ونحورهنَّ وتتضوَّع الروائح العطرية من طاقات الازهار في اياديهنَّ

وفي الساعة العاشرة عزفت الموسيقى المجرية في غرفة عالية تطلُّ على الدار الداخلية وكانت هذه الدار قد أعدت للرقص وهي من ارحب دور القاهرة واعلاها بنياناً وقد وقف حولها مئات من الرجال والنساءِ في الغرف المحدقة بها متهيئين للرقص فيها ودخلها اربعة ازواج كهلان وكهلتان وفتيان وفتاتان فافتتحوا الرقص على نغم الموسيقى فاشترك فيهِ نحو اربعين او خمسين من الحضور وتناوبوا ادوارهُ الى منتصف الليل وفتحت البوفه حينئذٍ فدخلها المدعوون رجالاً ونساءً وهي حاوية افخر ما طهاهُ الطهاة واندر ما رأتهُ الموائد واعتنق ما حوتهُ الدنان

ووقف الامام احمد مع حليم بك في شرفة من شرفات الدار وقال لهُ لقد صدق الشاعر حيث قال

اذا اشتملتْ على اليأس القلوبُ　　وضاق بمـا بهِ الصدرُ الرحيبُ
واوطنتِ المكارهُ واطمأنتْ　　وارستْ في مكامنها الخطوبُ
ولم ترَ لانكشاف الضرّ وجهـاً　　ولا اغنى بحيلتـهِ الاريبُ

اتاك على قنوط منك غوث يمنُّ بهِ اللطيف المستجيبُ
فكل الحادثات وان تناهتْ فمقرون بها فرَجٌ قريبُ

مَن يحسب اننا في اقل من سنة ينفرط عقدنا ثم ينتظم ويتفرَّق شملنا ثم يجتمع وتحلُّ بنا البلايا والمحن ثم تنفرج ونعود الى احسن مما كنا . مَن كان يظن ان حليمة يخرق الرصاص صدرها ويتولاَّ ها المرض والنحول ويقضي الداء عليها ثم تبعث حيّة وتسترد قواها في شهر من الزمان . ولطالما كنتُ اجهل الحكمة من غسل الموتى واقول في نفسي لا بدّ من سبب لهُ الى ان استفاقت حليمة وهي تُغسل وتكفَّن لتدفن فرأيتُ الحكمة في ذلك واضحة كالصبح لذي عينين ولولا غسلها لواريناها التراب وهي في قيد الحياة . ولقد قرأتُ عن كثيرين فُتحت قبورهم فظهر انهم دُفنوا فيها احياءً وهم في حالة الاغماءِ ثم استفاقوا وحاولوا الخروج منها فقضي عليهم بعد ان ذاقوا العذاب الواناً

ومثل حليمة هذا الشاب الانكليزي الذي اكتنفتهُ اللجج ثم قذفت بهِ بعد ان قُطع كل رجاءٍ من نجاتهِ ولقد سمعت بالامس قصتهُ وقصة اختهِ من بعض الذين شاهدوهما من ركاب الباخرة التي كان فيها فلم ارَ في أقاصيص الاولين والآخرين ما هو اغرب من نجاتهِ

أَوَلا تحسب نجاة امين بك من هذا القبيل بعد ان سقط امام مركبة الترامواي وكاد عجلها يسحق رأسهُ أضف الى ذلك النجاة من الافلاس الذي قصدهُ عزرا الخبيث لهذا البيت الكريم وبيت الخواجه لاڤي انتقاماً من استير لانها عرفت مكرهُ وابت ان تقترن بهِ . ولقد جاء الحكم عليهِ مؤدباً لهُ ورادعاً للمحتالين عن التمادي في غيهم وسيق الى السجن عدلاً وعادت الاموال الى اصحابها والفضل في ذلك لاستير التي اكتشفت اكثر مخبآت هذه القضية بذكائها وفطنتها فعاد كل شيءٍ الى نصابهِ وعدنا الى افضل ما كنا عليهِ بمجيءِ لورد بنشيلد الى هذا القطر لانهُ ابتاع من الحكومة مئة الف فدان وعقد لها شركة ووزع اكثر اسهمها على بيت الخواجه لاڤي واصدقائهِ . واني احسب اقتران هذا الفتى الانكليزي بابنة مصرية من تباشير اقتران الغرب بالشرق فلقد فصلت بينهما الاغراض السياسية زماناً طويلاً من قبل عهد الاسكندر

ذي القرنين وعسى ان يتصلا بعد الآن فيزول ما نراهُ من النفور بين الشرقي والغربي.
وهذا العقد الشريف عقد الزيجة الذي طالما وصل بين الشعوب والقبائل من عهد المصريين القدماء وألّف بين الامم المختلفة هو الضمان الوحيد لاعادة الامتزاج بين دماءِ الشعوب ونزع ما تولّد فيها من الفوارق بتوالي الازمان

ولقد حضرت الاحتفال باقترانهما في الكنيسة المرقصية الكبرى وحضرهُ غيري من ائمتنا مع نظّار الحكومة ومستشاريهم ووكلائهم فراقني ما رأيتهُ من اجتماع المسلمين والمسيحيين والاسرائيليين ومن اشتراك اساقفة المذهب الانكليزي مع اساقفة المذهب القبطي فان ذلك كلهُ من ادلّة التقرُّب الواجب بين المذاهب والملل ولو شاء ربك لجعل الناس امّةً واحدة وما بينهم من الاختلاف ليس بضائر اذا لم يستعملوهُ وسيلةً للضرر ولا سبيلاً للكسب

وبينما كانا يتكلمان دنا منهما هنري وبهية متكئة على ذراعهِ وسلما عليهما فهنأهما الامام احمد واعاد لهما بعض حديثهِ الاخير فشكرهُ هنري على ما سمعهُ منهُ من الاقوال الفلسفية والتهانيءِ القلبية والتفتت بهية الى حليم بك وقالت ان جمال تلك الليلة لاينقصهُ الاّ حضور حليمة . ثم اقبل السر ادورد برون مع مدام واصف بك وواصف بك مع مدام لاڤي والخواجه لاڤي مع لادي برون وامين بك مع استير والخواجه يوسف مع دورا ووقف الكل حول هنري وبهية والامام احمد وحليم بك والتفتت بهية الى مَن حولها وفي لحظة من الزمان مرَّ أمام مخيلتها ما مرَّ بها و بالذين حولها من العبر منذ التقوا في البالُّو الخديوي الى تلك الساعة فجالت الدموع في عينيها دموع الشكر للعناية التي بدّلت ايام البؤس بأيّام النعيم وجمعت شملها بحبيبها بعد ذاك الفراق الاليم

وعُرضت هدايا العروس وكان بينها الماسة اليتيمة المعروفة بباشا مصر وثقلها تسعة واربعون قيراطاً ويقدَّر ثمنها بنحو ستة واربعين ألف جنيه اهداها واصف بك الى ابنتهِ بعد ان صاغها لهـا في قلادةٍ لتعلق في عنقها فدلّت على ان ثروتهُ تفوق ما قدّرهُ المقدّرون

بينما كان الاحتفال قائماً في دار واصف بك باقتران ابنتهِ كان الخدم يحتفلون باقترانٍ آخر فقد حضر شيخ من المأذونين وكتب كتاب قدم خير جارية بيت الخواجه لاڤي على عبد الله خادم بيت واصف بك واستأذن الاثنان اسيادهما في السفر الى بلادهما واهدت اليهما بهية واستير ومدام واصف بك ومدام لاڤي هدايا كثيرة . ولم يكن سرور الخدم اقلَّ من سرور اسيادهم أما زين الدار خادمة عزرا فلم تشاركهم في افراحهم بل ذهبت الى السجن لتخدم سيدها فيهِ وكانت اعطف النـاس عليهِ وأشدَّهم ولاءً لهُ

SEEN BY R.T.
PRESERVATION
SERVICES
DATE. AUG 1, 85

SEP
25
1984

FOR USE IN
LIBRARY ONLY

...معارف

...اية تاريخية شعرية (دعجاء) لناسج بردها الطيب الذكر ...مرحوم الشيخ خليل اليازجي ثمنها اربعة غروش صاغ

SEEN BY R.T.
PRESERVATION
SERVICES
DATE Aug 1, 85

...سان الثلاثة — أربعة اجزاء
تأليف الروائي الشهير اسكندر دوماس الكبير وتعريب فقيد النظم والنثر المرحوم الشيخ نجيب الحداد عدد صفحاتها ٨٢٠ صفحة ثمنها عشرون غرشاً صاغاً

غرائب الاتفاق — اربعة اجزاء
رواية ادبية فكاهية غرامية معربة عن الافرنسية بقلم الروائي الشهير المرحوم شاكر شقير « اللبناني » ثمنها عشرون غرشاً صاغاً واجرة البريد ثلاثة غروش

الزوجة المضطهدة
قصة أدبية تهذيبية تعريب الروائي الشهير المرحوم شاكر شقير ثمنها ثلاثة غروش صاغ

بوليس لندن
رواية تاريخية أدبية مترجمة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي بدر ثمنها اربعة غروش صاغ

...رشد التاجر — والدليل في مسك الدفاتر
تأليف يوسف افندي كيال ثمنهُ ثلاثون غرشا صاغاً

تاريخ السودان
تأليف عزتلو نعوم بك شقير ثلاثة اجزاء في مجلد واحد عدد صفحاته ١٢٢٨ ثمنهُ ستون غرشاً صاغاً وأجرة البريد ٨

اورشليم الجديدة — او فتح العرب بيت المقدس
بقلم فرح افندي انطون : وهي رواية تاريخية فلسفة اجتماعية حبية ثمنها عشرة غروش صاغ

ابن رشد وفلسفته
هو قاضي قضاة الاندلس واشهر فلاسفة الاسلام على الاطلاق واعظم شراح فلسفة ارسطو في العالم ثمن النسخة عشرين قرشاً صاغاً